http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

« توليتم » يعني أعرضتم ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول : { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ } نريد أن نأخذ الدقة الأدائية . . إذا أردنا أن نفسر تولّ . . فمعناها أعرض أو رفض الأمر . . ولكن الدقة لو نظرنا للقرآن لوجدنا أنه حين يلتقي المؤمن بالكافر في معركة . . فالله سبحانه وتعالى يقول : { وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله } [الأنفال : 16]

إذن فالتولي هو الإعراض . . والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بين لنا أن الإعراض يتم بنوايا مختلفة . . المقاتل يوم الزحف يعرض أو يتولى ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية أن يذهب ليقاتل في مكان آخر أو يعاون إخوانه الذين تكاثر عليهم الأعداء . . هذا إعراض ولكن ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية القتال بشكل أنسب للنصر . .

نفرض أن إنسانا مدين لك رأيته وهو قادم في الطريق فتوليت عنه . . أنت لم تعرض عنه كرها . . ولكن رحمة لأنك لا تريد المساس بكرامته . . إذن هناك تولٍّ أو إعراض ليس بنية الإعراض . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هؤلاء اليهود تولوا بنية الإعراض ، ولم يتولوا بأي نية أخرى . . أي أنهم أعرضوا وهم متعمدون أن يعرضوا . . وليس لهدف آخر .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84)

قلنا ساعة تسمع « إذ » فأعلم أن معناها أذكر . . وقلنا إن الميثاق هو العهد الموثق . . وقوله تعالى : { لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ } . . والله تبارك وتعالى ذكر قبل ذلك في الميثاق عبادة الله وحده . . وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين . . وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة إلى آخر ما جاء في الآية الكريمة . . وكلها أوامر أي وكلها افعل . . إستكمالا للميثاق . . يقول الله في هذه الآية الكريمة ما لا تفعل . . فالعبادة كما قلنا هي إطاعة الأوامر والامتناع عن النواهي . . أو ما نهى عنه الميثاق :

{ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ } ومعناها لا يسفك كل واحد منكم دم أخيه . . لا يسفك بعضكم دم

بعض . ولكن لماذا قال الله : « دماءكم »؟ لأنه بعد ذلك يقول : { وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ } . . الحكم الإيماني يخاطب الجماعة الإيمانية على أنها وحدة واحدة . . لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »

فكأن المجتمع الإيماني وحدة واحدة . . والله سبحانه وتعالى يقول : { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } [النور : 61]

ولكن إذا كنت أنا الداخل فكيف أسلم على نفسي؟ كأن الله يخاطب المؤمنين على أساس أنهم وحدة واحدة . . وعلى هذا الأساس يقول سبحانه : { لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ } . . أي لا تقتلوا أنفسكم . . السفك معناه حب الدم . . « ودماءكم » هو السائل الموجود في الجسم اللازم للحياة . . وقوله تعالى : { وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ } يعني لا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم . . ثم ربط المؤمنين من بني إسرائيل بقوله تعالى : { ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } . . أقررتم أي اعترفتم : { وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } الشهادة هي الإخبار بمشاهد . . والقاضي يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فيروون ما شاهدوا . . وأنت حين تروي ما شاهدت . . فكأن الذين سمعوا أصبح ما وقع مشهودا وواقعا لديهم . . وشاهد الزور يغير المواقع .

الحق سبحانه وتعالى يخاطب اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويذكرهم بما كان من آبائهم الأولين . . وموقفهم من أخذ الميثاق حين رفع فوقهم جبل الطور وهي مسألة معروفة . . والقرآن يريد أن يقول لهم إنكم غيرتم وبدلتم فيما تعرفون . . فالذي جاء على هواكم طبقتموه . . والذي لم يأت على هواكم لم تطبقوه .

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)

يخاطب الحق جل جلاله اليهود ليفضحهم لأنهم طبقوا من التوراة ما كان على هواهم . . ولم يطبقوا ما لم يعجبهم ويقول لهم : { أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ } . إنه يذكرهم بأنهم وافقوا على الميثاق وأقروه .

ولقد نزلت هذه الآية عندما زنت امرأة يهودية وأرادوا ألا يقيموا عليها الحد بالرجم . . فقالوا نذهب إلى محمد ظانين أنه سيعفيهم من الحد الموجود في كتابهم . . أو أنه لا يعلم ما في كتابهم . . فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم هذا الحكم موجود عندكم في التوراة . .

قالوا عندنا في التوراة أن نلطخ وجه الزاني والزانية بالقذارة ونطوف به على الناس . . قال لهم رسول الله لا . . عندكم آية الرجم موجودة في التوراة فانصرفوا . . فكأنهم حين يحسبون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخفف حدا من حدود الله . . يذهبون إليه ليستفتوه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاء تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ } . . أي بعد أن أخذ عليكم الميثاق ألا تفعلوا . . تقتلون أنفسكم . . يقتل بعضكم بعضا ، أو أن من قتل سيقتل . فكأنه هو الذي قتل نفسه . . والحق سبحانه قال : { ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاء تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ } . . لماذا جاء بكلمة هؤلاء هذه؟ لإنها إشارة للتنبيه لكي نلتف إلى الحكم .

وقوله تعالى : { وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ } وحذرهم بقوله : { وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ } . . وجاء هذا في الميثاق . ما هو الحكم الذي يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا إليه؟ نقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة إنتقل من دار شرك إلى دار إيمان . . ومعنى دار إيمان أن هناك مؤمنين سبقوا . . فهناك من آمن من أهل المدينة . . لقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة ولكنها كانت هجرة إلى دار أمن وليست دار إيمان . . ولكن حين حدثت بيعة العقبة وجاء جماعة من المدينة وعاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به . . أرسل معهم الرسول مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم . . وجاءت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام على خميرة إيمانية موجودة . . لما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أفسد على اليهود خطة حياتهم . . فاليهود كانوا ممثلين في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة . . وكان هناك في المدينة الأوس والخزرج . . وبينهما حروب دائمة قبل أن يأتي الإسلام . . فاليهود قسموا أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى يضمنوا استمرار العداوة . . فكلما هدأ القتال أهاجوا أحد المعسكرين على الآخر ليعود القتال من جديد .

. وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم .

إن الذي صنع الشيوعية يهودي ، والذي صنع الرأسمالية يهودي . . والذي يحرك العداوة بين المعسكرين يهودي . . وكان بنو النضير وبنو قينقاع مع الخزرج وبنو قريظة مع الأوس . . فإذا إشتبك الأوس والخزرج كان مع كل منهم حلفاؤه من اليهود . عندما تنتهي المعركة ماذا كان يحدث؟ إن المأسورين من بني النضير وبني قينقاع يقوم بنو قريظة بالمساعدة في فك أسرهم . . مع أنهم هم المتسببون في هذا الأسر . . فإذا إنتصرت الأوس وأخذوا أسرى من الخرج ومن حلفائهم اليهود . . يأتي اليهود ويعملون على إطلاق سراح الأسرى اليهود . . لأن عندهم نصاً أنه إذا وجد أسير من بني إسرائيل فلابد من فك أسره .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم إن أعمالكم في أن يحارب بعضكم بعضا وأن تسفكوا دماءكم . . لا تتفق مع الميثاق الذي أخذه الله عليكم بل هي مصالح دنيوية . . تقتلون أنفسكم والله نهاكم

عن هذا : { وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ } والله نهاكم عن هذا : { تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بالإثم وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ } . . وهذا ما كان يحدث في المدينة في الحروب بين الأوس والخزرج كما بينا . . والأسارى جمع أسير وهي على غير قياسها ، لأن القياس فيها أسرى . . ولذلك نرى في آية أخرى أنه يأتي قول الله سبحانه وتعالى : { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض } [الأنفال : 67]

ولكن القرآن أتى بها أسارى . . واللغة أحيانا تأتي على غير ما يقتضيه قياسها لتلفتك إلى معنى من المعاني . . فكسلان تجمع كسالى . والكسلان هو هابط الحركة . . الأسير أيضا أنت قيدت حركته . . فكأن جمع أسير على أسارى إشارة إلى تقييد الحركة . . القرآن الكريم جاء بأسارى وأسرى . . ولكنه حين استخدم أسارى أراد أن يلفتنا إلى تقييد الحركة مثل كسالى . . ومعنى وجود الأسرى أن حربا وقعت . . لحرب تقتضي الالتقاء والالتحام . . ويكون كل واحد منهم يريد أن يقتل عدوه .

كلمة الأسر هذه أخذت من أجل تهدئة سعار اللقاء . . فكأن الله أراد أن يحمي القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال لهم إستأسروهم . . لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل . . ولكن خذوهم أسرى وفي هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية . . وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة . . لأنه لو لم يكن الأسر مباحا . . لكان لابد إذا إلتقى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر . . لذلك يقال خذه أسيرا إلا إذا كان وجوده خطراً على حياتك .

وقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِن يَأْتُوكُمْ أسارى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ } . . كانت كل طائفة من اليهود مع حليفتها من الأوس أو الخزرج .

. وكانت تخرج المغلوب من دياره وتأخذ الديار . . وبعد أن تنتهي الحرب يفادوهم . . أي يأخذون منهم الفدية ليعيدوا إليهم ديارهم وأولادهم .

لماذا يقسم اليهود أنفسهم هذه القسمة . . إنها ليست تقسيمة إيمانية ولكنها تقسيمة مصلحة دنيوية . . لماذا؟ لأنه ليس من المعقول وأنتم أهل كتاب . . ثم تقسمون أنفسكم قسما مع الأوس وقسما مع الخزرج . . ويكون بينكم إثم وعدوان .

وقوله تعالى : { تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بالإثم وَالْعُدْوَانِ } . . تظاهرون عليهم . أي تعاونون عليهم وأنتم أهل دين واحد : « بالإثم » . . والإثم هو الشيء الخبيث الذي يستحي منه الناس : « والعدوان » . . أي التعدي بشراسة . . وقوله تعالى : { أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ } . . أي تأخذون القضية على أساس المصلحة الدنيوية . . وتقسمون أنفسكم مع الأوس أو الخزرج . . تفعلون ذلك وأنتم مؤمنون بإله ورسول وكتاب . . مستحيل أن يكون دينكم أو نبيكم قد أمركم بهذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذلك مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحياة الدنيا } أي إنكم فعلتم ذلك وخالفتم لتصلوا إلى مجد دنيوي ولكنكم لم تصلوا إليه . . سيصيبكم الله بخزي في الدنيا . . أي أن الجزاء لن يتأخر إلى الآخرة بل سيأتيكم خزي وهو الهوان والذل في الدنيا . . وماذا في الآخرة؟ يقول الله تعالى : { وَيَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العذاب } الخزي في الدنيا أصابهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . . وأخرج بنو قينقاع من ديارهم في المدينة . . كذلك ذبح بنو قريظة بعد أن خانوا العهد وخانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . . وهكذا لا يؤخر الله سبحانه وتعالى جزاء بعض الذنوب إلى الآخرة . . وجزاء الظلم في الدنيا لا يؤجل إلى الآخرة ، لأن المظلوم لابد أن يرى مصرع ظالميه حتى يعتدل نظام الكون . . ويعرف الناس أن الله موجود وأنه سبحانه لكل ظالم بالمرصاد . . اليهود أتاهم خزي الدنيا سريعا : { يَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العذاب } .

قد يتساءل الناس ألا يكفيهم الخزي في الدنيا عن عذاب الآخرة؟ نقول لا . . لأن الخزي لم ينلهم في الدنيا حدا . . ولم يكن نتيجة إقامة حدود الله عليهم . . فالخزي حين ينال الإنسان كحد من حدود الله يعفيه من عذاب الآخرة . . فالذي سرق وقطعت يده والذي زنا ورجم . . هؤلاء نالهم عذاب من حدود الله فلا يحاسبون في الآخرة . . أما الظالمون فالأمر يختلف . . لذلك فإننا نجد إناسا من الذين ارتكبوا إثما في الدنيا يلحون على إقامة الحد عليهم لينجوا من عذاب الآخرة . . مع أنه لم يرهم أحد أو يعلم بهم أحد أو يشهد عليهم أحد . . حتى لا يأتي واحد ليقول : لماذا لا يعفي الظالمون الذي أصابهم خزي في الدنيا من عذاب الآخرة؟ نقول إنهم في خزي الدنيا لم يحاسبوا عن جرائمهم .

. أصابهم ضر وعذاب . . ولكن أشد العذاب ينتظرهم في الآخرة . . وما أهون عذاب الدنيا هو بقدرة البشر بالنسبة لعذاب الآخرة الذي هو بقدرة الله سبحانه وتعالى ، كما أن هذه الدنيا تنتهي فيها حياة الإنسان بالموت ، أما الآخرة فلا موت فيها بل خلود في العذاب .

ثم يقول الحق جل جلاله : { وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } . . أي لا تحسب أن الله سبحانه وتعالى يغفل عن شيء في كونه فهو لا تأخذه سنة نوم . . وهو بكل شيء محيط .

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)

ويذكر لنا الله سبحانه وتعالى سبب خيبة هؤلاء وضلالهم لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . . جعلوا الآخرة ثمنا لنزواتهم ونفوذهم في الدنيا . . هم نظروا إلى الدنيا فقط . . ونظرة الإنسان إلى الدنيا ومقارنتها بالآخرة تجعلك تطلب في كل ما تفعله ثواب الآخرة . . فالدنيا عمرك فيها محدود . . ولا تقل عمر الدنيا مليون أو مليونان أو ثلاثة ملايين سنة . . عمر الدنيا بالنسبة لك هو

مدة بقائك فيها . . فإذا خرجت من الدنيا انتهت بالنسبة لك . . والخروج من الدنيا بالموت . . والموت لا أسباب له ولذلك فإن الإسلام لا يجعل الدنيا هدفا لأن عمرنا فيها مظنون . . هناك من يموت في بطن أمه . . ومن يعيش ساعة أو ساعات ، ومن يعيش إلى أرذل العمر . . إذن فاتجه إلى الآخرة ، ففيها النعيم الدائم والحياة بلا موت المتعة على قدرات الله . . ولكن خيبة هؤلاء أنهم إشتروا الدنيا بالآخرة . . ولذلك يقول الحق عنهم : { فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ } . . لا يخفف عنهم العذاب أي يجب ألا يأمنوا أن العذاب في الآخرة سيخفف عنهم . . أو ستقل درجته أو تنقص مدته . . أو سيأتي يوما ولا يأتي يوما وقوله : { وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ } . . النصرة تأتي على معنيين . . تأتي بمعنى أنه لا يغلب . . وتأتي بمعنى أن هناك قوة تنتصر له أي تنصره . . كونه يغلب . . الله سبحانه وتعالى غالب على أمره فلا أحد يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . . ولكن الله يملك النفع والضر لكل خلقه . . ويملك تبارك وتعالى أن يقهر خلقه على ما يشاء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : { قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَآءَ الله } [الأعراف : 188]

أما مسألة أن ينصره أحد . . فمن الذي يستطيع أن ينصر أحدا من الله . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام : { وياقوم مَن يَنصُرُنِي مِنَ الله } [هود : 30]

يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب } . . أمر لم يقع بعد بل سيقع مستقبلا . . يتحدث الله سبحانه وتعالى عنه بلهجة المضارع . . نقول إن كل أحداث الكون وما سيقع منها هو عند الله تم وانتهى وقضى فيه . . لذلك نجد في القرآن الكريم قوله سبحانه : { أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل : 1]

أتى فعل ماضي . . ولا تستعجلوه مستقبل . . كيف يقول الله سبحانه وتعالى أتى ثم يقول لا تستعجلوه؟ إنه مستقبل بالنسبة لنا . . أما بالنسبة لله تبارك وتعالى فمادام قد قال أتى . . فمعنى ذلك أنه حدث . . فلا أحد يملك أن يمنع أمرا من أمور الله من الحدوث . . فالعذاب آت لهم آت . . ولا يخفف عنهم لأن أحدا لا يملك تخفيفه .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)

وبعد أن بيّن الحق سبحانه وتعالى لنا ما فعله اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام . . أراد أن يبين لنا ما فعله بنو إسرائيل بعد نبيهم موسى . . وأراد أن يبين لنا موقفهم من رسول جاءهم منهم . . ولقد جاء لبني إسرائيل رسل كثيرون لأن مخالفاتهم للمنهج كانت كثيرة . . ولكن الآيةَ الكريمة ذكرت عيسى عليه السلام . . لأن الديانتين الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هما اليهودية والنصرانية . . ولكن لابد أن نعرف أنه قبل مجيء عيسى . . وبين رسالة موسى ورسالة عيسى

عليهما السلام رسل كثيرون . . منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم . . فكأنه في كل فترة كان بنو إسرائيل يبتعدون عن الدين . . ويرتكبون المخالفات وتنتشر بينهم المعصية . . فيرسل اللهُ رسولا يعدل ميزانَ حركة حياتهم . . ومع ذلك يعودون مرة أخرى إلى معصيتهم وفسقهم . . فيبعث اللهُ رسولا جديداً . . ليزيل الباطل وهوى النفس من المجتمع ويطبق شرع الله . . ولكنهم بعده يعودون مرة أخرى إلى المعصية والكفر .

وقال اللهُ سبحانه وتعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب } والقائلُ هو اللهُ جل جلاله . .

والكتابُ هو التوراةُ : { وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بالرسل } . . واللهُ تبارك وتعالى بين لنا موقفَ بني إسرائيل من موسى . . وموقِفَهُم من رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم خاتمِ الأنبياءِ والمرسلين . . ولكنه لم يبين لنا موقفَهُم من الرسلِ الذين جاءوا بعد موسى حتى عيسى ابن مريم .

الحقُ سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا . . إلى أنه لم يترك الأمر لبني إسرائيل بعد موسى . . أن يعملوا بالكتاب الذي أرسل معه فقط . . ولكنه أتبع ذلك بالرسل . . حين تسمع « قفينا » . . أي اتبعنا بعضهم بعضا . . كل يخلف الذي سبقه . « وقفينا » مشتقة من قفا . . وقفا الشيء خلفه . . وتقول قفوت فلاناً أي سرت خلفه قريباً منه .

إن الحق يريد أن يلفتنا إلى أن رسالةَ موسى لم تقف عند موسى وكتابه . . ولكنه سبحانه أرسل رسلاً وأنبياءَ ليذكروا وينبهوا . . ولقد قلنا إن كثرةَ الأنبياءِ لبني إسرائيلَ ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم . . إنهم يتفاخرون أنهم أكثرُ الأممِ أنبياءً . . ويعتبرون ذلك ميزة لهم ولكنهم لم يفهموا . . فكثرة الأنبياء والرسل دلالةَ على كثرة فساد الأمة ، لأن الرسل إنما يجيئون لتخليص البشريةِ من فساد وأمراض وإنقاذها من الشقاء . . وكلما كثُرَ الرسلُ والأنبياءُ دل ذلك على أن القومَ قد انحرفوا بمجرد ذهابِ الرسولِ عنهم ، ولذلك كان لابد من رسول جديد . . تماما كما يكون المريض في حالةٍ خطرةٍ فيكثر أطباؤه بلا فائدةٍ . . وليقطع اللهُ سبحانه وتعالى عليهم الحجةَ يومَ القيامةِ .

. لم يترك لهم فترةً من غفلةٍ . . بل كانت الرسلُ تأتيهم واحدا بعد الآخر على فتراتٍ قريبةٍ . وإذا نظرنا إلى يوشع وأشمويه وشمعون . وداود وسليمان وشعيب وأرميا . وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى . . نرى موكبا طويلاً جاء بعد موسى . . حتى إنه لم تمر فترةٌ ليس فيها نبي أو رسول . . وحتى نفرقَ بين النبيِ والرسولِ . . نقول النبيُ مرسلٌ والرسولُ مرسلٌ . . كلاهما مرسلٌ من اللهِ ولكن النبيَ لا يأتي بتشريعٍ جديدٍ . . وإنما هو مرسلٌ على منهجِ الرسولِ الذي سَبَقَهُ . . واقرأ قولَهُ سبحانه : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ } [الحج : 52]

إذن فالنبي مرسل أيضاً . . ولكنه أسوةٌ سلوكيةٌ لتطبيقِ منهجِ الرسولِ الذي سبقه .

وهل اللهُ سبحانه وتعالى قص علينا قصص كل الرسل والأنبياء الذين أرسلهم؟ اقرأ قوله تبارك

وتعالى : { وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً } [النساء : 164]

إذن هناك رسلٌ وأنبياء أرسلوا إلى بني إسرائيل لم نعرفهم . . لأن الله لم يقصص علينا نبأهم . . ولكن الآية الكريمة التي نحن بصددها لم تذكر إلا عيسى عليه السلام . . باعتباره من أكثر الرسل أتباعا . . والله تبارك وتعالى حينما أرسل عيسى أيده بالآيات والبينات التي تثبت صدقَ بلاغه عن اللهِ . . ولذلك قال جل جلاله : { وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ البينات وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القدس } . . وعيسى ابنُ مريمَ عليه السلام جاء ليرد على المادية التي سيطرت على بني إسرائيل . . وجعلتهم لا يعترفون إلا بالشيء المادي المحسوس . . فعقولهم وقلوبهم أغلقت من ناحية الغيب . . حتى إنهم قالوا لموسى : { أَرِنَا الله جَهْرَةً } . . وحين جاءهم المن والسلوى رزقاً من الله . . خافوا أن ينقطع عنهم لأنه رزقٌ غيبيّ فطلبوا نبات الأرض . . لذلك كان لابد أن يأتي رسول كل حياته ومنهجه أمور غيبية . . مولده أمر غيبي ، وموته أمر غيبي ورفعه أمر غيبي ومعجزاته أمور غيبية حتى ينقلهم من طغيان المادية إلى صفاء الروحانية .

لقد كان أول أمره أن يأتي عن غير طريق التكاثر الماديّ . . أي الذي يتم بين الناس عن طريق رجل وأنثى وحيوان منويّ . . واللهُ سبحانه وتعالى أراد أن يخلع من أذهان بني إسرائيل أن الأسباب المادية تحكمه . . وإنما هو الذي يحكم السبب . هو الذي يخلق الأسباب ومتى قال : « كن » كان . . بصرف النظر عن المادية المألوفة في الكون . . وفي قضية الخلق أراد الله جل جلاله للعقول أن تفهم أن مشيته هي السبب وهي الفاعلة . . واقرأ قوله سبحانه : { لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }

[الشورى : 49-50]

فكأن الله سبحانه وتعالى جعل الذكورة والأنوثة هما السبب في الإنجاب . . ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنةً على الأسباب . . فيأتي رجل وامرأة ويتزوجان ولكنهما لا ينجبان . . فكأن الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئا إلا بإرادة المسبب .

والله سبحانه وتعالى يقول : { وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ البينات وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القدس } . . لماذا قال الحق تبارك وتعالى : { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القدس } . . ألم يكن باقي الرسل والأنبياء مؤيدين بروح القدس؟

نقول : لقد ذكر هنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح ستشيع في كل أمر له . . ميلاداً ومعجزةً وموتاً . . والروحُ القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبدا . . لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف الناس وطبيعة البشر مما جعله معرضاً دائماً للهجوم . . ولذلك

لابد أن يكون الوحي في صحبته لا يفارقه . . ليجعل من مهابته على القوم ما يرد الناس عنه . . وعندما يتحدث القرآن أنه رفع إلى السماء . . اختلف العلماء هل رفع إلى السماء حيا؟ أو مات ثم رفع إلى السماء؟ نقول : لو أننا عرفنا أنه رُفع حيا أو مات فما الذي يتغير في منهجنا؟ لا شيء . . وعندما يقال إنه شيء عجيب أن يرفع إنسان إلى السماء ، ويظل هذه الفترة ثم يموت . . نقول إن عيسى ابنَ مريمَ لم يتبرأ من الوفاة . . إنه سيُتَوَفّى كما يُتَوَفَّى سائر البشر . . ولكن هل كان ميلاده طبيعياً؟ الإجابة لا . . إذن فلماذا تتعجب إذا كانت وفاته غير طبيعية؟ لقد خلق من أم بدون أب . . فإذا حدث أنه رفع إلى السماء حياً وسينزل إلى الأرض فما العجب في ذلك؟ ألم يصعد رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى السماء حياً؟ ثم نزل لنا بعد ذلك إلى الأرض حياً؟ لقد حدث هذا لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام . . إذن فالمبدأ موجود . . فلماذا تستبعد صعود عيسى ثم نزوله في آخر الزمان؟ والفرق بين محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعيسى هو أن محمداً لم يمكث طويلاً في السماء ، بينما عيسى بقى . . والخلاف على الفترة لا ينقض المبدأ .

عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »

وهذا الحديث موجود في صحيح البخاري . . فقد جعله الله مثلا لبني إسرائيل . . واقرأ قوله سبحانه : { إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لبني إِسْرَائِيلَ } [الزخرف : 59]

قوله تعالى : { وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ البينات } .

. البينات هي المعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات . . وهي الأمور البينة الواضحة على صدق رسالته .

لكننا إذا تأملنا في هذه المعجزات . . نجد أن بعضها نسبت لقدرة الله كإحياء الموتى جاء بعدها بإذن الله . . وبعضها نسبها إلى معجزته كرسول . . ومعروف أنه كرسول يؤيده اللهُ بمعجزات تخرق قوانين الكون . . ولكن هناك فرقاً بين معجزة تعطي كشفاً للرسول . . وبين معجزة لابد أن تتم كل مرة من الله مباشرة . . واقرأ الآية الكريمة : { وَرَسُولاً إلى بني إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أني أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله وَأُبْرِىءُ الأكمه والأبرص وَأُحْيِ الموتى بِإِذْنِ الله وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [آل عمران : 49]

وهكذا نرى في الآية الكريمة أنه بينما كان إخبار عيسى لما يأكل الناس وما يدخرون في بيوتهم كشفاً من الله . . كان إحياء الموتى في كل مرة بإذن الله . . وليس كشفا ولا معجزة ذاتية لعيسى

عليه السلام . . إن كل رسول كان مؤيداً بروح القدس وهو جبريل عليه السلام . . ولكن الله أيد عيسى بروح القدس دائما معه . . وهذا معنى قوله تعالى : { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القدس } . . وأيدناه مشتقة من القوة ومعناها قويناه بروح القدس في كل أمر من الأمور . . وكلمة روح تأتي على معنيين . . المعنى الأول ما يدخل الجسم فيعطيه الحركة والحياة . . وهناك روح أخرى هي روح القيم تجعل الحركة نافعة ومفيدة . . ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى القرآن بالروح . . واقرأ قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا } [الشورى : 52]

والقرآن روح . . من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم . . إذن كل ما يتصل بالمنهج فهو روح . . والقدس هذه الكلمة تأتي مرة بضم القاف وتسكين الدال . . ومرة بضم القاف وضم الدال . . وكلا اللفظين صحيح وهي تفيد الطهر والتنزه عن كل ما يعيب ويشين . . والقدس يعني المطهر عن كل شائبة .

قوله تبارك وتعالى : { أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُكُمْ استكبرتم } قوله تعالى : « أفكلما » . . هناك عطف وهناك استفهام ، وهي تعني أكفرتم ، وكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . . أي إن اليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله . . وهم يريدون أن يشرعوا لرسلهم . . فإذا جاء الرسول بما يخالف هواهم كذَّبوه أو قتلوه .

وقوله تعالى : { بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُكُمْ } . . هناك هَوَى بالفتحة على الواو وهَوِيَ بالكسرة على الواو . . هَوَى بالفتحة على الواو بمعنى سقط إلى أسفل . . وهَوِيَ بالكسرة على الواو معناه أحب وأشتهى .

. اللفظان ملتقيان . . الأول معناه الهبوط ، والثاني حب الشهوة والهوى يؤدي إلى الهبوط . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع يقول (تَعَالَوْا) ومعناها؟إرتفعوا من موقعكم الهابط . . إذن فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعطينا هذا المعنى ، وكيف أن الدين يعصمنا من أن نهوى ونسقط في جهنم يقول :

« إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعْن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم موحمون فيه » .

ومعنى آخذ بحجزكم أي آخذ بكم . . وكأننا نقبل على النار ونحن نشتهيها باتباعنا شهوتنا . . ورسول الله بمنهج الله يحاول أن ينقذنا منها . . ولكن رب نفسٍ عشقت مصرعها . . والحق تبارك وتعالى يقول : { استكبرتم فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ } [البقرة : 87]

معنى استكبرتم أي أعطيتم لأنفسكم كبرا لستم أهلا له . . ادعيتم أنكم كبارٌ ولستم كباراً . . ولكن هل المشروع مساو لك حتى تتكبر على منهجه؟ طبعا لا . . قوله تعالى : { ففريقاً كذبتم } . . والكذب كلام يخالف الواقع . . أي أنكم اتهمتم الرسل بأنهم يقولون كلاما يخالف الواقع .

لأنه يخالف ما تشتهيه أنفسكم . . وقوله تعالى : { وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ } . . التكذيب مسألة منكرة . . ولكن القتل أمر بشع . . وحين ترى إنسانا يتخلص من خصمه بالقتل فاعلم أنها شهادة بضعفه أمام خصمه . . وإن طاقته وحياته لا تطيق وجود الخصم . . ولو أنه رجلٌ مكتمل الرجولة لما تأثر بوجود خصمه . . ولكن لأنه ضعيف أمامه قتله . .

قوله تعالى : { وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ } . . مثل نبي الله يحيى ونبي الله زكريا . . وهناك قصص وروايات تناولت قصة سالومي . . وهي قصة راقصة جميلة أرادت إغراء يحيى عليه السلام فرفض أن يخضع لإغرائها . . فجعلت مهرها أن يأتوها برأسه . . وفعلا قتلوه وجاءوها برأسه على صينية من الفضة .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88)

الله سبحانه وتعالى يذكر لنا كيف برر بنو إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث منهم . . فماذا قالوا؟ لقد قالوا { قُلُوبُنَا غُلْفٌ } والغلف مأخوذ من الغلاف والتغليف . . وهناك غلْف بسكون اللام ، وغلُف بضم اللام . . مثل كتاب وكتب { قُلُوبُنَا غُلْفٌ } أي مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد ، فكأنهم يقولون إننا لسنا في حاجة إلى كلام الرسل . . أو { قُلُوبُنَا غُلْفٌ } أي مغلفة ومطبوع عليها . . أي أن الله طبع على قلوبهم وختم عليها حتى لا ينفذ إليها شعاع من الهداية . . ولا يخرج منها شعاع من الكفر .

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد فعل هذا . . ألم تسألوا أنفسكم لماذا؟ ما هو السبب؟ والحق تبارك وتعالى يرد عليهم فيقول : { بَل لَّعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ } : لفظ « بل » يؤكد لنا أن كلامهم غير صحيح . . فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلى منهج الرسل . . ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله . . فلا تنفذ إشعاعات النور ولا الهداية إلى قلوبهم . . ولكن ذلك ليس لأن ختم عليها بلا سبب . . ولكنه جزاء على أنهم جاءهم النور والهدى . . فصدوه بالكفر أولا . . ولذلك فإنهم أصبحوا مطرودين من رحمة الله . . لأن من يصد الإيمان بالكفر يطرد من رحمة الله ، ولا ينفذ إلى قلبه شعاع من أشعة الإيمان .

وهنا يجب أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يبدأهم باللعنة . وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر – علها تنجيهم من العذاب يوم القيامة – يقولون إن الله سبحانه وتعالى قال : { فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ } [فاطر : 8]

تلك هي حجة الكافرين الذين يظنون إنها ستنجيهم من العذاب يوم القيامة . . إنهم يريدون أن يقولوا إن الله يضل من يشاء . . ومادام اللهُ قد شاء أن يضلني فما ذنبي أنا؟ وهل أستطيع أن أمنع مشيئة الله . . نقول له : إن الله إذا قيد أمرا من الأمور المطلقة فيجب أن نلجأ إلى التقييد . . والله تبارك وتعالى يقول : { والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [التوبة : 37]

ويقول سبحانه : { والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [التوبة : 19]
ويقول جل جلاله : { والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [التوبة : 24]
والحق سبحانه وتعالى أخبرنا أنه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس . . الكافرين والظالمين والفاسقين . . ولكن هل هو سبحانه وتعالى منع معونة الهداية أولا؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله؟! إنسان واجه الله بالكفر . . كفر بالله . . رفض أن يستمع لآيات الله ورسله .

. ورفض أن يتأمل في كون الله . . ورفض أن يتأمل في خلقه هو نفسه ومن الذي خلقه . . ورفض أن يتأمل في خلق السموات والأرض . . كل هذا رفضه تماما . . ومضى يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرع لنفسه الكفر . . لأنه فعل ذلك أولا . . ولأنه بدأ بالكفر برغم أن الله سبحانه وتعالى وضع له في الكون وفي نفسه آيات تجعله يؤمن بالله ، وبرغم ذلك رفض . هو الذي بدأ والله سبحانه وتعالى ختم على قلبه .
الإنسان الظالم يظلم الناس ولا يخشى الله . . يذكرونه بقدره الله وقوة الله فلا يلتفت . . يختم الله على قلبه . . كذلك الإنسان الفاسق الذي لا يترك منكرا إلا فعله . . ولا إثما إلا ارتكبه . . ولا معصية إلا أسرع إليها . . لا يهديه الله . . أكنت تريد أن يبدأ هؤلاء الناس بالكفر والظلم والفسوق ويصرون عليه ثم يهديهم الله؟ يهديهم قهرا أو قَسْراً ، والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين؟ طبعا لا . . ذلك يضع الاختيار البشري في أن يطيع الإنسان أو يعصى .
والحق تبارك وتعالى أثبت طلاقة قدرته فيما نحن مقهورون فيه . . في أجسادنا التي تعمل أعضاؤها الداخلية بقهر من الله سبحانه وتعالى وليس بإرادة منا كالقلب والتنفس والدورة الدموية . . والمعدة والأمعاء والكبد . . كل هذا وغيره مقهور لله جل جلاله . . لا نستطيع أن نأمره ليفعل فيفعل . . وأن نأمره ألا يفعل فلا يفعل . . وأثبت الله سبحانه وتعالى طلاقة قدرته فيما يقع علينا من أحداث في الكون . . فهذا يمرض ، وهذا تدهمه سيارة ، وهذا يقع عليه حجر . . وهذا يسقط ، وهذا يعتدي عليه إنسان . . كل الأشياء التي تقع عليك لا دخل لك فيها ولا تستطيع أن تمنعها . . بقى ذلك الذي يقع منك وأهمه تطبيق منهج الله في افعل ولا تفعل . . هذا لك اختيار فيه .
إن الله سبحانه وتعالى أوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب في الآخرة عدلا . . فإذا اخترت الكفر لا يجبرك الله على الإيمان . . وإذا اخترت الظلم لا يجبرك الله على العدل . . وإذا اخترت الفسوق لا يجبرك الله على الطاعة . . إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .
لقد أثبت الله لنفسه طلاقة القدرة بأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء . ولكنه سبحانه قال إنه

لا يهدي القوم الكافرين ولا القوم الظالمين ولا القوم الفاسقين . . فمن يرد أن يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق . . ويكون في هذه الحالة هو الذي اختار فحق عليه عقاب الله . . لذلك فقد قال الكافرون من بني إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يهتدون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه .

. فاختاروا عدم الهداية . .

لقد أثارت هذه القضية جدلا كبيراً بين العلماء ولكنها في الحقيقة لا تستحق هذا الجدل . . فالله سبحانه وتعالى قال : { بَل لَّعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ } . . واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله . . ويتم ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى . . لأن الطرد يتناسب مع قوة الطارد .

فمثلا . . إبنك الصغير يطرد حجرا أمامه تكون قوة الطرد متناسبة مع سنه وقوته . . والأكبر أشد فأشد . . فإذا كان الطارد هو الله سبحانه وتعالى فلا يكون هناك مقدارٌ لقوة اللعن والطرد يعرفه العقل البشري .

قوله تعالى : { بَل لَّعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ } . . أي طردهم الله بسبب كفرهم . . والله تبارك وتعالى لا يتودد للناس لكي يؤمنوا . . ولا يريد للرسل أن يتعبوا أنفسهم في حمل الناس على الإيمان . . إنما وظيفة الرسول هي البلاغ حتى يكون الحساب حقا وعدلا . . واقرأ قوله جل جلاله : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4]

أي إنهم لا يستطيعون ألا يؤمنون إذا أردناهم مؤمنين قهرا . . ولكننا نريدهم مؤمنين اختيارا . . وإيمان العبد هو الذي ينتفع به . . فالله لا ينتفع بإيمان البشر . . وقولنا لا إله إلا الله لا يسند عرش الله . . قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله . . ولكننا نقولها لتشهد علينا يوم القيامة . . نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله . .

وقوله تعالى : « بكفرهم » يعطينا قضية مهمة هي : أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . فمن يشرك معه أحدا فهو لمن أشرك . . لذلك يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي : « أنا أغنى الشركاءِ عن الشِّركِ من عَمِلَ عملا أَشْرَكَ فيه معي غيري تركْتُهُ وشِركَه »

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالألوهية . . هي شهادة الذات للذات . . وذلك في قوله تعالى : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ } [آل عمران : 18]

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقا يشهدون أنه لا إله إلا الله . . شهد لنفسه بالألوهية . . ولنقرأ الآية الكريمة : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط } [آل عمران : 18]

والله سبحانه وتعالى شهد لنفسه شهادة الذات للذات . والملائكة شهدوا بالمشاهدة . . وأولو

العلم بالدليل . . والحق تبارك وتعالى يقول : { فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ } . . عندما تقول قليلا ما يحدث كذا ، فإنك تقصد به هنا صيانة الإحتمال ، لأنه من الممكن أن يثوب واحد منهم إلى رشده ويؤمن . . فيبقي اللهُ البابَ مفتوحا لهؤلاء . ولذلك نجد الذين أسرفوا على أنفسهم في شبابهم قد يأتون في آخر عمرهم ويتوبون . . في ظاهر الأمر أنهم أسرفوا على أنفسهم . .
ولكنهم عندما تابوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلى طريق الحق تقبل الله إيمانهم . . لذلك يقول الله جل جلاله : { فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ } أي أن الأغلبية تظل على كفرها . . والقلة هي التي تعود إلى الإيمان .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89)

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى . . أن بني إسرائيل قالوا إن قلوبهم غلف لا يدخلها شعاع من الهدى أو الإيمان . . أراد تبارك وتعالى أن يعطينا صورة أخرى لكفرهم بأنه أنزل كتابا مصدقا لما معهم ومع ذلك كفروا به . . ولو كان هذا الكتاب مختلفا عن الذي معهم لقلنا إن المسألة فيها خلاف . . ولكنهم كانوا قبل أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل عليه القرآن كانوا يؤمنون بالرسول والكتاب الذي ذكر عندهم في التوراة . . وكانوا يقولون لأهل المدينة . . أَهَلّ زمن رسول سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم قبل عاد وإرم .
لقد كان اليهود يعيشون في المدينة . . وكان معهم الأوس والخزرج وعندما تحدث بينهم خصومات كانوا يهددونهم بالرسول القادم . . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن .
واليهود في كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن الأوس والخزرج عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا هذا النبي الذي يهددنا به اليهود وأسرعوا يبايعونه . . فكأن اليهود سخرهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون .
والرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الناس في الطائف . . وينتظر القبائل عند قدومها إلى مكة في موسم الحج ليعرض عليهم الدعوة فيصدونه ويضطهدونه . . وعندما شاء الله أن ينتشر دعوة الإسلام جاء الناس إلى مكة ومعهم الأوس والخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهب هو إليهم ، وأعلنوا مبايعته والإيمان برسالته ونشر دعوته . . دون أن يطلب عليه الصلاة والسلام منهم ذلك . . ثم دعوه ليعيش بينهم في دار الإيمان . . كل هذا تم عندما شاء الله أن ينصر الإسلام بالهجرة إلى المدينة وينصره بمن اتبعوه .
ويقول الحق تبارك وتعالى : { وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ } . . أي أنهم قبل أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستفتحون بأنه قد أطل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه .

. فلما جاء الرسول كذبوه وكفروا برسالته .

وقوله تعالى : { عَلَى الذين كَفَرُواْ } . . أي كفار المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يكونوا أسلموا بعد . . لأن الرسول لم يأت . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا تمام الصورة في قوله تعالى : { فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين } .

وهكذا نرى أن بني إسرائيل فيهم جحود مركب جاءهم الرسول الذي انتظروه وبشروا به . . ولكن أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجيء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم في التوراة إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله . . واللعنة كما قلنا هي الطرد من رحمة الله .

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)

عندما رفض اليهود الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وطردهم الله من رحمته . . بيّن لنا أنهم : { بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنْفُسَهُمْ } . . وكلمة إشترى سبق الحديث عنها وقلنا إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التي نريدها . . ولكن الكافرين قلبوا هذا رأسا على عقب وجعلوا الثمن سلعة . . على أننا لابد أن نتحدث أولا عن الفرق بين شرى واشترى . . شَرَى بمعنى باع . . واقرأ قوله عز وجل : { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين } [يوسف : 20]

ومعنى الآية الكريمة أنهم باعوه بثمن قليل . . واشترى يعني ابتاع . . ولكن اشترى قد تأتي بمعنى شرى . . لأنك في بعض الأحيان تكون محتاجا إلى سلعة ومعك مال . . وتذهب وتشتري السلعة بمالك وهذا هو الوضع السليم . . ولكن لنفرض أنك احتجت لسلعة ضرورية كالدواء مثلا . . وليس عندك المال ولكن عندك سلعة أخرى كأن يكون عندك ساعة أو قلم فاخر . . فتذهب إلى الصيدلية وتعطي الرجل سلعة مقابل سلعة . . أصبح الثمن في هذه الحالة مشترى . . إذن فمرة يكون البيع مشتري ومرة يكون مبيعاً . .

والحق تبارك وتعالى يقول : { بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنْفُسَهُمْ } . . وكأنما يعيرهم بأنهم يدعون الذكاء والفطنة . . ويؤمنون بالمادية وأساسها البيع والشراء . . لو كانوا حقيقة يتقنون هذا لعرفوا أنهم قد أتموا صفقة خاسرة . . الصفقة الرابحة كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم . . ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فخسروا الصفقة لأنهم أخذوا الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . . والله سبحانه وتعالى يجعل بعض العذاب في الدنيا ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة . . فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذابا دنيويا يقع على ظالم . . يخاف من الظلم ويبتعد عنه حتى لا يصيبه عذاب الدنيا ويعرف أن في الدنيا مقاييس في الثواب والعقاب . . وحتى لا ينتشر في الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة . . وضع الحق تبارك وتعالى قصاصا في الدنيا . . واقرأ قوله جل جلاله : { وَلَكُمْ فِي

القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة : 179]
والله سبحانه وتعالى في قصاصه يلفت المؤمن وغير المؤمن إلى عقوبة الحياة الدنيا . . فيأتي للمرابي الذي يمتص دماء الناس ويصيبه بكارثة لا يجد بعدها ما ينفقه . . ولذلك نحن نقول يا رب إن القوم غرهم حلمك واستبطأوا آخرتك فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر حتى يعتدل الميزان .

والله تبارك وتعالى جعل مصارع الظالمين والباغين والمتجبرين في الدنيا . . جعلها الله عبرة لمن لا يعتبر بمنهج الله .

فتجد إنسانا ابتعد عن دينه وأقبلت عليه الدنيا بنعيمها ومجدها وشهرتها ثم تجده في آخر أيامه يعيش على صدقات المحسنين . . وتجد امرأة غرها المال فانطلقت تجمعه من كل مكان حلالا أو حراما وأعطتها الدنيا بسخاء . . وفي آخر أيامها تزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء . . وتموت فيجمع لها الناس مصاريف جنازتها . . كل هذه الأحداث وغيرها عبرة للناس . . ولذلك فهي تحدث على رؤوس الأشهاد . . يعرفها عدد كبير من الناس . . إما لأنها تنشر في الصحف وإما أنها تذاع بين أهل الحي فيتناقلونها . . المهم أنها تكون مشهورة .
وتجد مثلا أن اليهود الذين كانوا زعماء المدينة تجار الحرب والسلاح . . ينتهي بهم الحال أن يطردوا من ديارهم وتؤخذ أموالهم وتسبى نساؤهم . . أليس هذا خزيا؟
قوله تعالى : { أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنَزَلَ الله بَغْياً } . . البغي تجاوز الحد ، والله جعل لكل شيء حدا مَنْ تجاوزه بَغَى . . والحدود التي وضعها الله سبحانه هي أحكام . . ومرة تكون أوامر ومرة تكون نواهي . ولذلك يقول الحق بالنسبة للأوامر : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا } [البقرة : 229]
ويقول تعالى بالنسبة للنواهي : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا } [البقرة : 187]
ولكن ما سبب بغيهم؟ . . بغيهم حسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتي إليه الرسالة . . وعلى العرب أن يكون الرسول منهم . . واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ورثوا رسالات الله إلى الأرض . . وعندما جاءت التوراة والإنجيل يبشران برسول خاتم قالوا إنه منا . . الرسالة والنبوة لن تخرج عنا فنحن شعب الله المختار . . ولذلك كانوا يعلنون أنهم سيتبعون النبي القادم وينصرونه . . ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم . . حينئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا مادام ليس منا فلن نتبعه بل سنحاربه . . لقد خلعت منهم الرسالات لأنهم ليسوا أهلا لها . . وكان لابد أن يعاقبهم الله على كفرهم ومعصيتهم ويجعل الرسالة في أمة غيرهم . . والله تبارك وتعالى يقول : { إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ } [فاطر : 16-17]
لقد اختبرهم الله في رسالات متعددة ولكنهم كما قرأنا في الآيات السابقة . . كذبوا فريقا من

الأنبياء . ومن لم يكذبوه قتلوه . . لذلك كان لابد أن ينزع الله منهم هذه الرسالات ويجعلها في أمة غيرهم . . لتكون أمة العرب فيها ختام رسالات السماء إلى الأرض . . ولذلك بغوا .
وقوله تعالى : { بَغْياً أَن يُنَزِّلُ الله مِن فَضْلِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } . . ومن هنا نعرف أن الرسالات واختيار الرسل . . فضل من الله يختص به من يشاء . . والله سبحانه حين يطلق أيدينا ويملكنا الأسباب . . فإننا لا نخرج عن مشيئته بل نخضع لها . . ونعرف أنه لا ذاتية في هذا الكون .

. وذلك حتى لا يغتر الإنسان بنفسه . . فإن بطل العالم في لعبة معينة هو قمة الكمالات البشرية في هذه اللعبة . . ولكن هذه الكمالات ليست ذاتية فيه لأن غيره يمكن أن يتغلب عليه . . ولأنه قد يصيبه أي عائق يجعله لا يصلح للبطولة . . وعلى كل حال فإن بطولته لا تدوم . . لأنها ليست ذاتية فيه ومَنْ وهبها له وهو الله سيهبها لغيره متى شاءَ . . ولذلك لابد أن يعلم الإنسان أن الكمال البشري متغير لا يدوم لأحد . . وأن كل من يبلغ القمة ينحدر بعد ذلك لأننا في عالم أغيار . . ولابد لكل من علا أن ينزل . . فالكمال لله وحده . . والله سبحانه يحرس كماله بذاته .
إذن اليهود حسدوا رسول الله . . حسدوا نزول القرآن على العرب . . والحق سبحانه يقول : { فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ } . . والله جل جلاله يخبرنا أنه غضب عليهم مرتين .
الغضب الأول أنهم لم ينفذوا ما جاء في التوراة فغضب الله عليهم . . والغضب الثاني حين جاءهم رسول مذكور عندهم في التوراة ومطلوب منهم أن يؤمنوا به فكفروا به . . وكان المفروض أن يؤمنوا حتى يرضى الله عنهم . . ولذلك غضب الله عليهم مرة أخرى عندما كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم . .
وقوله تعالى : { وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ } . . العذاب في القرآن الكريم وُصِفَ بأنه أليم . . وَوُصِفَ بأنه عظيم وَوُصِفَ بأنه مهين . . أليم أي شديد الألم يصيب من يعذب بألم شديد . . ولكن لنفرض أن الذي يعذب يتجلد . . ويحاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس . . يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتماله . . ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل . . فإذا كان الإنسان من الذين تزعموا الكفر في الدنيا . . ووقفوا أمام دين الله يحاربونه وتزعموا قومهم . . يأتيهم الله تبارك وتعالى بعذاب مهين . . ويكون هذا أكثر إيلاما للنفس من الألم . . تماما كما تأتي لرجل هو أقوى مَنْ في المنطقة يخافه الناس جميعا ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض . . تكون في هذه الحالة قد أهنته أمام الناس . . فلا يستطيع بعد ذلك أن يتجبر أو يتكبر على واحد منهم . . ويكون هذا أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه ولذلك يقول

الحق سبحانه وتعالى : { ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ أولى بِهَا صِلِيّاً } [مريم : 69-70]
وقوله جل جلاله : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : 49]
ذلك هو العذاب المهين .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)

يبين لنا الحق سبحانه وتعالى موقف اليهود . . من عدم الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أنهم أُومروا بذلك في التوراة . . فيقول جل جلاله : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } أي إذا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا بالإسلام وأن يؤمنوا بالقرآن رفضوا ذلك { قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا } أي نؤمن بالتوراة ونكفر بما وراءه ، أي بما نزل بعده .
ونحن نعرف أن الكفر هو الستر . . ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء يناقض ما عندهم ربما قالوا : جاء ليهدم ديننا ولذلك نكفر به . . ولكنه جاء بالحق مصدقا لما معهم .
إذن حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة . . لأن القرآن يصدق ما جاء في التوراة .
وهنا يقيم الله تبارك وتعالى عليهم الحجة البالغة . . إن كفركم هذا وسلوكك ضد كل نبي جاءكم . . ولو أنكم تستقبلون الإيمان حقيقة بصدر رحب . . فقولوا لنا لِمَ قتلتم أنبياء الله؟ . . ولذلك يقول الحق : { فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ } . . هل هناك في كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله . . كأن الحق سبحانه وتعالى قد أخذ الحجة من قولهم : { نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ } . . إذا كان هذا صحيحا وأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فهاتوا لنا مما أنزل إليكم وهي التوراة ما يبيح لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة . . وطبعا لم يستطيعوا ردا لأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . فهم كاذبون في قولهم نؤمن بما أنزل علينا . . لأن ما ينزل عليهم لم يأمرهم بقتل الأنبياء . . فكأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . وكفروا بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .
والقرآن يأتينا بالحجة البالغة التي تخرس أفواه الكافرين وتؤكد أنهم عاجزون غير قادرين على الحجة في المناقشة . . وهنا لابد أن نتنبه إلى قوله تعالى : { فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ } . . قوله تعالى : « من قبلُ » طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قتلهم الأنبياء انتهى ، وفي الوقت نفسه قضاء على آمال اليهود في أن يقتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام . . والله يريد نزع الخوف من قلوب المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما جرى للرسل السابقين من بني إسرائيل لن يجري على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وبذلك قطع القرآن خط

الرجعة على كل من يريد أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن ذلك كان عهدا وانتهى . . وأنهم لو تآمروا على قتله عليه الصلاة والسلام فلن يفلحوا ولن يصلوا إلى هدفهم .

واليهود بعد نزول هذه الآية الكريمة لم يتراجعوا عن تآمرهم ولن يكفوا عن بغيهم في قتل الرسل والأنبياء . . فحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة . . مرة وهو في حيهم ألقوا فوقه حجرا ولكن جبريل عليه السلام أنذره فتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه قبل إلقاء الحجر . . ومرة دسوا له السم ، ومحاولات أخرى فشلت كلها .
إذن فقوله تعالى : « من قبل » معناها . . إن كنتم تفكرون في التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم بقتله كما فعلتم في أنبيائكم نقل لكم : إنكم لن تستطيعوا أن تقتلوه .
ولقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس في نفوسهم حتى يكفوا عن أسلوبهم في قتل الأنبياء ولكنهم ظلوا في محاولاتهم ، وفي الوقت نفسه كانت الآية تثبيتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . بأن اليهود مهما تآمروا فلن يمكنهم الله من شيء . . وقوله تعالى : { إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } . . أي بما أنزل إليكم .

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92)

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى رفضهم للإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بحجة أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط . . أوضح لنا أن هذه الحجة كاذبة وأنهم في طبيعتهم الكفر والإلحاد . . فقال سبحانه : { وَلَقَدْ جَآءَكُمْ موسى بالبينات } . . أي أن موسى عليه السلام أيده الله ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفي لتملأ قلوبكم بالإيمان وتجعلكم لا تعبدون إلا الله . . فلقد شق لكم البحر ومررتم فيه وأنتم تنظرون وترون . . أي أن المعجزة لم تكن غيبا عنكم بل حدثت أمامكم ورأيتموها . . ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله . . بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلها من دون الله وعبدتموه . . فكيف تدعون أنكم آمنتم بما أنزل إليكم . . لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهاً .
والحق تبارك وتعالى يريد أن ينقض حجتهم في أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم . . ويرينا أنهم ما آمنوا حتى بما أنزل إليهم . . فجاء بحكاية قتل الأنبياء . . ولو أنهم كانوا مؤمنين حقا بما أنزل إليهم فليأتوا بما يبيح لهم قتل أنبيائهم ولكنهم كاذبون . . أما الحجة الثانية فهي إن كنتم تؤمنون بما أنزل إليكم . . فقولوا لنا كيف وقد جاءكم موسى بالآيات الواضحة من العصا التي تحولت إلى حية واليد البيضاء من غير سوء والبحر الذي شققناه لكم لتنجوا من قوم فرعون . . والقتيل الذي أحياه لله أمامكم بعد أن ضربتموه ببعض البقرة التي ذبحتموها . . آيات كثيرة ولكن بمجرد أن تركككم موسى وذهب للقاء ربه عبدتم العجل .

إذن فقولكم نؤمن بما أنزل إلينا غير صحيح . . فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم . . وكل هذه حجج الهدف منها عدم الإيمان أصلا .

وقوله تعالى : { ثُمَّ اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } . . واتخاذ العجل في ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرث أو للذبح لتأكل لحمه . . ولكن المعصية هي اتخاذ العجل معبودا . .

وقوله تعالى : { اتخذتم العجل } . . أي أن ذلك أمر مشهود لم تعبدوا العجل سرا بل عبدتموه جهرا ، ولذلك فهو أمر ليس محتاجا إلى شهود ولا إلى شهادة لأنه حدث علنا وأمام الناس كلهم . . وذكر حكاية العجل هذه ليشعروا بذنبهم في حق الله . . كأن يرتكب الإنسان خطأ ثم يمر عليه وقت . . وكلما أردنا أن نؤنبه ذكرناه بما فعل . . وقوله تعالى : { وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } . . أي ظالمون في إيمانكم . . ظالمون في حق الله بكفركم به .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93)

بعد أن ذَكَّرهم الله سبحانه وتعالى بكفرهم بعبادتهم للعجل . . وكان هذا نوعا من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر . . أراد أن يؤنبهم مرة أخرى وأن يُذَكِّرَهُم أنهم آمنوا خوفا من وقوع جبل الطور عليهم . . ولم يكن الجبل سيقع عليهم . . لأن الله لا يقهر أحدا على الإيمان . . ولكنهم بمجرد أن رأوا جبل الطور فوقهم آمنوا . . مثلهم كالطفل الذي وصف له الطبيب دواء مرا ليشفى . ولذلك فإن رَفْعَ الله سبحانه وتعالى لجبل الطور فوقهم ليأخذوا الميثاق والمنهج . . لا يقال إنه فعل ذلك إرغاما لكي يؤمنوا . . إنه إرغام المحب . . يريد الله من خلقه ألا يعيشوا بلا منهج سماوي فرفع فوقهم جبل الطور إظهارا لقوته وقدرته تبارك وتعالى حتى إذا استشعروا هذه القوة الهائلة وما يمكن أن تفعله لهم وبهم آمنوا . . فكأنهم حين أحسوا بقدرة الله آمنوا . . تماما كالطفل الصغير يفتح فمه لتناول الدواء المر وهو كاره . . ولكن هل أعطيته الدواء كرها فيه أو أعطيته له قمة في الحب والإشفاق عليه؟

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يتلقى بنو إسرائيل منهج الله الصحيح . . نقول إنه لم يترك حيلة إلا فعلها . . لكن غريزة الاستكبار والعناد منعتهم أن يستمروا على الإيمان . . تماما كما يقال للأب إن الدواء مر لم يحقق الشفاء وطفلك مريض . . فيقول وماذا افعل أكثر من ذلك أرغمته على شرب الدواء المر ولكنه لم يشف .

وقول الله تعالى : « ميثاقكم » . هل الميثاق منهم أو هو ميثاق الله؟ . طبعا هو ميثاق الله . . ولكن الله جل جلاله خاطبهم بقوله : « ميثاقكم » لأنهم أصبحوا طرفا في العقد . . ومادامو قد أصبحوا طرفا أصبح ميثاقهم . . ولابد أن نؤمن أن رفع جبل الطور فوق اليهود لم يكن لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يقال أنهم أجبروا على ذلك . . هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم

جبل الطور . . فلابد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم وطبقوه باختيارهم لأن الله سبحانه وتعالى لم يبق الطور مرفوعا فوق رءوسهم أينما كانوا طوال حياتهم حتى يقال أنهم أجبروا . . فلو أنهم أجبروا لحظة وجود جبل الطور فوقهم . . فإنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج . . ولكن المسألة أن الله تبارك وتعالى . . حينما يرى من عباده مخالفة فإنه قد يخيفهم . . وقد يأخذهم بالعذاب الأصغر علهم يعودون إلى إيمانهم . . وهذا يأتي من حب الله لعباده لأنه يريدهم مؤمنين . .

ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة والله تبارك وتعالى أراد أن يريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله .

. وليس في هذا إجبار لأنه كما قلنا إنه عندما انتهت المعجزة كان يمكنهم أن يعودوا إلى المعصية . . ولكنها آية تدفع إلى الإيمان . . وقوله تعالى : { خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ } لأن ما يؤخذ بقوة يعطى بقوة . . والأخذ بقوة يدل على عشق الآخذ للمأخوذ . . وما دام المؤمن يعشق المنهج فإنه سيؤدي مطلوباته بقوة . . فالإنسان دائما عندما يأخذ شيئا لا يحبه فإنه يأخذه بفتور وتهاون .

قوله تعالى : { واسمعوا قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } . . القول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان . . هناك قول وفعل وعمل . . القول أن تنطق بلسانك والفعل أن تقوم جوارحك بالتنفيذ . . والعمل أن يطابق القول الفعل . . هم : { قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } هم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وتعالى وعصوه . . ولكن (عصينا) على أي شيء معطوفة؟ . . إنها ليست معطوفة على « سمعنا » . . ولكنها معطوفة على (قالوا) . . قالوا سمعنا في القول وفي الفعل عصينا . . وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا في الفعل . . فالمشكلة جاءت من عطف عصينا على سمعنا . . فتحسب أنهم قالوا الكلمتين . . لا . . هم قالوا سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا . والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع تجرد أي مجرد سماع . . ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا شيئا فكأن عدم فعلهم معصية .

قوله تعالى : { وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ العجل } . الحق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم . . فالحب أمر معنوي وليس أمراً مادياً لأنه غير محسوس . . وكان التعبير يقتضي أن يقال وأشربوا حب العجل . . ولكن الذي يتكلم هو الله . . يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة في أنهم أشربوا العجل ذاته أي دخل العجل إلى قلوبهم .

لكن كيف يمكن أن يدخل العجل في هذا الحيز الضيق وهو القلب . . الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الشيوع في كل شيء بكلمة أُشْرِبُوا . . لأنها وصف لشرب الماء والماء يتغلغل في كل الجسم . . والصورة تعرب عن تغلغل المادية في قلوب بني إسرائيل حتى كأن العجل دخل في

قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء في الجسم مع أن القلب لا تدخله الماديات .
ويقول الحق جل جلاله : { وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ العجل بِكُفْرِهِمْ } . . كأن الكفر هو الذي أسقاهم العجل . . هم كفروا أولا . . وبكفرهم دخل العجل إلى قلوبهم وختم عليها . . وقوله تعالى : { قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } . . هم قالوا نؤمن بما أنزل علينا ولا نؤمن بما جاء بعده . . قل هل إيمانكم يأمركم بهذا؟ .

. وهذا أسلوب تهكم من القرآن الكريم عليهم . . مثل قوله تعالى : { أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النمل : 56]
هل الطهر والطهارة مبرر لإخراج آل لوط من القرية؟ . . طبعا لا . . ولكنه أسلوب تهكم واستنكار . . والحق أن إيمانهم بهذا بل يأمرهم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . .
واقرأ قوله تبارك وتعالى : { واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل يَأْمُرُهُم بالمعروف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلال التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فالذين آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ أولئك هُمُ المفلحون } [الأعراف : 156-157]
هذا هو ما يأمرهم به إيمانهم . . أن يؤمنوا بالنبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام . . والله تبارك وتعالى يعلم ما يأمرهم به الإيمان لأنه منه جل جلاله . . ولذلك عندما يحاولون خداع الله . . يتهكم الله سبحانه وتعالى عليهم ويقول لهم : { بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } .
وقوله تعالى : { إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } دليل على أنهم ليسوا مؤمنين . . ولكن لازال في قلوبهم الشرك والكفر أو العجل الذي عبدوه .

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94)

والله سبحانه وتعالى يريد أن يفضح اليهود . . ويبين إن إيمانهم غير صحيح وأنهم عدلوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . . وهو سبحانه يريدنا أن نعرف أن هؤلاء اليهود . . لم يفعلوا ذلك عن جهل ولا هم خُدعوا بل هم يعملون أنهم غيروا وبدلوا . . ويعرفون أنهم جاءوا بكلام ونسبوه إلى الله سبحانه وتعالى زورا وبهتانا . . ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضحهم أمام الناس ويبين كذبهم بالدليل القاطع . . فيقول : { قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة } : « قل » موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أي قل لهم يا محمد . . ولا يقال هذا

الكلام إلا إذا كان اليهود قالوا إن لهم : « الدار الآخرة عند الله خالصة » .
الشيء الخالص هو الصافي بلا معكر أو شريك . أي الشيء الذي لك بمفردك لا يشاركك فيه أحد ولا ينازعك فيه أحد . . فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد . . فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد . . فمادامت لهم الدار الآخرة ومادامو موقنين من دخول الجنة وحدهم . . فما الذي يجعلهم يبقون في الدنيا . . أَلاَ يتمنون الموت كما تمنى المسلمون الشهادة ليدخلوا الجنة . . وليست هذه هي الافتراءات الوحيدة من اليهود على الله سبحانه وتعالى . . واقرأ قوله جل جلاله : { وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى } [البقرة : 111]
من الذي قال؟ اليهود قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، والنصارى قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . . كل منهم قال عن نفسه إن الجنة خاصة به . ولقد شكل قولهم هذا لنا لغزا في العقائد . . من الذي سيدخل الجنة وحده . . اليهود أم النصارى؟ نقول : إن الله سبحانه وتعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله جل جلاله : { وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَيْءٍ وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ اليهود على شَيْءٍ } [البقرة : 113]
وهذا أصدق قول قالته اليهود وقالته النصارى بعضهم لبعض . فاليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . وكلاهما صادق في مقولته عن الآخر . . في الآية الكريمة التي نحن بصددها . . اليهود قالوا إن الدار الآخرة خالصة لهم . . سنصدقهم ونقول لهم لماذا لا يتعجلون ويتمنون الموت . . فالمفروض أنهم يشتاقون للآخرة مادامت خالصة لهم . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : { إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } . . ولكنها أمانٍ كاذبة عند اليهود وعند النصارى . . واقرأ قوله سبحانه : { وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَللَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ المصير }

[المائدة : 18]
إذن هم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة . . ولكن عدل الله يأبى ذلك . . كيف يعذب بشرا بذنوبهم ثم لا يعذب اليهود بما اقترفوا من ذنوب . . بل يدخلهم الجنة في الآخرة . . وكيف يجعل الله سبحانه وتعالى الجنة في الآخرة لليهود وحدهم . . وهو قد كتب رحمته لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالة الإسلام . . وأبلغ اليهود والنصارى بذلك في كتبهم . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى : { واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ

يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل } [الأعراف : 156-157]

إذا كانت هذه هي الحقيقة الموجودة في كتبهم . . والحق تبارك وتعالى يقول : { وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين } [آل عمران : 85]

فكيف يَدَّعِي اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم يوم القيامة؟ ولكن الحق جل جلاله يفضح كذبهم ويؤكد لنا أن ما يقولونه هم أول من يعرف إنه كذب .

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95)

إنهم لن يتمنوا الموت أبدا بل يخافوه . . والله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآية . . وضع قضية الإيمان كله في يد اليهود . . بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا في هذا الدين . . كيف؟ ألم يكن من الممكن عندما نزلت هذه الآية أن يأتي عدد من اليهود ويقولوا ليتنا نموت . . نحن نتمنى الموت يا محمد . فادع لنا ربك يميتنا . . ألم يكن من الممكن أن يقولوا هذا؟ ولو نفاقا . . وَلو رياءً ليهدموا هذا الدين . . ولكن حتى هذه لم يقولوها ولم تخطر على بالهم . . أنظر إلى الإعجاز القرآني في قوله سبحانه : { وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ } .

لقد حكم الله سبحانه حكما نهائيا في أمر إختياري لعدو يعادي الإسلام . . وقال إن هذا العدو وهم اليهود لن يتمنوا الموت . . وكان من الممكن أن يفطنوا لهذا التحدي . . ويقولوا بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من الله . . ولكن حتى هذه لم تخطر على بالهم؛ لأن الله تبارك وتعالى إذا حكم في أمر اختياري فهو يسلب من أعداء الدين تلك الخواطر التي يمكن أن يستخدموها في هدم الدين . . فلا تخطر على بالهم أبدا مثلما تحداهم الله سبحانه من قبل في قوله تعالى : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا } [البقرة : 142]

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة قبل أن يقولوا . . بدليل إستخدام حرف السين في قوله : « سيقولُ » . . ووصفهم الله جل جلاله بالسفهاء . . ومع ذلك فقد قالوا . . ولو أن عقولهم تنبهت لسكتوا ولم يقولوا شيئا . . وكان في ذلك تحدٍ للقرآن الكريم . . كانوا سيقولون لقد قال الله سبحانه وتعالى : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس } . . ولكن أحدا لم يقل شيئا فأين هم هؤلاء السفهاء ولماذا لم يقولوا؟ وكان هذا يعتبر تحديا للقرآن الكريم في أمر يملكون فيه حرية الاختيار . . ولكن لأن الله هو القائل والله هو الفاعل . . لم يخطر ذلك على بالهم أبدا ، وقالوا بالفعل . في الآية الكريمة التي نحن بصددها . . تحداهم القرآن أن يتمنوا الموت ولم يتمنوه . . وكان الكلام المنطقي مادامت الدار الآخرة خالصة لهم . . والله تحداهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين لتمنوه . . ليذهبوا إلى نعيم أبدي . . ولكن الحق حكم مسبقا أن ذلك لن يحدث منهم . . لماذا؟ لأنهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون . . لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه .

انظروا مثلا إلى العشرة المبشرين بالجنة . . عمار بن ياسر في الحرب في حنين . . كان ينشد وهو يستشهد الآن ألقى الأحبة محمدا وصحبه . . كان سعيداً لأنه أصيب وكان يعرف وهو يستشهد أنه ذاهب إلى الجنة عند محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته .

. هكذا تكون الثقة في الجزاء والبشرى بالجنة . . وعبد الله بن رواحة كان يحارب وهو ينشد ويقول :

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد وشرابها

والإمام علي رضي الله عنه يدخل معركة حنين ويرتدي غلالة ليس لها دروع . . لا ترد سهما ولا طعنة رمح . . حتى إن إبنه الحسن يقول له : يا أبي ليست هذه لباس حرب . . فيرد علي كرم الله وجهه : يا بني إن أباك لا يبالي أسقط على الموت أم سقط الموت عليه . . وسيدنا حذيفة بن اليمان ينشد وهو يحتضر . . حبيب جاء على ناقة لا ربح من ندم . . إذن الذين يثقون بآخرتهم يحبون الموت .

وفي غزوة بدر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يا رسول الله أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلوني . . فيجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم . . وكان في يد الصحابي تمرات يمضغها . . فيستبطئ أن يبقى بعيدا عن الجنة حتى يأكل التمرات فيلقيها من يده ويدخل المعركة ويستشهد .

هؤلاء هم الذين يثقون بما عند الله في الآخرة . . ولكن اليهود عندما تحداهم القرآن الكريم بقوله لهم : { فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } . . سكنوا ولم يجيبوا . . ولو تمنوا الموت لانقطع نفس الواحد منهم وهو يبلع ريقه فماتوا جميعا . . قد يقول قائل وهل التمني باللسان؟ ربما تمنوا بالقلب . . نقول ما هو التمني؟ نقول إن التمني هو أن تقول لشيء محبوب عندك ليته يحدث . فهو قول . . وهب أنه عمل قلبي فلو أنهم تمنوا بقلوبهم لأطلع الله عليها وأماتهم في الحال . . ولكن مادام الحق تبارك وتعالى قال : { وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً } . . فهم لن يتمنوه سواء كان باللسان أو بالقلب . . لأن الإدعاء منهم بأن لهم الجنة عند الله خالصة أشبه بقولهم الذي يرويه لنا القرآن في قوله سبحانه : { وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ الله عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [البقرة : 80]

وقوله تعالى : { بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } . . أي أن أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت . . أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت . . ولذلك نسمع أن فلانا حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح . . فساعة الموت يعرف فيها الإنسان يقينا أنه ميت . . فالإنسان إذا مرض يأمل في الشفاء ويستبعد الموت . . ولكن ساعة الغرغرة يتأكد الإنسان أنه ميت ويستعرض حياته في شريط عاجل . . فإن كان عمله صالحا تنبسط أساريره ويفرح لأنه سينعم في

الآخرة نعيما خالدا . . لأنه في هذه الساعة والروح تغادر الجسد يعرف الإنسان مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار .

. وتتسلمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب . . فالذي أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة . . والذي عصى وفعل ما يغضب الله يستعرض شريط أعماله . . فيجده شريط سوء وهو مقبل على الله . . وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله . . عندما يرى مصيره إلى النار تنقبض أساريره وتقبض روحه على هذه الهيئة . . فيقال فلان مات وهو أسود الوجه منقبض الأسارير . إذن فالذي أساء في دنياه لا يتمنى الموت أبدا . . أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تمني الموت فقال :

« لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ ولا يدعو به من قَبلِ أن يَأْتِيَه إلا أن يكون قد وَثِقَ بعملِه »

نقول إن تمني الموت المنهي عنه هو تمني اليأس وتمني الاحتجاج على المصائب . . يعني يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أن يتحمل قدر الله في مصيبة حدثت له . . أو يتمناه احتجاجا على أقدار الله في حياته . . هذا هو تمني الموت المنهي عنه . . أما صاحب العمل الصالح فمستحب له أن يتمنى لقاء الله . . وإقرأ قوله تعالى في آخر سورة يوسف : { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الملك وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأحاديث فَاطِرَ السماوات والأرض أَنتَ وَلِيِّي فِي الدنيا والآخرة تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين } [يوسف : 101]

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي لا تتمنوا الموت جزعا مما يصيبكم من قدر الله . . ولكن إصبروا على قدر الله . . وقوله تعالى : { والله عَلِيمٌ بالظالمين } . . لأن الله عليم بظلمهم ومعصيتهم . . هذا الظلم والمعصية هو الذي يجعلهم يخافون الموت ولا يتمنونه .

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)

الحق سبحانه وتعالى بعد أن فضح كذبهم . . في أنهم لا يمكن أن يتمنوا الموت لأنهم ظالمون . . ومادامو ظالمين فالموت أمر مخيف بالنسبة لهم . . وهم أحرص الناس على الحياة . . حتى إن حرصهم يفوق حرص الذين أشركوا . . فالمشرك حريص على الحياة لأنه يعتقد أن الدنيا هي الغاية . . واليهود أشد حرصا على الحياة من المشركين لأنهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة . . لذلك كلما طالت حياتهم ظنوا أنهم بعيدون عن عذاب الآخرةِ . . الحياة لا تجعلهم يواجهون العذاب ولذلك فهم يفرحون بها .

إن اليهود لا يبالون أن يعيشوا في ذلة أو في مسكنة . . أو أي نوع من أنواع الحياة . . المهم أنهم

يعيشون في أي حياة . . ولكن لماذا هم حريصون على الحياة أكثر من المشركين؟ لأن المشرك لا آخرة له فالدنيا هي كل همه وكل حياته . . لذلك يتمنى أن تطول حياته بأي ثمن وبأي شكل . . لأنه يعتقد أن بعد ذلك لا شيء . . ولا يعرف أن بعد ذلك العذاب . . واليهود أحرص من المشركين على حياتهم .

وقوله تعالى : { يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } . . الود هو الحب . . أي أنهم يحبون أن يعيشوا ألف سنة أو أكثر . . ولكن هب أنه عاش ألف سنة أو حتى أكثر من ذلك . . أيزحزحه هذا عن العذاب؟ لا . . طول العمر لا يغير النهاية .

فمادامت النهاية هي الموت يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش ألوف السنين . . قوله تعالى : « يعمر » بفتح العين وتشديد الميم يقال عنها إنها مبنية للمجهول دائما . . ولا ينفع أن يقال يعمر بكسر الميم . . فالعمر ليس بيد أحد ولكنه بيد الله . . فالله هو الذي يعطي العمر وهو الذي ينهيه . . وبما أن العمر ليس ملكا لإنسان فهو مبني للمجهول . .

والعمر هو السن الذي يقطعه الإنسان بين ميلاده ووفاته . . ومادة الكلمة مأخوذة من العمار لأن الجسد تعمره الحياة . وعندما تنتهي يصبح الجسد أشلاء وخرابا . . قوله تعالى : « ألف سنة » . . لماذا ذكرت الألف؟ لأنها هي نهاية ما كان العرب يعرفونه من الحساب . ولذلك فإن الرجل الذي أسر في الحرب أخت كسرى فقالت كم تأخذ وتتركني؟ قال ألف درهم . . قالوا له بكم فديتها؟ قال بألف . . قالوا لو طلبت أكثر من ألف لكانوا أعطوك . . قال والله لو عرفت شيئا فوق الألف لقلته . . فالألف كانت نهاية العدد عند العرب . . ولذلك كانوا يقولون ألف ألف ولم يقولوا مليونا . .

وقوله تعالى : { وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذاب أَن يُعَمَّرَ } . . معناها أنه لو عاش ألف سنة أو أكثر فلن يهرب من العذاب . وقوله تعالى : { والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } . . أي يعرف ما يعملونه وسيعذبهم به سواء عاشوا ألف سنة أو أكثر أو أقل .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97)

الله تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن اليهود لم يقتلوا الأنبياء ويحرفوا التوراة ويشتروا بآيات الله جاه الدنيا فقط . . ولكنهم عادوا الملائكة أيضا . . بل إنهم أضمروا العداوة لأقرب الملائكة إلى الله الذي نزل بوحي القرآن وهو جبريل عليه السلام . . وأنهم قالوا جبريل عدو لنا .

الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد جلس ابن جوريا أحد أحبار اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له من الذي ينزل عليك بالوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل . . فقال اليهودي لو كان غيره لآمنا بك . . جبريل عدونا لأنه ينزل دائما

بالخسف والعذاب . . ولكن ميكائيل ينزل بالرحمة والغيث والخصب . . وأيضا هو عدوهم لأنهم اعتقدوا أن بيت المقدس سيخربه رجل اسمه بختنصر ، فأرسل اليهود إليه من يقتله . . فلقى اليهودي غلاما صغيرا وسأله الغلام ماذا تريد؟ قال إني أريد أن أقتل بختنصر لأنه عندنا في التوراة هو الذي سيخرب بيت المقدس . . فقال الغلام إن يكن مقدرا أن يخرب هذا الرجل بيت المقدس فلن تقدر عليه . . لأن المقدر نافذ سواء رضينا أم لم نرضى . . وإن لم يكن مقدرا فلماذا تقتله؟ أي أن الطفل قال له إذا كان الله قد قضى في الكتاب أن بختنصر سيخرب بيت المقدس . . فلا أحد يستطيع أن يمنع قضاء الله . . ولن تقدر عليه لتقتله وتمنع تخريب بيت المقدس على يديه . . وإن كان هذا غير صحيح فلماذا تقتل نفسا بغير ذنب . . فعاد اليهودي دون أن يقتل بختنصر . . وعندما رجع إلى قومه قالوا له إن جبريل هو الذي تمثل لك في صورة طفل وأقنعك ألا تقتل هذا الرجل .

ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب كان له أرض في أعلى المدينة . . وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم . . وظن اليهود أن مجلس عمر معهم إنما يعبر عن حبه لهم . . فقالوا له إننا نحبك ونحترمك ونطمع فيك . . ففهم عمر مرادهم فقال والله ما جالستكم حبا فيكم . . ولكني أحببت أن أزداد تصورا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم عنه ما في كتابكم . . فقالوا له ومن يخبر محمدا بأخبارنا وأسرارنا؟ فقال عمر إنه جبريل ينزل عليه من السماء بأخباركم . . قالوا هو عدونا . . فقال عمر كيف منزلته من الله؟ قالوا إنه يجلس عن يمين الله وميكائيل يجلس على يسار الله . . فقال عمر مادام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدواً للآخر لأنهما عند الله في منزلة واحدة .

. فمن كان عدواً لأحدهما فهو عدو لله . . فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية .

إن عداوتهم لجبريل عليه السلام تؤكد ماديتهم . . فهم يقيسون الأمر على البشر . . إن الذي يجلس على يمين السيد ومن يجلس على يساره يتنافسان على المنزلة عنده . . ولكن هذا في دنيا البشر . . ولكن عند الملائكة لا شيء من هذا . . الله عنده ما يجعله يعطي لمن يريد المنزلة العالية دون أن ينقص من الآخر . . ثم إن الله سبحانه وتعالى اسمه الحق . . وما ينزل به جبريل حق وما ينزل به ميكائيل حق . . والحق لا يخاصم الحق . . وقال لهم عمر أنتم أشدّ كفرا من الحمير . . ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكد الرسول يراه حتى قال له وافقك ربك يا عمر . . وتنزل قول الله تبارك وتعالى : { قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ } فقال عمر يا رسول الله . . إني بعد ذلك في إيماني لأصلب من الجبل .

إذن فقولهم ميكائيل حبيبنا وجبريل عدونا من الماديات ، والله تبارك وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم . . إنهم يُعَادُون جبريل لأنه نزل على قلبك بإذن الله . . ومادام نزل من عند الله على قلبك . . فلا شأن لهم بهذا . . وهو مصدق لما بين يديهم من التوراة . . وهو هدى وبشرى للمؤمنين . . فأي عنصر من هذه العناصر تنكرونه على جبريل . . إن عداوتكم لجبريل عداوة لله سبحانه وتعالى .

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98)

وهكذا أعطى الله سبحانه وتعالى الحُكْم . . فقال إن العداوة للرسل . . مثل العداوة للملائكة . . مثل العداوة لجبريل وميكائيل . . مثل العداوة لله . ولقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالملائكة ككل . . ثم ذكر جبريل وميكائيل بالاسم .

إن المسألة ليست مجزأة ولكنها قضية واحدة . . فمن كان عدوا للملائكة وجبريل وميكائيل ورسل الله . . فهو أولا وأخيرا عدو لله . . لأنه لا انقسام بينهم فكلهم دائرون حول الحق . . والحق الواحد لا عدوان فيه . . وإنما العدوان ينشأ من تصادم الأهواء والشهوات . وهذا يحدث في أمور الدنيا .

والآية الكريمة أثبتت وحدة الحق بين الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل . . ومن يعادي واحدا من هؤلاء يعاديهم جميعا وهو عدو الله سبحانه . . واليهود أعداء الله لأنهم كفروا به . . وأعداء الرسل لأنهم كذبوهم وقتلوا بعضهم .

وهكذا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى وحدة الحق في الدين . . مصدره هو الله جل جلاله . . ورسوله من الملائكة هو جبريل . . ورسله من البشر هم الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله . . وميكائيل ينزل بالخير والخصب لأن الإيمان أصل وجود الحياة . . فمن كان عدوا للملائكة والرسل وجبريل وميكائيل فهو كافر . . لأن الآية لم تقل إن العداوة لهؤلاء هي مجرد عداوة . . وإنما حَكَمَ الله عليهم بأنهم كافرون . . الله سبحانه وتعالى لم يخبر محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم فقط ، وإنما أمره بأن يعلنه حتى يعرفه الناس جميعا ويعرفوا أن اليهود كافرون .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99)

إنتقل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى تأكيد صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . وأن الآيات فيها واضحة بحيث إن كل إنسان يعقل ويريد الإيمان يؤمن بها . . ولكن الذين يريدون الفسق والفجور . . هم هؤلاء الذين لا يؤمنون . . ما معنى الآيات البينات؟ إن الآية هي الأمر العجيب . . وهو عجيب لأنه معجز . . والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن

الله . . وهي كذلك الآيات في القرآن الكريم . . وبينات معناها أنها أمور واضحة لا يختلف عليها ولا تحتاج إلى بيان : { وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلاَّ الفاسقون } . . والفسق هو الخروج عن الطاعة وهي مأخوذة من الرطبة . . البلح قبل أن يصبح رطبا لا تستطيع أن تنزع قشرته ولكن عندما يصبح رطبة تجد أن القشرة تبتعد عن الثمرة فيقال فسقت الرطبة . . ولذلك من يخرج عن منهج الله يقال له فاسق .

والمعنى أن الآيات التي أيد بها اللهُ سبحانه وتعالى محمداً عليه الصلاة والسلام ظاهرة أمام الكفار ليست محتاجة إلى دليل . . فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يقرأ كلمة في حياته . . يأتي بهذا القرآن المعجز لفظا ومعنى . . هذه معجزة ظاهرة لا تحتاج إلى دليل . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا تغريه الدنيا كلها . . ليترك هذا الدين مهما أعطوه . . دليل على أنه صاحب مبدأ ورسالة من السماء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يخبر بقرآن موحى من السماء عن نتيجة حرب ستقع بعد تسع سنوات . . ويخبر الكفار والمنافقين بما في قلوبهم ويفضحهم . . ويتنبأ بأحداث قادمة وبقوانين الكون . . وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كل أنواع الإعجاز علميا وفلكيا وكونيا . . كل هذه آيات بينات يتحدى القرآن بها الكفار . . كلها آيات واضحة لا يمكن أن يكفر بها إلا الذي يريد أن يخرج عن منهج الله ، ويفعل ما تهواه نفسه . .

إن الإعجاز في الكون وفي القرآن وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد . . لنعرف أن هذا القرآن هو من عند الله مليء بالمعجزات لغة وعلما . . وإنه سيظل معجزة لكل جيل له عطاء جديد .

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100)

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الدين الإسلامي ، وكتابه القرآن فيه من الآيات الواضحة ما يجعل الإيمان به لا يحتاج إلا إلى وقفة مع العقل مما يجعل موقف العداء الذي يقفه اليهود من الإسلام منافيا لكل العهود التي أخذت عليهم ، منافيا للإيمان الفطري ، ومنافيا لأنهم عاهدوا الله ألا يكتموا ما جاء في التوراة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لعهدهم أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لما طلب منهم موسى أن يؤمنوا بالإسلام عندما يأتي الرسول ، مصداقا لقوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين } [آل عمران : 81]

وهكذا نعرف أن موسى عليه السلام الذي أُخذ عليه الميثاق قد أبلغه إلى بني إسرائيل ، وأن بني إسرائيل كانوا يعرفون هذا الميثاق جيداً عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت

عندهم أوصاف دقيقة للرسول عليه الصلاة والسلام . . ولكنهم نقضوه كما نقضوا كثيرا من المواثيق . . منها عهدهم بعدم العمل في السبت ، وكيف تحايلوا على أمر الله بأن صنعوا مصايد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج وهذا تحايل على أمر الله ، ثم كان ميثاقهم في الإيمان بالله إلها واحداً أحدا ، ثم عبدوا العجل . . وكان قولهم لموسى عليه السلام بعد أن أمرهم الله بدخول واد فيه زرع . . لأنهم أرادوا أن يأكلوا من نبات الأرض بدلا من المن والسلوى التي كانت تأتيهم من السماء . . قالوا لموسى : { فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } . . وغير ذلك الكثير من المواثيق بالنسبة للحرب والأسرى والعبادة ، حتى عندما رفع الله تبارك وتعالى جبل الطور فوقهم ودخل في قلوبهم الرعب وظنوا أنه واقع عليهم ، ولم يكن هذا إلا ظنا وليس حقيقة . . لأن الله تبارك وتعالى يقول : { وظنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ } . . وبمجرد ابتعادهم عن جبل الطور نقضوا الميثاق .

ثم نقضوا عهدهم وميثاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة وذلك في غزوة الخندق . . وعندما أرادوا أن يفتحوا طريقا للكفار ليضربوا جيوش المؤمنين من الخلف .

قوله تعالى { نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم } قلنا إن هذا يسمى قانون صيانة الاحتمال . . لأن منهم من صان المواثيق . . ومنهم من صدق ما عهد الله عليه . . ومنهم مثلا من كان يريد أن يعتنق الدين الجديد ويؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .

إذن فليسوا كلهم حتى لا يقال هذا على مطلق اليهود . . لأن فيهم أناسا لم ينقضوا العهد . . ويريد الله تبارك وتعالى أن يفتح الباب أمام أولئك الذين يريدون الإيمان ، حتى لا يقولوا لقد حكم الله علينا حكما مطلقا ونحن نريد أن نؤمن ونحافظ على العهد ، ولكن هؤلاء الذين حافظوا على العهد كانوا قلة . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } . . أي أن الفريق الناقض للعهد . . الناقض للإيمان هم الأكثرية من بني إسرائيل .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101)

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن اليهود الذين نقضوا المواثيق الخاصة بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوها وهم يعلمون . . قال الله سبحانه : { وَلَمَّآ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ } . . أي أن ما جاء في القرآن مصدق لما جاء في التوراة . . لأن القرآن من عند الله والتوراة من عند الله . . ولكن التوراة حرفوها وكتموا بعضها وغيروا وبدلوا فيها فأخفوا ما يريدون إخفاءه . . لذلك جاء القرآن الكريم ليظهر ما أخفوه ويؤكد ما لم يخفوه ولم يتلاعبوا فيه .

وقوله تعالى : { نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كِتَابَ الله وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ } . . قلنا إن هناك

كتابا نبذوه أولا وهو التوراة . . ولما جاءهم الكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم نبذوه هو الآخر وراء ظهورهم . . ما معنى نبذه؟ . . المعنى طرحه بعيدا عنه . . إذن ما في كتابهم من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم نبذوه بعيدا . . ومن التبشير بمجيء رسول الله عليه الصلاة والسلام نبذوه هو الآخر . . لأنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون أتى زمن نبي سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم .

وقوله تعالى : { نَبَذَ فَرِيقٌ } . . يعني نبذ جماعة وبقيت جماعة أخرى لم تنبذ الكتاب . . بدليل أن ابن سلام وهو أحد أحبار اليهود صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به . . وكعب الأحبار مخيريق أسلم . . فلو أن القرآن عمم ولم يقل فريق لقيل إنه غير منصف لهؤلاء الذين آمنوا .

وقوله تعالى : { وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ } . . النبذ قد يكون أمامك . . وكونه أمامك فأنت تراه دائما ، وربما يغريك بالإقبال عليه ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم أي جعلوه وراءهم حتى ينسوه تماما ولا يلتفتوا إليه .

وقوله تعالى : { كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } . . أي يتظاهرون بأنهم لا يعلمون ببشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافه . . وقوله تعالى : « كأنهم » . . دليل على أنهم يعلمون ذلك علم يقين . . لأنهم لو كانوا لا يعلمون . . لقال الحق سبحانه : { نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كِتَابَ الله وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ } وهم لا يعلمون . . إذن هم يعلمون يقينا ولكنهم تظاهروا بعدم العلم . . ولابد أن نتنبه إلى أن نبذ يمكن أن يأتي مقابلها فنقول نبذ كذا واتبع كذا . . وهم نبذوا كتاب الله ولكن ماذا اتبعوا؟

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102)

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن فريقا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين . . لأن النبذ يقابله الإتباع . . واتبعوا يعني اقتدوا وجعلوا طريقهم في الاهتداء هو ما تتلوه الشياطين على ملك سليمان . . وكان السياق يقتضي أن يقال ما تلته الشياطين على ملك سليمان . . ولكن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن هذا الاتباع مستمر حتى الآن كأنهم لم يحددوا المسألة بزمن معين .

إنه حتى هذه اللحظة هناك من اليهود من يتبع ما تلته الشياطين على ملك سليمان ، ونظرا لأن

المعاصرين من اليهود قد رضوا وأخذوا من فعل أسلافهم الذين اتبعوا الشياطين فكأنهم فعلوا .
الحق سبحانه يقول : { واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين } ولكن الشياطين تلت وانتهت . .
واستحضار اليهود لما كانت تتلوه الشياطين حتى الآن دليل على أنهم يؤمنون به ويصدقونه . .
الشياطين هم العصاة من الجن . . والجن فيهم العاصون والطائعون والمؤمنون . . وإقرأ قوله تعالى : { وَأَنَّا مِنَّا الصالحون وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً } [الجن : 11]
وقوله سبحانه عن الجن : { وَأَنَّا مِنَّا المسلمون وَمِنَّا القاسطون } [الجن : 14]
إذن الجن فيهم المؤمن والكافر . . والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصي . . والشياطين هم مردةُ الجنِ المتمردون على منهج الله . . وكل متمرد على منهج الله نسميه شيطانا . . سواء كان من الجن أو من الإنس . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً } [الأنعام : 112]
إذن فالشياطين هم المتمردون على منهج الله . . قوله تعالى : { واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سُلَيْمَانَ } . . يعني ما كانت تتلو الشياطين أيام ملك سليمان . .
ولكن ما هي قصة ملك سليمان والشياطين؟ . . الشياطين كانوا قبل مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد مكنهم من قدرة الاستماع إلى أوامر السماء وهي نازلة إلى الأرض . .
وكانوا يستمعون للأوامر تلقى من الملائكةِ وينقلونها إلى أئمة الكفر ويزيدون عليها بعض الأكاذيب والخرافات . . فبعضها يكون على حق والأكثر على باطل . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : { وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } [الأنعام : 121]
وكان الشياطين قبل نزول القرآن يستقرون السمع ، ولكن عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إمتنع ذلك كله ، حتى لا يضع الشياطين خرافاتهم في منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في القرآن . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً } [الجن : 9]
أي أن الشياطين كانت لها مقاعد في السماء تقعد فيها لتستمع إلى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه .

. ولكن عند نزول القرآن أرسل الله سبحانه وتعالى الشهب وهي النجوم المحترقة فعندما تحاول الشياطين الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم . . ولذلك فإن عامة الناس حين يرون شهابا يحترق في السماء بسرعة يقولون : سهم الله في عدو الدين . . كأن المسألة في أذهان الناس وجعلتهم يقولون : سهم الله في عدو الدين . . الذي هو الشيطان .
واقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً } [الجن : 8]

{ وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً } [الجن : 10]

أي أن الأمر اختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع . . ولذلك لم يعرفوا هل الذي ينزل من السماء خير أو شر؟ . . أنظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله تعالى : { وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء } . . كأنهم صعدوا حتى بلغوا السماء لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها . . فالله تبارك وتعالى في هذه الحالة وهي اتباع اليهود لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والتعاويذ والأشياء التي تضر ولا تفيد أراد أن يبرئ سليمان من هذا كله . . فقال جل جلاله : { وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ } . .

وكان المنطق يقتضي أن يخص الله سبحانه وتعالى حكاية الشياطين قبل أن يبرئ سليمان من الكفر الذي أرادوا أن ينشروه . . ولكن الله أراد أن ينفي تهمة الكفر عن سليمان ويثبتها لكل من اتبع الشياطين فقال جل جلاله : { وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ } .

إذن الشياطين هم الذين نشروا الكفر . . وكيف كفر الشياطينُ وبماذا أغروا أتباعهم بالكفر؟ . . يقول الله سبحانه وتعالى : { ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الملكين بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ } .

ما قصة كل هذا؟ . . اليهود نبذوا عهد الله واتبعوا ما تتلو الشياطين أيام سليمان ، وأرادوا أن ينسبوا كل شيء في عهد سليمان على أنه سحر وعمل شياطين ، وهكذا أراد اليهود أن يوهموا الناس أن منهج سليمان هو من السحر ومن الشياطين . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبرئ سليمان من هذه الكذبة . . سليمان عليه السلام حين جاءته النبوة طلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكا لا يعطيه لأحد من بعده . . واقرأ قوله تعالى : { قَالَ رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي إِنَّكَ أَنتَ الوهاب * فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * والشياطين كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأصفاد }

[ص : 35-38]

وهكذا أعطى سليمان الملك على الإنس والجن ومخلوقات الله كالريح والطير وغير ذلك . . حين أخذ سليمان الملك كان الشياطين يملأون الأرض كفراً بالسحر وكتبه . فأخذ سليمان كل كتب السحر وقيل أنه دفنها تحت عرشه . . وحين مات سليمان وعثرت الشياطين على مخبأ كتب السحر أخرجتها وأذاعتها بين الناس . . وقال أولياؤهم من أحبار اليهود إن هذه الكتب من السحر هي التي كان سليمان يسيطر بها على الإنس والجن ، وأنها كانت منهجه ، وأشاعوها بين الناس . . فأراد الله سبحانه وتعالى أنْ يبرئ سليمان من هذه التهمة ومن أنه حكم بالسحر ونشر

الكفر . . قال جل جلاله : { وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر } .

ما هو السحر؟ . . الكلمة مشتقة من سحر وهو آخر ساعات الليل وأول طلوع النهار . . حيث يختلط الظلام بالضوء ويصبح كل شيء غير واضح . . هكذا السحر شيء يخيل إليك أنه واقع وهو ليس بواقع . . إنه قائم على شيئين . . سحر العين لترى ما ليس واقعا على أنه حقيقة . . ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى في سحرة فرعون : { سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ } [الأعراف : 116]

إذن فالساحر يسيطر على عين المسحور ليرى ما ليس واقعا وما ليس حقيقة . . وتصبح عين المسحور خاضعة لإرادة الساحر . . ولذلك فالسحر تخيل وليس حقيقة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى } [طه : 66]

إذن مادام الله سبحانه وتعالى قال : { يُخَيَّلُ إِلَيْهِ } . . فهي لا تسعى . . إذن فالسحر تخيل . . وما الدليل على أن السحر تخيل؟ . . الدليل هو المواجهة التي حدثت بين موسى وسحرة فرعون . . ذلك أن الساحر يسحر أعين الناس ولكن عينيه لا يسحرهما أحد . . حينما جاء السحرة وموسى . . اقرأ قوله سبحانه : { قَالُواْ ياموسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى * قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى } [طه : 65-66]

عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم خُيِّل للموجودين إنها حيات تسعى . . ولكن هل خيل للسحرة إنها حيات؟ طبعا لا . . لأن أحدا لم يسحر أعين السحرة . . ولذلك ظل ما ألقوه في أعينهم حبالا وعِصِيّاً . . حين ألقى موسى عصاه واقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صنعوا إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى * فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 69-70]

هنا تظهر حقيقة السحر . . لماذا سجد السحرة؟ لأن حبالهم وعصيهم ظلت كما هي حبالا وعصيا . . ذلك أن أحدا لم يسحر أعينهم .

. ولكن عندما ألقى موسى عصاه تحولت إلى حية حقيقية . . فعرفوا أن هذا ليس سحرا ولكنها معجزة من الله سبحانه وتعالى . . لماذا؟ لأن السحر لا يغير طبيعة الأشياء ، وهم تأكدوا أن عصا موسى قد تحولت إلى حية . . ولكن حبالهم وعصيهم ظلت كما هي وإن كان قد خيل إلى الناس أنها تحولت إلى حية .

إذن فالسحر تخيل والساحر يرى الشيء على حقيقته لذلك فإنه لا يخاف . . بينما المسحورون الذين هم الناس يتخيلون أن الشيء قد تغيرت طبيعته . . ولذلك سجد السحرة لأنهم عرفوا أن

معجزة موسى ليست سحرا . . ولكنها شيء فوق طاقة البشر .
السحر إذن تخيل والشياطين لهم قدرة التشكل بأي صورة من الصور ، ونحن لا نستطيع أن ندرك الشيطان على صورته الحقيقية ، ولكنه إذا تشكل نستطيع أن نراه في صورة مادية . . فإذا تشكل في صورة إنسان رأيناه إنسانا ، وإذا تشكل في صورة حيوان رأيناه حيوانا ، وفي هذه الحالة تحكمه الصورة . . فإذا تشكل كإنسان وأطلقت عليه الرصاص مات ، وإذا تشكل في صورة حيوان ودهمته بسيارتك مات ، ذلك لأن الصورة تحكمه بقانونها . . وهذا هو السر في إنه لا يبقى في تشكله إلا لمحة ثم يختفي في ثوان . . لماذا؟ لأنه يخشى ممن يراه في هذه الصورة أن يقتله خصوصا أن قانون التشكل يحكمه . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تشكل له الشيطان في صورة إنسان قال :
« ولقد هممت أن أربطه في سارية المسجد ليتفرج عليه صبيان المدينة ولكني تذكرت قَول أخي سليمان : » رب هب لي مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي « . فتركته » الحديث لم يُخَرَّجْ .
ومن رحمة الله بنا أنه إذا تشكل الشيطان فإن الصورة تحكمه . . وإلا لكانوا فزعونا وجعلوا حياتنا جحيما . . فالله سبحانه وتعالى جعل الكون يقوم على التوازن حتى لا يطغى أحد على أحد . . بمعنى أننا لو كنا في قرية وكلنا لا نملك سلاحا وجد التوازن . . فإذا ملك أحدنا سلاحا وادعى أنه يفعل ذلك ليدافع عن أهل القرية ، ثم بعد ذلك استغل السلاح ليسيطر على أهل القرية ويفرض عليهم إتاوات وغير ذلك ، يكون التوازن قد اختل وهذا مالا يقبله الله .
السحر يؤدي لاختلال التوازن في الكون . . لأن الساحر يستعين بقوة أعلى في عنصرها من الإنسان وهو الشيطان وهو مخلوق من نار خفيف الحركة قادر على التشكل وغير ذلك . .
الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يسخر الجن . . يدعي أنه يفعل ذلك لينشر الخير في الكون ، ولكنها ليست حقيقة . . لأن هذا يغريه على الطغيان . . والذي يخل بأمن العالم هو عدم التكافؤ بين الناس .

. إنسان يستطيع أن يطغى فإذا لم يقف أمامه المجتمع كله إختل التوازن في المجتمع . والله سبحانه وتعالى يريد تكافؤ الفرص ليحفظ أمن وسلامة الكون . . ولذلك يقول لنا لا تطغوا وتستعينوا بالشياطين في الطغيان حتى لا تفسدوا أمن الكون .
ولكن الله جل جلاله شاءت حكمته أن يضع في الكون ما يجعل كل مخلوق لا يغتر بذاتيته . . ولا يحسب أنه هو الذي حقق لنفسه العلو في الأرض . . ولقد كانت معصية إبليس في أنه رفض أن يسجد لآدم . إنه قال : { قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } [الأعراف : 12]
إذن فقد أخذ عنصر الخلق ليدخل الكبر إلى نفسه فيعصي ، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن

يعلم البشر من القوانين ، ما يجعل هذا الأعلى في العنصر وهو الشيطان يخضع للأدنى وهو الإنسان ، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميزهم الله في عنصر من العناصر ، فإن هذا ليس بإرادتهم ولا ميزة لهم . . ولكنه بمشيئة الله سبحانه وتعالى . . فأرسل الملكين ببابل هاروت وماروت ليعلما الناس السحر . الذي يخضع الأعلى عنصراً للأدنى .

واقرأ قوله سبحانه : { وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الملكين بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ } . . فالله تبارك وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت ليعلما الناس السحر . . ولقد رويت عن هذه الملكين قصص كثيرة . . ولكن مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلما الناس السحر . . فمعنى ذلك أن السحر علم يستعين فيه الإنسان بالشياطين . . وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروي لنا القرآن الكريم : { قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمآء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } [البقرة : 20]

حينئذ طلب الحق جل جلاله من الملائكة . . أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض لينظروا ماذا يفعلان؟ فاختاروا هاروت وماروت . . وعندما نزلا إلى الأرض فتنتهما امرأة فارتكبا الكبائر . هذه القصة برغم وجودها في بعض كتب التفسير ليست صحيحة . . لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله . . ولأنه من تمام الإيمان أن يؤدي المخلوق كل ما كُلِّف به من الله جل جلاله . . وهذان الملكان كلفا بأن يعلما الناس السحر . . وأن يحذرا بأن السحر فتنة تؤدي إلى الكفر وقد فعلا ذلك . . والفتنة هي الامتحان . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله } . . إذن فهذان الملكان حذرا الناس من أن ما يعلمانه من السحر فتنة تؤدي إلى الكفر . . وإنها لا تنفع إلا في الشر وفي التفريق بين الزوج وزوجه .

. وإن ضررها لا يقع إلا بإذن الله . . فليس هناك أي قوى في هذا الكون خارجة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى . .

ثم يأتي قول الحق تبارك وتعالى : { وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } . . إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن تعلم السحر يضر ولا ينفع . . فهو لا يجلب نفعا أبدا حتى لمن يشتغل به . . فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد في رزقه على غيره من البشر فهم افضل منه . . وهو يظل طوال اليوم يبحث عن إنسان يغريه بأنه يستطيع أن يفعل له أشياء ليأخذ منه مالا ، وتجد شكله غير طبيعي وحياته غير مستقرة وأولاده منحرفين . وكل من يعمل بالسحر يموت فقيرا لا يملك شيئا وتصيبه الأمراض المستعصية ، ويصبح عبرة في آخر حياته .

إذن فالسحر لا يأتي إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بلعنة الله في آخر حياة الساحر . . والذي يشتغل بالسحر يموت كافرا ولا يكون له في الآخرة إلا النار . . ولذلك قد اشتروا أنفسهم بأسوأ الأشياء لو كانوا يعلمون ذلك . . لأنهم لم يأخذوا شيئا إلا الضر . . ولم يفعلوا شيئا إلا التفريق بين الناس . . وهم لا يستطيعون أن يضروا أحدا إلا بإذن الله .

والله سبحانه وتعالى إذا كانت حكمته قد اقتضت أن يكون السحر من فتن الدنيا وابتلاءاتها . . فإنه سبحانه قد حكم على كل من يعمل بالسحر بأنه كافر . . ولذلك لا يجب أن يتعلم الإنسان السحر أو يقرأ عنه . . لأنه وقت تعلمه قد يقول سأفعل الخير ثم يستخدمه في الشر . . كما أن الشياطين التي يستعين بها الساحر غالبا ما تنقلب عليه لتذيقه وبال أمره وتكون شرا عليه وعلى أولاده . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى : { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادُوهُمْ رَهَقاً } [الجن : 6]

أي أن الذي يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألوانا من العذاب . .

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)

يفتح الله جل جلاله أمام عباده أبواب التوبة والرحمة . . لقد بين لهم أن السحر كفر ، وأن من يقوم به يبعث كافرا يوم القيامة ويخلد في النار . . وقال لهم سبحانه وتعالى لو أنهم امتنعوا عن تعلم السحر ليمتازوا به على من سواهم إمتيازا في الضرر والإيذاء . . لكان ذلك خيرا لهم عند الله تبارك وتعالى . . لأن الملكين اللذين نزلا لتعليم السحر قال الله سبحانه عنهما : { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ } .

إذن فممارسة السحر كفر . فلو أنهم آمنوا بهذه القضية وبأنهم يدخلون في الكفر واتقوا الله لكان ذلك ثوابا لهم عند الله وخيراً في الدنيا والآخرة . . ولكن ما هي المثوبة؟ هي الثواب على العمل الصالح . . يقابلها العقوبة وهي العقاب على العمل السيئ . . وهي مشتقة من ثاب أي رجع . . ولذلك يسمى المبلغ عن الإمام في الصلاة المثوب . . لأن الإمام يقول الله أكبر فيرددها المبلغ عن الإمام بصوت عال حتى يسمعها المصلون الذين لا يصلهم صوت الإمام . . وهذا إسمه التثويب . . أي إعادة ما يقوله الإمام لتزداد فرصة الذين لم يسمعوا ما قاله الإمام . . وكما قلنا فهي مأخوذة من ثاب أي رجع . . لأن الإنسان عندما يعمل صالحا يرجع عليه عمله الصالح بالخير . . فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود . . ولكنه لابد أن يعود عليك بالخير .

وإذا نظرنا إلى دقة التعبير القرآني : { لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ } . نجد أن كلمة مثوبة مأخوذة من نفس معنى كلمة ثوب وجمعه ثياب . . وكان الناس قديما يأخذون أصواف الأغنام ليصنعوا منها ملابسهم . . فيأتي الرجل بما عنده من غنم ويجز صوفها ثم يعطيه لآخر ليغزله وينسجه ثوبا

ويعيده إلى صاحبه . . فكأن ما أرسله من الصوف رد إليه كثوب . . ولذلك سميت مثوبة لأن الخير يعود إليك لتنتفع به نفعا عاليا . . وكذلك الثواب عن العمل الصالح يرتد إليك بالنفع العالي .

إذن فكلمة ثوب جاء منها الثواب ، والله سبحانه وتعالى علمنا أن الثواب لستر العورة . . والعمل الصالح يستر الأمراض المعنوية والنفسية في الإنسان . . وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ } [الأعراف : 26]

فكأن هناك لباسين أحدهما لستر العورة . . والثاني لستر الإنسان من العذاب . . ولباس التقوى خير من لباس ستر العورة . . قوله تعالى : { لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ } . . انظر إلى المثوبة التي تأتي من عند الله . . إذا كان الثواب يأتيك من عند من صنعه جميلا مزركشا وله ألوان مبهجة .

. إذا كان هذا ما يصنعه لك بشر فما بالك بالثواب الذي يأتيك من عند الله . إنه قمة الجمال . فالله هو القادر على أن يرد الثواب بقدراته سبحانه فيكون الرد عاليا وعاليا جدا ، بحيث يضاعف الثواب مرات ومرات . على أننا لابد أن نتنبه إلى قول الله تعالى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتقوا } قلنا معنى اتقوا أنهم جعلوا بينهم وبين صفات الجلال في الله وقاية . . ولذلك قلنا إن بعض الناس يتساءل . . كيف يقول الله تبارك وتعالى : « اتقوا الله » . . ويقول جل جلاله : « اتقوا النار » . . نقول إن معنى اتقوا الله أي اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في الله وقاية : « واتقوا النار » . . أي اجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية . . لأن النار من متعلقات صفات الجلال . . لذلك فإن قوله : « اتقوا الله » . . تساوي : « اتقوا النار » . . والحق تبارك وتعالى حينما قال : « اتقوا » أطلقها عامة . . والحذف هنا المراد به التعميم . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن السحرة لو آمنوا بأن تعلم السحر فتنة تؤدي إلى الكفر . . واتقوا الله وخافوا عذابه في الآخرة لكان ذلك خيراً لهم . . لذلك قال جل جلاله : { لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ } . .

وساعة تسمع كلمة خير تأتي إلى الذهن كلمة شر . . لأن الخير يقابله الشر . . ولكن في بعض الأحيان كلمة خير لا يقابلها شر . ولكن يقابلها خير أقل . وكلمة خير هي الوحيدة في اللغة العربية التي يساوي الإسم فيها أفعل التفضيل . . فأنت تقول هذا فاضل وهذا مفضول عليه . . كلمة خير إسم تفضيل فيقال ذلك خير من كذا . . أي واحد منهما يعطي أكثر من الآخر . . وكلمة خير إذا لم يأت مقابلها أي خير من كذا يكون مقابلها شر . . فإذا قلت فلان خير من فلان . . فكلاهما إشترك في الخير ولكن بدرجة مختلفة . . والخير هو ما يأتي لك بالنفع . . ولكن مقياس النفع يختلف باختلاف الناس . . واحد ينظر إلى النفع العاجل وآخر ينظر إلى النفع

الآجل . . وفي ظاهر الأمر كل منهما أراد خيرا .
وإذا أردنا أن نقرب ذلك إلى الأذهان فلنقل إن هناك أخوين أحدهما يستيقظ مبكراً ليذهب إلى مدرسته والثاني ينام حتى الضحى ، ويخرج من البيت ليجلس على المقهى . . الأول يحب الخير لنفسه والثاني يحب الخير لنفسه والخلاف في تقييم الخير . . الكسول يحب الخير العاجل فيعطي نفسه حظها من النوم والترفيه وعدم العمل . . والمجتهد يحب الخير الآجل لنفسه لذلك يتعب ويشقى سنوات الدراسة حتى يرتاح بعد ذلك ويحقق مستقبلا مرموقا .
الفلاح الذي يزرع ويذهب إلى حقله في الصباح الباكر ويروي ويبذر الحب ويشقى ، يأتيه في آخر العام محصول وافر وخير كثير .

. والفلاح الذي يجلس على المقهى طول النهار أعطى نفسه خير الراحة ، ولكن ساعة الحصاد يحصد الندم .
إذن كل الناس يحبون الخير ولكن نظرتهم ومقاييسهم تختلف . . فمنهم من يريد متعة اليوم ، ومنهم من يعمل لأجل متعة الغد . . والله تبارك وتعالى حين يأمرنا بالخير . . قد يكون الخير متعبا للجسد والنفس . . ولكن النهاية متاع أبدي في جنة الخلد . إذن فالخير الحقيقي هو ما جاء به الشرع . . لماذا؟ لأن الخير هو ما ليس بعده بعد . . فأنت تولد ثم تكبر ثم تتخرج في الجامعة . . ثم تصبح في أعلى المناصب ثم تموت ثم تبعث ثم تدخل الجنة . . وبعدها لا شيء إلا الخلود في النعيم .
قوله تعالى : { لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } . . الله ينفي عنهم العلم بينما في الآية السابقة أثبت لهم العلم في قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ } . . نقول إن العلم الذي لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئا . . لأن هذا العلم سيكون حجة على صاحبه يوم القيامة وليته لم يعلمه . . واقرأ قول الشاعر :
رُزِقُوا وما رُزِقُوا سَمَاحَ يد ... فكأنهم رُزِقُوا وما رُزِقُوا
خُلِقُوا وما خُلِقُوا لمكرُمَةٍ ... فكأنهم خُلِقُوا وما خُلِقُوا
فكأن العلم لم يثبت لك لأنك لم تنفع به . . والله سبحانه وتعالى يقول : { ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [الروم : 6]
(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا . .) وهكذا نفى الله عن الناس العلم الحقيقي . . وأثبت لهم العلم الدنيوي الظاهر . . وقوله جل جلاله : { مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [الجمعة : 5]

أي أنهم حملوا التوراة علما ولكنهم لم يحملوها منهجا وعملا . . وهؤلاء السحرة علموا أَنَّ مَنْ يمارس السحر يكفر . . ومع ذلك لم يعملوا بما علموا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104)

هذا نداء للمؤمنين . . لأن الآية الكريمة تبدأ : { يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ } . . نعرف أن الإيمان هنا هو سبب التكليف . . فالله لا يكلف كافرا أو غير مؤمن . . ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا . . فمادام العبد قد آمن فقد أصبحت مسئولية حركته في الحياة عند ربه . . ولذلك يوحي إليه بمنهج الحياة . . أما الكافر فلا يكلفه الله بشيء .

إذن قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ } . . أمر لمن آمن بالله ورضى به إلها ومشرعا . . قوله : { يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ } . . نداء للمؤمنين وقوله : { لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا } . . نهى . . وكأن راعنا كانت مقولة عندهم يريد الله أن ينهاهم عنها . . والإيمان يلزمهم أن يستمعوا إلى نهي الله .

ما معنى راعنا؟ نحن نقول في لغتنا الدارجة (راعينا) . . يعني احفظنا وراقبنا وخذ بيدنا وكلها مأخوذة من مادة الرعاية والراعي . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »

وأصل المادة مأخوذة من راعي الغنم . . لأن راعي الغنم لابد أن يتجه بها إلى الأماكن التي فيها العشب والماء . . أي إلى أماكن الرعي . . وأن يكون حارسا عليها حتى لا تشرد واحد أو تضل فتفتك بها ذئاب الصحاري . . وأن يوفر لها الراحة حتى لا تتعب وتنفق في الطريق . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كنتُ أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة »

ولكن لماذا استبدل الحق سبحانه وتعالى كلمة راعنا بكلمة انظرنا؟ إن عند اليهود في العبرانية والسريانية كلمة راعنا ومعناها الرعونة . . ولذلك كانوا إذا سمعوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة راعنا . . اتخذوها وسيلة للسباب بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . والمسلمون لا يدرون شيئا . . لذلك أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتركوا هذه الكلمة . . حتى لا يجد اليهود وسيلة لستر سبابهم ، وأمرهم بأن يقولوا : انظرنا .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى : « واسمعوا » . . والله هنا يشير إلى الفرق بين اليهود والمؤمنين . . فاليهود قالوا سمعنا وعصينا ، ولكن الله يقول للمؤمنين إسمعوا سماع طاعة وسماع تنفيذ .

سعد بن معاذ سمع واحدا من اليهود يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم راعنا وسعد كان من أحبار اليهود ويعرف لغتهم فلما سمع ما قاله فهم مراده . فذهب إلى اليهودي وقال له لو سمعتها منك مرة أخرى لضربت عنقك . . وقال اليهودي أو لستم تقولونها لنبيكم؟ أهي حرام علينا وحلال لكم؟ فنزلت الآية الكريمة تقول : { لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظرنا } . . ولو تأملنا كلمة (راعنا) وكلمة (انظرنا) لوجدنا المعنى واحدا . . ولكن (انظرنا) تؤدي المعنى وليس لها نظير في

لغة اليهود التي تعني الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقوله تعالى : { وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ } . . أي من يقولون راعنا إساءةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم عذاب أليم .

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)

ثم كشف الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين العداوة التي يكنها لهم أهل الكتاب من اليهود والمشركين . . الذين كفروا لأنهم رفضوا الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . . فيلفتهم إلى أن اليهود والمشتركين يكرهون الخير للمؤمنين . . فتشككوا في كل أمر يأتي منهم ، واعلموا أنهم لا يريدون لكم خيرا . . قوله تعالى : « ما يود » . . أي ما يحب ، والود معناه ميل القلب إلى من يحبه . . والود يختلف عن المعروف . . أنت تصنع معروفا فيمن تحب ومن لا تحب . . ولكنك لا تود إلا من تحب . . لذلك قال الله تبارك وتعالى : { لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ } [المجادلة : 22]
ثم بعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليقول عن الوالدين : { وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً } [لقمان : 15]
يقول بعض المستشرقين إن هناك تناقضا بين الآيتين . . كيف أن الله سبحانه وتعالى يقول : لا توادوا من يحارب الله ورسوله . . ثم يأتي ويقول إذا حاول أبواك أن يجعلاك تشرك بالله فصاحبهما في الدنيا معروفا . . وطبعا الوالدان اللذان يحاولان دفع ابنهما إلى الكفر إنما يحاربان الله ورسوله . . كيف يتم هذا التناقض؟ .
نقول إنكم لم تفهموا المعنى . . إن الإنسان يصنع المعروف فيمن يحب ومن لا يحب كما قلنا . . فقد تجد إنسانا في ضيق وتعطيه مبلغا من المال كمعروف . . دون أن يكون بينك وبينه أي صلة . . أما الود فلا يكون إلا مع من تحب .
إذن : { مَّا يَوَدُّ } معناها حب القلب . . أي أن قلوب اليهود والنصارى والمشركين لا تحب لكم الخير . . إنهم يكرهون أن ينزل عليكم خير من ربكم . . بل هم في الحقيقة لا يريدون أن ينزل عليكم من ربكم أي شيء مما يسمى خيرا . . والخير هو وحي الله ومنهجه ونبوة رسول صلى الله عليه وسلم .
وقوله تعالى : { مِّنْ خَيْرٍ } . . أي من أي شيء مما يسمى خير . . فأنت حين تذهب إلى إنسان وتطلب منه مالا يقول لك ما عندي من مال . . أي لا أملك مالا ، ولكنه قد يملك جنيها أو جنيهين . . ولا يعتبر هذا مالا يمكن أن يوفي بما تريده . . وتذهب إلى رجل آخر بنفس الغرض تقول أريد مالا . . يقول لك ما عندي من مال . . أي ليس عندي ولا قرش واحد ، ما عندي

أي مبلغ مما يقال له مال حتى ولو كان عدة قروش . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن أهل الكتاب والكفار والمشركين .

. مشتركون في كراهيتهم للمؤمنين . . حتى إنهم لا يريدون أن ينزل عليكم أي شيء من ربكم مما يطلق عليه خير .

وقوله تعالى : { مِّن رَّبِّكُمْ } . . تدل على المصدر الذي يأتي منه الخير من الله . . فكأنهم لا يحبون أن ينزل على المؤمنين خير من الله . . وهو المنهج والرسالة . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ } . . أي أن الخير لا يخضع لرغبة الكافرين وأمانيهم . . والله ينزل الخير لمن يشاء . . والله قد قسم بين الناس أمور حياتهم الدنيوية . . فكيف يطلب الكافرون أن يخضع الله منهجه لإرادتهم؟ واقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [الزخرف : 31-32]

اعترض الكفار على نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا لو نزل على رجل من القريتين عظيم . . فيرد عليهم سبحانه وتعالى . . أنتم لا تقسمون رحمة الله ولكن الله يقسم بينكم حياتكم في الدنيا .

الحق تبارك وتعالى في الآية التي نحن بصددها يقول : { والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ } . . ساعة تقرأ كلمة يختص تفهم أن شيئا خصص لشيء دون غيره . . يعني أنني خصصت فلانا بهذا الشيء : { والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ } . . أي يعطي الرحمة لمن يشاء لكي يؤدي مهمته أو ينزل رحمته على من يشاء ، فليس لهؤلاء الكفار أن يتحكموا في مشيئة الله ، وحسدهم وكراهيتهم للمؤمنين لا يعطيهم حق التحكم في رحمة الله . . ولذلك أراد الله أن يرد عليهم بأن هذا الدين سينتشر ويزداد المؤمنون به . . وسيفتح الله به أقطارا ودولا . . وسيدخل الناس فيه أفواجا وسيظهره على الدين كله .

ولو تأملنا أسباب انتصار أي عدو على من يعاديه لوجدنا إنها إما أسباب ظاهرة واضحة وإما مكر وخداع . . بحيث يظهر العدو لعدوه أنه يحبه ويكيد له في الخفاء حتى يتمكن منه فيقتله . . ولقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سرا . . لماذا؟ لأن الله أراد أن يقول لقريش لن تقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بالمكر والخداع والتبييت . . هم بيتوا الفتية ليقتلوه . . وجاءوا من كل قبيلة بفتى ليضيع دمه بين القبائل . . وخرج صلى الله عليه وسلم ووضع التراب على رءوس الفتية . . الله أرادهم أن يعرفوا أنهم لن يقدروا على رسول الله

صلى الله عليه وسلم بالمكر والتبييت والخداع ولا بالعداء الظاهر .
قوله تعالى : { والله ذُو الفضل العظيم } . . الفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية .

. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان معه فضل ظهر فَلْيَعُدْ به على من لا ظهر له ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »
وفضل مال أي مال زائد على حاجته . هذا عن الفضل بالنسبة للبشر . أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فإن كل ما في كون الله الآن وفي الآخرة هو فضل الله لأنه زائد على حاجته؛ فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التي سبقت والتي ستأتي . ولذلك قال : { والله ذُو الفضل العظيم } . . أي ذو الفضل الهائل الزائد على حاجته؛ لأنه ربما يكون عندي فضل ، ولكني أبقيه لأنني سأحتاج إليه مستقبلا . والفضل الحقيقي هو الذي من عند الله . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم؛ لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه؛ لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شيء ، وسيكون بعد ألا يوجد شيء . وهذا ما يسمى بالفضل العظيم .

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)

ولكن ما هو السبب؟ السبب أن أهل الكتاب والمشركين لا يريدون خيرا للمؤمنين في دينهم؛ لأنهم أحسوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في زمنه خير مما جاء به موسى وبقى إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . . وخير مما جاء به عيسى في زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وليس معنى ذلك أننا نحاول أن ننقص ما جاء به الرسل السابقون . . لكننا نؤكد أن الرسل السابقين جاءوا في أزمانهم بخير ما وُجد في هذه الأزمان . . فكل رسالة من الرسالات التي سبقت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وجاءت لقوم محدّدين ولزمن محدّد ثم جاء نبي جديد لينسخ ما في الرسالة السابقة لقوم محددين . . وزمن محدد . . واقرأ قول عيسى عليه السلام حينما بعث إلى بني إسرائيل كما يروي لنا القرآن الكريم : { وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ } [آل عمران : 50]
فكأن عيسى عليه السلام جاء لينسخ بعض أحكام التوراة . . ويحل لبني إسرائيل بعض ما حرمه الله عليهم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم أعطى الخير كله؛ لأنه دينه للعالمين وباق إلى يوم القيامة .
وهكذا نرى أن المؤمنين بالرسل كلما جاء رسول جديد كانوا ينتقلون من خير إلى خير . . وفيما تتفق فيه الرسالات كانوا ينتقلون إلى مثل هذا الخير . . وذلك فيما يتعلق بالعقائد ، وإلى زيادة في الخير فيما يتعلق بمنهج الحياة . . هناك في رسالات السماء كلها أمور مشتركة لا فرق فيها بين

رسول ورسول وهي قضية الإيمان بإله واحد أحد له الكمال المطلق . . سبحانه في ذاته ، وسبحانه في صفاته ، وسبحانه في أفعاله . . كل ذلك قدر الرسالات فيه مشترك . . ولكن الحياة في تطورها توجد فيها قضايا لم تكن موجودة ولا مواجهة في العصر الذي سبق . . فإذا قلنا إن رسالة بقيمتها العقائدية تبقى . . فإنها لا تستطيع أن تواجه قضايا الحياة التي ستأتي بها العصور التي بعدها فيما عدا الإسلام . . لأنه جاء دينا خاتما لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . على أننا نجد من يقول وماذا عن قول الله سبحانه وتعالى : { شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الله يجتبي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ويهدي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } [الشورى : 13]

نقول إن هذا يأتي في شيء واحد . . يتعلق بالأمر الثابت في رسالات السماء وهو قضية قمة العقيدة والإيمان بالله الواحد .

. أما فيما يتعلق بقضايا الحياة فإننا نجد أحكاما في هذه الحركة حسب ما طرأ عليها من توسعات . . ولذلك عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أعطى أشياء يعالج بها قضايا لم تكن موجودة في عهد الرسل السابقين .

يقول الله تبارك وتعالى : { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا } . . كلمة ننسخ معناها نزيل آية كانت موجودة ونأتي بآية أخرى بدلا منها . . كما يقال نسخت الشمس الظل . . أي أن الظل كان موجودا وجاءت الشمس فمحته وحلت هي مكانه . . ويقال نسخت الكتاب أي نقلته إلى صور متعددة ، ونسخ الشيب الشباب أي أصبح الشاب شيخا . .

وقوله تعالى « ننسها » لها معان متعددة . . قد يعني ذلك أن الله يجعل الإنسان يسهو ويغفل عنها . . فتضيع من ذاكرته أو يتركها إلى غيرها . . والعلماء إختلفوا في هذه المسألة . . وكان هذا الاختلاف لأن أحدهم يلحظ ملحظا وغيره يلحظ ملحظا آخر وكلاهما يريد الحق . .

نأتي للنسخ في القرآن الكريم . . قوم قالوا لا نسخ في القرآن أبدا . . لماذا؟ لأن النسخ بداء على الله . . ما معنى البداء؟ هو أن تأتي بحكم ثم يأتي التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فيعدل الحكم . . وهذا محال بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . نقول لهم طبعا هذا المعنى مرفوض ومحال أن يطلق على الله تبارك وتعالى . . ولكننا نقول إن النسخ ليس بداء ، وإنما هو إزالة الحكم والمجيء بحكم آخر . . ونقول لهم ساعة حكم الله الحكم أولا فهو سبحانه يعلم أن هذا الحكم له وقت محدود ينتهي فيه ثم يحل مكانه حكم جديد . . ولكن الظرف والمعاجلة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج . . وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم بشيء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعدل الله عن الحكم . . إن هذا غير صحيح .

لماذا؟ . . لأنه ساعة حكم الله أولا كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لفترة . . ثم بعد ذلك ينسخ أو يبدل بحكم آخر . إذن فالمشرع الذي وضع هذا الحكم وضعه على أساس أنه سينتهي وسيحل محله حكم جديد . .

وليس هذا كواقع البشر . . فأحكام البشر وقوانينهم تعدل لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع . . لأنه ساعة وضع الناس الحكم علموا أشياء وخفيت عنهم أشياء . . فجاء الواقع ليظهر ما خفى وأصبح الحكم لابد أن ينسخ أو يعدل . . ولكن الأمر مع الله سبحانه وتعالى ليس كذلك . . أمر الله جعل الحكم موقوتا ساعة جاء الحكم الأول .

مثلا حين وجه الله المسلمين إلى بيت المقدس .

. أكانت القضية عند الله أن القبلة ستبقى إلى بيت المقدس طالما وجد الإسلام وإلى يوم القيامة؟ ثم بدا له سبحانه وتعالى أن يوجه المسلمين إلى الكعبة؟ لا . . لم تكن هذه هي الصورة . . ولكن كان في شرع الله أن يتوجه المسلمون أولا إلى بيت المقدس فترة ثم بعد ذلك يتوجهون إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فالواقع لم يضطر المشرع إلى أن يعدل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . . وإنما كان في علمه وفي شرعه أنه سيغير القبلة بعد فترة إلى الكعبة . . ولعل لذلك هدفا إيمانيا في أن العلة في الأمور هي أنها من الله؛ فالاتجاه إلى بيت المقدس أو الاتجاه إلى الكعبة لا يكلف المؤمنين جهدا إيمانيا إضافيا . . ولا يضع عليهم تكاليف جديدة . فالجهد نفسه الذي أبذله للاتجاه إلى الشرق أبذله للاتجاه إلى الغرب . ولكن الاختبار الإيماني أن تكون علة الأمر أنه صادر من الله . . فإذا قال الله اتجه إلى بيت المقدس إتجهنا . . فإذا قال اتجه إلى الكعبة اتجهنا . . ولا قدسية لشيء في ذاته . . ولكن القدسية لأمر الله فيه .

والله تبارك وتعالى حين أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم لم يسجدوا لذات آدم ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . والله سبحانه وتعالى اختار الكعبة المشرفة بيتا ومسجدا له في الأرض . . واتخذت الكعبة مقامها العالي عند المسلمين ليس لأنها بقعة في مكان ما جاءها إبراهيم والأنبياء وحج إليها الناس ، ولكن مقامها جاء من أنها هي بيت الله باختيار الله لها . . وكل مساجد الأرض هي بيوت الله باختيار خلق الله . . ولكن المسجد الوحيد الذي هو بيت الله باختيار الله هو الكعبة . . ولذلك كان لا بد لكل المساجد التي هي باختيار خلق الله . . أن تتجه إلى المسجد الذي هو باختيار الله . . ولكن العلة الإيمانية الكبرى هي أن نؤمن أن صدور الأمر من الله هو الحيثية لاتباع هذا الأمر دون أن نبحث عن أسبابه الدنيوية .

فإذا قال الله سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات في اليوم . . فدون أن نبحث عن السبب أو نقول لماذا خمسة؟ فلننقص منها . . دون أن نفعل ذلك نصلي خمس مرات في اليوم والسبب أن

الله قال ، وهكذا الزكاة ، وهكذا الصوم وهكذا الحج . . كلها تتم طاعة لله . . وهكذا تغيير القبلة تم اختباراً للطاعة الإيمانية لله . . فالله موجود في كل مكان . . فلا يأتي أحد ليقول لماذا الكعبة؟ وهل الله ليس موجوداً إلا في الكعبة؟ نقول لا إنه موجود في كل مكان . . ولكنه أمرنا أن نتجه إلى الكعبة . . ونحن لا نتجه إليها لأننا نعتقد أن الله تبارك وتعالى موجود في هذا المكان فقط .

. ولكن طاعة لأمر الله الذي أمرنا أن تكون قبلتنا إلى الكعبة .

ولعل تغيير القبلة يعطينا فلسفة نسخ الآيات . . لماذا؟ لأنه لم توجد أية ظروف أو تجد وقائع ، أو تظهر أشياء كانت خفية تجعل الاتجاه إلى بيت المقدس صعبا أو محوطا بالمشاكل أو غير ذلك ، ولكن تغيير القبلة جاء هنا لأن الله سبحانه وتعالى شاء أن يتوجه المسلمون إلى بيت المقدس فترة ثم يتوجهوا إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فكل آية نسخت كان في علم الله سبحانه وتعالى أنها ستطبق لفترة معينة ثم بعد ذلك ستعدل . . وكان كل من الحكم الذي سينسخ ، والوقت الذي سيستغرقه ، والحكم الذي سيأتي بعده معلوما عند الله تبارك وتعالى ومقررا منذ الأزل وقبل بداية الكون . . وأيضا فإن الله أراد أن يلفتنا بالتوجه إلى بيت المقدس أولا . . لأن الإسلام دين يشمل كل الأديان ، وأن بيت المقدس سيصبح من مقدسات الإسلام . . وأنه لا يمكن لأحد أن يدعي أن المسلمين لن يكون لهم شأن في بيت المقدس ، لذلك أسرى الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . . ليثبت أن لبيت المقدس قداسة في الإسلام وإنه من المقدسات عند الله . . ومن هنا كان التوجه إلى بيت المقدس كقبلة أولى ، ثم نسخ الله القبلة إلى الكعبة . . فالحق جل جلاله يقول : { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا } . . أي أن النسخ يكون إما أن يأتي الله سبحانه وتعالى بخير من هذه الآية أو يأتي بمثلها . . وهل الآية المنسوخة كان هناك خير منها ولم ينزله الله؟ نقول لا . . المعنى أن الآية المنسوخة كانت خيراً في زمانها . . والحكم الثاني كان زيادة في الخير بعد فترة من الزمن . . كلاهما خير في زمنه وفي أحكامه . . والله تبارك وتعالى أنزل الآية الكريمة : { ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } [آل عمران : 102]

ولكن من يستطيع أن يتقي الله حق تقاته . . ذلك صعب على المسلمين . . ولذلك عندما نزلت الآية قالوا ليس منا من يستطيع أن يتقي الله حق تقاته . . فنزلت الآية الكريمة : { فاتقوا الله مَا استطعتم واسمعوا وَأَطِيعُواْ وَأَنْفِقُواْ خَيْراً لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون } [التغابن : 16]

الذي يتقي الله حق تقاته خير ، أم الذي يتقي الله ما استطاع؟ طبعا حق تقاته خير من قدر

الاستطاعة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : { نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا } . . نقول إنك لم تفهم عن الله . . { اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ } في الآية الأولى أو { فاتقوا الله مَا استطعتم } في الآية الثانية . . أي الحالتين أحسن؟ نقول إن العبرة بالنتيجة .

. عندما تريد أن تقيم شيئا لابد أن تبحث عن نتيجته أولا .

ولنقرب المعنى للأذهان سنضرب مثلا ولله المثل الأعلى . . نفرض أن هناك تاجرا يبيع السلع بربح خمسين في المائة . . ثم جاء تاجر آخر يبيع نفس السلع بربح خمسة عشر في المائة . . ماذا يحدث؟ سيقبل الناس طبعا على ذلك الذي يبيع السلع بربح خمسة عشر في المائة ويشترون منه كل ما يريدون ، والتاجر الذي يبيع السلع بربح خمسين في المائة يحقق ربحا أكبر . . ولكن الذي يبيع بربح خمسة عشر في المائة يحقق ربحا أقل ولكن بزيادة الكمية المبيعة . . يكون الربح في النهاية أكبر .

والذي يطبق الآية الكريمة : { اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ } يحقق خيرا أكبر في عمله . . ولكنه لا يستطيع أن يتقي الله حق تقاته إلا في أعماله محدودة جدا .

إذن الخير هنا أكبر ولكن العمل الذي تنطبق عليه الآية محدود .

أما قوله تعالى : { فاتقوا الله مَا استطعتم } فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة . . ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإن كان الأجر عليها أقل .

عندما نأتي إلى النتيجة العامة . . أعمال أجرها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جدا . . وأعمال أجرها أقل ولكنها كثيرة . . أيهما فيه الخير؟ طبعا الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل في مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع .

إذن فقد نسخت هذه الآية بما هو خير منها . . رغم أن الظاهر لا يبدو كذلك ، لأن اتقاء الله حق تقاته خير من اتقاء الله قدر الاستطاعة . . ولكن في المحصلة العامة الخير في الآية التي نصت على الاستطاعة . .

نأتي بعد ذلك إلى قوله تعالى : { أَوْ مِثْلِهَا } . . هنا توقف بعض العلماء : قد يكون مفهوما أن ينسخ الله آية بخير منها ، ولكن ما هي الحكمة في أن ينسخها بمثلها؟ إذا كانت الآية التي نسخت مثل الآية التي جاءت . . فلماذا تم النسخ؟ نقول إننا إذا ضربنا مثلا لذلك فهو مثل تغيير القبلة . . أن الله تبارك وتعالى حين أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس نسخ آية بمثلها . . لأن التوجه إلى الكعبة لا يكلف المؤمن أية مشقة أو زيادة في التكليف . . فالإنسان يتوجه ناحية اليمين أو إلى اليسار أو إلى الأمام أو إلى الخلف وهو نفس الجهد . . والله سبحانه وتعالى كما قلنا موجود . . وهنا تبرز الطاعة الإيمانية التي تحدثنا عنها وأن هناك أفعالا نقوم بها لأن الله قال . . وهذه تأتي في العبادات لأن العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود . . والله

تبارك وتعالى يريد أن نثبت العبودية له عن حب واختيار . . فإن قال افعلوا كذا فعلنا . . وإن قال لا تفعلوا لا نفعل .

. والعلة في هذا أننا نريد اختياراً أن نجعل مراداتنا في الكون خاضعة لمرادات الله سبحانه وتعالى . . إذن مثلها لم تأت بلا حكمة بل جاءت لحكمة عالية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { أَوْ نُنسِهَا } ما معنى ننسها؟ قال بعض العلماء إن النسخ والنسيان شيء واحد . . ولكن ساعة قال الله الحكم الأول كان في إرادته ومشيئته وعلمه أن يأتي حكم آخر بعد مدة . . ساعة جاء الحكم الأول ترك الحكم الثاني في مشيئته قدرا من الزمن حتى يأتي موعد نزوله .

إذن فساعة يأتي الحكم الأول . . يكون الحكم مرجأ ولكنه في علم الله . ينتظر انقضاء وقت الحكم الأول : { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ } هي الآية المنسوخة أو التي سيتم عدم العمل بها : { أَوْ نُنسِهَا } . . أي لا يبلغها الله للرسول والمؤمنين عن طريق الوحي مع أنها موجودة في علمه سبحانه . . ويجب أن نتنبه إلى أن النسخ لا يحدث في شيئين :

الأول : أمور العقائد فلا تنسخ آية آية أخرى في أمر العقيدة . . فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة . . فالله سبحانه واحد أحد لا تغيير ولا تبديل ، والغيب قائم ، والآخرة قادمة والملائكة يقومون بمهامهم . . وكل ما يتعلق بأمور العقيدة لا ينسخ أبدا . .

والثاني : الإخبار من الله عندما يعطينا الله تبارك وتعالى آية فيها خبر لا ينسخها بآية جديدة . . لأن الإخبار هو الإبلاغ بشيء واقع . . والحق سبحانه وتعالى إخباره لنا بما حدث لا ينسخ لأنه بلاغ صدق من الله . . فلا تروى لنا حادثة الفيل ثم تنسخ بعد ذلك وتروى بتفاصيل أخرى لأنها أبلغت كما وقعت . . إذن لا نسخ في العقائد والإخبار عن الله . . ولكن النسخ يكون في التكليف . . مثل قول الحق تبارك وتعالى : { يأيها النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ يغلبوا أَلْفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ } [الأنفال : 65]

كأن المقياس ساعة نزول هذه الآية أن الواحد من المؤمنين يقابل عشرة من الكفار ويغلبهم . . ولكن كانت هذه عملية شاقة على المؤمنين . . ولذلك نسخها الله ليعطينا على قدر طاقتنا . . فنزلت الآية الكريمة : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يغلبوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصابرين } [الأنفال : 66]

والحق سبحانه وتعالى علم أن المؤمنين فيهم ضعف . . لذلك لن يستطيع الواحد منهم أن يقاتل عشرة ويغلبهم . . فنقلها إلى خير يسير يقدر عليه المؤمنون بحيث يغلب المؤمن الواحد اثنين من

الكفار . . وهذا حكم لا يدخل في العقيدة ولا في الإخبار . . وفي أول نزول القرآن كانت المرأة إذا زنت وشهد عليها أربعة يمسكونها في البيت لا تخرج منه حتى تموت .

. واقرأ قوله تعالى : { واللاتي يَأْتِينَ الفاحشة مِن نِّسَآئِكُمْ فاستشهدوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنْكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البيوت حتى يَتَوَفَّاهُنَّ الموت أَوْ يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً } [النساء : 15] وبعد أن شاع الإسلام وامتلأت النفوس بالإيمان . . نزل تشريع جديد هو الرجم أو الجلد . . ساعة نزل الحكم الأول بحبسهن كان الحكم الثاني في علم الله . . وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : { أَوْ يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً } . . وقوله سبحانه : { فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ } [البقرة : 109]

وقوله تعالى حتى يأتي الله بأمره . . كأن هناك حكما أو أمرا في علم الله سيأتي ليعدل الحكم الموجود . . إذن الله حين أبلغنا بالحكم الأول أعطانا فكرة . . إن هذا الحكم ليس نهائيا وأن حكما جديدا سينزل . . بعد أن تتدرب النفوس على مراد الله من الحكم الأول . . ومن عظمة الله أن مشيئته اقتضت في الميراث أن يعطي الوالدين اللذين بلغا أرذل العمر فقال جل جلاله : { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية لِلْوَالِدَيْنِ والأقربين بالمعروف حَقّاً عَلَى المتقين } [البقرة : 180]

وهكذا جعلها في أول الأمر وصية ولم تكن ميراثا . . لماذا؟ لأن الإنسان إن مات فهو الحلقة الموصولة بأبيه . . أما أبناؤه فحلقة أخرى . . ولما استقرت الأحكام في النفوس وأقبلت على تنفيذ ما أمر به الله . . جعل سبحانه المسألة فرضا . . فيستوفى الحكم . ويقول جل جلاله : { يُوصِيكُمُ الله فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثنتين فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النصف وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السدس مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثلث فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السدس مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ الله إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } [النساء : 11]

وهكذا بعد أن كان نصيب الوالدين في تركة الإبن وصية . . إن شاء أوصى بها وإن شاء لم يوصي أصبحت فرضا . . وقوله تعالى : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . . أي كل شيء يدخل في إرادة الله وقدرته سبحانه . . إذا قلنا إذا جاء الله بحكم لعصر فهذا هو قمة الخير . . لأنه إذا عُدل الحكم بعد أن أدى مهمته في عصره ، فإن الحكم الجديد الذي يأتي هو قمة الخير أيضا . . لأن الله على كل شيء قدير ، يواجه كل عصر بقمة الخير للموجودين فيه . . ولذلك فمن عظمة الله أنه لم يأت بالحكم خبرا من عنده ولكنه أشرك فيه المخاطب . . فلم يقل سبحانه

« إن الله على كل شيء قدير » . . ولكنه قال : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . . لأنه واثق أن كل من يسمع سيقول نعم . . وهذا ما يعرف بالاستفهام الإنكاري أو التقريري .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107)

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هناك آيات نسخت في القرآن . . أراد أن يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة في كونه يفعل ما يشاء . . ولذلك بدأ الآية الكريمة : { أَلَمْ تَعْلَمْ } . . وهذا التعبير يسمى الاستفهام الاستنكاري أو التقريري . . لأن السامع لا يجد إلا جوابا واحدا بأنه يقر ما قاله الله تبارك وتعالى . . ويقول نعم يا رب أنت الحق وقولك الحق .

قوله تعالى : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض } . . الملك يقتضي مالكا ويقتضي مملوكا . . ويقتضي قدرة على استمرار هذا الملك وعدم زواله . . فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة . . والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه . . والإنسان لا يملك الفعل في الكون . . إن أراد مثلا أن يبني عمارة قد لا يجد الأرض . . فإن وجد الأرض قد لا يجد العامل الذي يبني . . فإن وجده قد لا يجد مواد البناء . . فإن وجد هذا كله قد تأتي الحكومة أو الدولة وتمنع البناء على هذه الأرض . . أو أن تكون الأرض ملكا لإنسان آخر فتقام القضايا ولا يتم البناء .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض } . . أي أن كل شيء في الوجود هو ملك لله وهو يتصرف بقدرته فيما يملك . . ولذلك عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . . كان اليهود يملكون المال ولهم معرفة ببعض العلم الدنيوي لذلك سادوا المدينة . . وبدأوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . . والله تبارك وتعالى طمأن رسوله بأن طلاقة القدرة في الكون هي لله وحده . . وأنه إذا كان لهم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك ممن يشاء ويعطيه لمن يشاء . . ولذلك حينما يأتي يوم القيامة ويُهلك الله الأرض ومن عليها . . يقول سبحانه : { لِّمَنِ الملك اليوم } [غافر : 16]

ويرد جل جلاله بشهادة الذات للذات فيقول : { لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16]

ومادام الله هو المالك وحده . . فإنه يستطيع أن ينزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها ما يملكونه . . ويحدثنا العلماء أن العسَسَ وهم الجنود الذين يسيرون ليلا لتفقد أحوال الناس وجدوا شخصا يسير ليلا . . فلما تقدموا منه جرى فجروا وراءه إلى أن وصل إلى مكان خرب ليستتر فيه . . تقدم العسس وأمسكوا به وإذا بهم يجدون جثة قتيل في المكان . . فقالوا له أنت القاتل لأنك جريت حين رأيتنا ولأنك موجود الآن في المكان الذي فيه جثة القتيل .

. فأخذوه ليحاكموه فقال لهم أمهلوني لأصلي ركعتين لله . . فأمهلوه فصلى ثم رفع يديه إلى السماء وقال اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد على براءتي إلا أنت . . وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك في نفسك . . فبينما هم كذلك إذا أقبل رجل فقال . . أنا قاتل هذا القتيل وأنا أقر بجريمتي . . فتعجب الناس وقالوا لماذا تقر بجريمتك ولم يرك أحد ولم يتهمك أحد . . فقال لهم والله ما أقررت إنما جاء هاتف فأجرى لساني بما قلت . . فلما أقر القاتل بما فعل وقام ولي المقتول وهو أبوه فقال . . اللهم إني أشهدك إني قد أعفيت قاتل ابني من دينه وقصاصه . انظر إلى طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى . . القاتل أراد أن يختفي ولكن أنظر إلى دقة السؤال من السائل أو المتهم البريء . . وقد صلى ركعتين لله . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أنه إذا حزبنا أمر قمنا إلى الصلاة فليس أمامنا إلا هذا الباب . . وبعد أن صلى سأل الله أنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة ولا يشهد ببراءتي أحد إلا أنت فأسألك ذلك في نفسك وبعد ذلك كان ما كان .

وهذه القصة تدلنا على أننا في قبضة الله . . أردنا أو لم نرد . . بأسباب أو بغير أسباب . . لماذا؟ . . لأن الله له ملك السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير . . وقوله تعالى : { وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ } . . الولي هو من يواليك ويحبك . . والنصير هو الذي عنده القدرة على أن ينصرك وقد يكون النصير غير الولي . . الحق تبارك وتعالى يقول أنا لكم وليٌّ ونصير أي محب وأنصركم على من يعاديكم .

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108)

ثم ينقل الحق جل جلاله المسلمين بعد أن بين لهم أنه وليهم ونصيرهم . . ينقلهم إلى سلوك أهل الكتاب من اليهود مع رسلهم حتى يتفادوا مثل هذا السلوك فيقول جل جلاله : { أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ } . . الحق يقول للمؤمنين أم تريدون أن تسألوا رسول الله كما سأل اليهود موسى . . ولم يشأ الحق أن يشبه المسلمين باليهود فقال : { كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ } . . وكان من الممكن أن يقول أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى . . ولكن الله لم يرد أن يشبه اليهود بالمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهذا تكريم من الله للمؤمنين بأن ينزههم أن يتشبهوا باليهود . . وقد سأل اليهود موسى عليه السلام وقالوا كما يروي لنا القرآن الكريم : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مّنَ السمآء فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك فقالوا أَرِنَا الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتخذوا العجل مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات فَعَفَوْنَا عَن ذلك وَآتَيْنَا موسى سُلْطَاناً مُّبِيناً } [النساء : 153] وقد سأل أهل الكتاب والكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يروي لنا القرآن الكريم : {

وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً } [الإسراء : 90]
{ أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 92-93]

الله تبارك وتعالى يهيب بالمؤمنين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كما سأله أهل الكتاب والكفار ويقول لهم أن اليهود قد سألوا موسى أكبر من ذلك . . فبعد أن رأوا المعجزات وشق الله البحر لهم . . وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة فلم تكن خافية عنهم . . بل كانت ظاهرة لهم واضحة . . دالة دلالة دامغة على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى عظيم قدراته . . ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . أي لم تكفهم هذه المعجزات . . وكأنما كانوا بماديتهم يريدون أن يروا في حياتهم الدنيوية من لا تدركه الأبصار . . وبمجرد أن عبروا البحر أرادوا أن يجعل لهم موسى صنما يعبدونه وعبدوا العجل رغم كل الآيات التي شاهدوها .

وقوله تعالى : { وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل } . . قلنا إن الباء في قوله تعالى : « بالإيمان » تدخل دائما على المتروك . . كأن تقول اشتريت هذا بكذا درهم . . يعني تركت الدراهم وأخذت البضاعة . . ومعناها أن الكفر مأخوذ والإيمان متروك .

. فقد أخذ اليهود الكفر وتركوا الإيمان حين قالوا لموسى : { أَرِنَا الله جَهْرَةً } . . وقوله سبحانه : { فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل } .

ما هو الضلال؟ . . هو أن تسلك سبيلا لا يؤدي بك إلى غايتك . . و « سواء السبيل » . . السواء هو الوسط . . و « سواء السبيل » . . هو وسط الطريق . . والله تبارك وتعالى يقول : { فاطلع فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الجحيم } [الصافات : 55]

أي في وسط الجحيم . . أي أنه يكون بعيدا عن الحافتين بعداً متساوياً . . وسواء الطريق هو وسطه . . والسبيل أو الطريق كان قبل استخدام التكنولوجيا الحديثة تكون أطرافه وعرة من جنس الأرض قبل أن تمهد . . أي لا تصلح للسير . . ولذلك فإن السير في وسط الطريق يبعدك عن المتاعب والصعوبات . ويريد الله من المؤمنين به أن يسيروا في الطريق الممهد أو في وسط الطريق لأنه أكثر أمانا لهم . . فهم فيه لن يضلوا يمينا ولا يسارا بل يسيروا على منهج الله والإيمان . . وطريق الإيمان دائما ممهد لا يقودهم إل الكفر .

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)

هذه الآية الكريمة تتناول أحداثا وقعت بعد غزوة أحد . . وفي غزوة أحد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . من الرماة ألا يغادروا مواقعهم عند سفح الجبل سواء انتصر المسلمون أو انهزموا . . فلما بدأت بوادر النصر طمع الرماة في الغنائم . . فخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزمهم الله . . ولكن الكفار لم يحققوا نصرا لأن النصر هو أن تحتل أرضا وتبقى . هؤلاء الكفار بعد المعركة انطلقوا عائدين إلى مكة . . حتى أن المسلمين عندما خرجوا للقائهم في اليوم التالي لم يجدوا أحداً . . يهود المدينة استغلوا هذا الحدث . . وعندما التقوا بحذيفة بن اليمان وطارق وغيرهما . . قالوا لهم إن كنتم مؤمنين حقا لماذا إنهزمتم فارجعوا إلى ديننا واتركوا دين محمد . . فقال لهم حذيفة ماذا يقول دينكم في نقض العهد؟ . . يقصد ما تقوله التوراة في نقض اليهود ولعهودهم مع الله ومع موسى . . ثم قال أنا لن انقض عهدي مع محمد ما حييت . . أما عمار فقال . . لقد آمنت بالله ربا وآمنت بمحمد رسولا وآمنت بالكتاب إماما وآمنت بالكعبة قبلة وآمنت بالمؤمنين إخوة وسأظل على هذا ما حييت .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله حذيفة وطارق بن ياسر فسر بذلك ولكن اليهود كانوا يستغلون ما حدث في أحد ليهزموا العقيدة الإيمانية في قلوب المسلمين كما استغلوا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليهزوا الإيمان في القلوب وقالوا إذا كانت القبلة تجاه بيت المقدس باطلة فلماذا اتجهتم إليها ، وإذا كانت صحيحة فلماذا تركتموها ، فنزل قول الله تعالى : { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ } .

انظر إلى دقة التعبير القرآني في قوله تعالى : { مِّنْ أَهْلِ الكتاب } . . فكأن بعضهم فقط هم الذين كانوا يحاولون رد المؤمنين عن دينهم . . ولكن كانت هناك قلة تفكر في الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . . ولو أن الله جل جلاله حكم على كل أهل الكتاب لسد الطريق أمام هذه القلة أن يؤمنوا . . أي أن أهل الكتاب من اليهود يحبون أن يردوكم عن دينكم وهؤلاء هم الكثرة . . لأن الله تعالى قال : { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب } .

وقوله تعالى : { مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً } . . كفارا بماذا؟ . . بما آمنتم به أو بما يطلبه منكم دينكم . . وهم لا يفعلون ذلك عن مبدأ أو عقيدة أو لصالحكم ولكن : { حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ } . . فدينهم يأمرهم بعكس ذلك . . يأمرهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ولذلك فهم لا ينفذون ما تأمرهم به التوراة حينما يرفضون الإيمان بالإسلام .

. والذي يدعوهم إلى أن يحاولوا ردكم عن دينكم هو الحسد . . والحسد هو تمني زوال النعمة عمن تكره . . وقوله تعالى : { حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ } . . أي هذه المسألة من ذواتهم لأنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإيمان . . ويتمنون زوال هذه النعمة . . التي جعلت من المسلمين إخوانا متحابين متكاتفين مترابطين . . بينما هم شيع وأحزاب . . وهناك حسد يكون من منطق

الدين وهذا مباح . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فَسُلِّط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس »
فكأن الحسد حرام في غير هاتين الحالتين . . فكأن هؤلاء اليهود يحسدون المسلمين على دينهم . . وهذا الحسد من عند أنفسهم لا تقره التوراة ولا كتبهم . . وقوله سبحانه : { مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق } . . أي بعد ما تأكدوا من التوراة من شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم .
وقوله تعالى : { فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ } . . ما هو العفو وما هو الصفح؟ . . يقال عفت الريح الأثر أي مسحته وأزالته . . فالإنسان حين يمشي على الرمال تترك قدمه أثرا فتأتي الريح وتعفو الأثر أي تزيله . . ولذلك فإن العفو أن تمحو من نفسك أثر أي إساءة وكأنه لم يحدث شيء . . والصفح يعني طي صفحات هذا الموضوع لا تجعله في بالك ولا تجعله يشغلك . . وقوله تعالى : { حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ } . . أن هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه في المؤمنين لن يستمر لأن الله سبحانه قد أعد لهم أمرا ولكن هذا الأمر لم يأت وقته ولا أوانه . . وعندما يأتي سيتغير كل شيء . . لذلك يقول الله للمؤمنين لن تظلوا هكذا . . بل يوم تأخذونهم فيه بجرائمهم ولن يكون هذا اليوم بعيدا . . عندما يقول الله سبحانه : { حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ } . . فلابد أن أمر الله آت . . لأن هذه قضية تتعلق بجوهر الإيمان كله . . فلا يقال أبدا حتى يأتي الله بأمره ثم لا يجيء هذا الأمر . . بل أمر الله بلا شك نافذ وسينصركم عليهم . . وقوله تعالى : { إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . . أن الله له طلاقة القدرة في ملكه . . ولذلك إذا قال أنه سيأتي بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتما وسيتم . . ولا توجد قدرة في هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه . . ولا قوة إلا قوته جل جلاله . . ولا فعل إلا ما أراد .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن أقصى أماني أهل الكتاب أن يردونا كفارا ، وأن هذا حسدا منهم . أراد الله تبارك وتعالى أن يبين لنا ما الذي يكرهه أهل الكتاب . . وقال إن الذي يتعبهم ميزان العدل والحق الذي نتبعه . . منهج الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يأمر الله المؤمنين أن يثبتوا ويتمسكوا بالإيمان ، وأن يقبلوا على التكليف فهذا أحسن رد عليهم . . والتكاليف التي جاء بها الإسلام منها تكليفات لا تتطلب إلا وقتاً من الزمن وقليلا من الفعل كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .
إن شهادة لا إله إلا الله تقال مرة في العمر . . والزكاة والصوم مرة كل عام . . والحج للمستطيع

مرة في العمر . . ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطي المؤمن شحنة اليقين والإيمان ويأخذه من دنياه بالله أكبر خمس مرات في اليوم . . وهذه هي العبادة التي لا تسقط أبدا . . والإنسان سليم والإنسان مريض . . فالمؤمن يستطيع أن يصلي واقفا وأن يصلي جالسا وأن يصلي راقدا . . وأن يجري مراسم الصلاة على قلبه . . لذلك كانت هذه أول عبادة تذكر في قوله تعالى : { وَأَقِيمُواْ الصلاة } أي والتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة . . وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله . . إقبال في ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا في حضرته يعطيكم الله المدد . . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا حزبه أمر صلى »

ومعنى حزبه أمر . . أي ضاقت به أسبابه فلم يجد مخرجا ولا طريقا إلا أن يلجأ إلى الله . . إذا حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصلي ركعتين غير الفريضة . . ثم يدعو ما يشاء فيفرج الله كربه . . إذن : { وَأَقِيمُواْ الصلاة } هي الرد المناسب على كل محاولاتهم ليسلبوكم دينكم . . ذلك أن هذا التكليف المقرر لإعلان الولاء الإيماني لله كل يوم خمس مرات . . نترك كل ما في الدنيا ونتجه إلى الله بالصلاة . . إنها عماد الدين وأساسه .

وقوله تعالى : { وَآتُواْ الزكاة } . . إيتاء الزكاة لا يحدث إلا إذا كان لديهم ما هو زائد عن حاجتك . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نضرب في الأرض لنكسب حاجتنا وحاجة من نعول ونزيد . . وبذلك يخرج المسلمون من سيطرة اليهود الإقتصادية التي يستذلون بها المسلمين .

فالمؤمن حين يأتي الزكاة معناه أن حركته اتسعت لتشمل حاجته وحاجة غيره . . ولذلك حتى الفقير يجد في الزائد في أموال المسلمين ما يكفي حاجته .

. فلا يذهب إلى اليهودي ليقترض بالربا . . ولذلك فالله سبحانه وتعالى يريد أن يتكامل المسلمون . . بحيث تكفي أموالهم غنيهم وفقيرهم والقادر على العمل منهم وغير القادر . والله تبارك وتعالى يزيد أموال المسلمين بأكثر مما يخرج منها من زكاة . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه »

وقد سميت « الزكاة » لأنها في ظاهرها نقص وفي حقيقتها زيادة . . والربا ظاهره زيادة وحقيقته نقص . . وفي ذلك يقول الله جل جلاله : { يَمْحَقُ الله الربا وَيُرْبِي الصدقات } [البقرة : 276]

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله } . . إذن لابد أن يطمئن المؤمن لأن حركة حياته هي ثواب وأجر عند الله تبارك وتعالى . . فإذا صلى فله أجر وإذا

زكى فله أجر ، وإذا تصدق فله أجر ، وإذا صام فله أجر ، وإذا حج فله أجر ، كل ما يفعله من منهج الله له أجر ، وليس أجرا بقدر العمل ، بل أضعاف العمل . . وإقرأ قوله تعالى : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 261]

وهكذا نعرف أن كل حركة في منهج الله ليس فقط لها أجر عند الله سبحانه وتعالى . . ولكنه أجر مضاعف أضعافا مضاعفة . . وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه . . ولذلك فهو ليس مضاعفا فقط في عدد المرات ولكنه مضاعف في القدرة أيضا . . فكأن كل إنسان مؤمن لا أجر له في الآخرة . . وإذا أُعطى في الدنيا يُعطي عطاء المثل . . ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافا مضاعفة . . وهو عطاء ليس زائلا كعطاء الدنيا ولكنه باق وخالد .

والخير الذي تفعله لن تدخره عندك أو عند من قد ينكره . . ويقول لا شيء لك عندي ولكن الله سيدخره لك . . فانظر إلى الإطمئنان والعمل في يد الله الأمينة ، وفي مشيئته التي لا يغفل عنها شيء ، وفي قدرته التي تضاعف أضعافا مضاعفة . . وتجده في الوقت الذي تكون في أحوج اللحظات إليه وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } . . أي لا تعتقد أن هناك شيئا يخفى على الله ، أو أن أحدا يستطيع أن يخدع الله؛ فالله سبحانه وتعالى بصير بكل شيء . . ليس بالظاهر منك فقط . . ولكن بما تخفيه في نفسك ولا تطلع عليه أحدا من خلق الله ، إنه يعلم كل شيء واقرأ قوله سبحانه وتعالى : { رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَيْءٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء } [إبراهيم : 38]

وهكذا نطمئن إلى أن الله بصير بكل شيء ، وانظر إلى قوله جل جلاله : « تعملون » لتفهم أهمية العمل .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111)

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى كيف أن كل عمل في منهج الله له أجر ، وأجر باق وثابت ومضاعف عند الله ومحفوظ بقدرة الله سبحانه . . أراد أن يرد على ادعاءات اليهود والنصارى الذين يحاولون أن يثيروا اليأس في قلوب المؤمنين بالكذب والإحباط علهم ينصرفون عن الإسلام . . لذلك فقد أبلغنا الله سبحانه بما افتروه .

واقرأ قوله تعالى : { وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى } . . وفي هذه الآية الكريمة يظهر التناقض بين أقوال اليهود والنصارى . . ولقد أوردنا كيف أن اليهود قد قالوا { لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً } . . وقالت النصارى : « لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا » .

. والله سبحانه وتعالى يفضح التناقض في آية ستأتي في قوله تبارك وتعالى : { وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَيْءٍ وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ اليهود على شَيْءٍ } [البقرة : 113] ومعنى ذلك أنهم تناقضوا في أقوالهم ، فقالت النصارى : إنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقالت اليهود القول نفسه . ثم قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا . . ثم قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

ويقول الناس إذا كنت كذوبا فكن ذكورا؛ ذلك أن الذي يكذب تتناقض أقواله لأنه ينسى مادام قد قال غير الحقيقة ، ولذلك تجد أن المحقق أو القاضي يظل يسأل المتهم أسئلة مختلفة . . حتى تتناقض أقواله فيعرف أنه يكذب . . فأنت إذا رويت الواقعة كما حدثت فإنك ترويها مائة مرة دون أي خلاف في التفاصيل . ولكنك إذا كذبت تتناقض مع نفسك . . والله سبحانه وتعالى يقول : { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } . . ما هي الأماني؟ . . هي أن تعلق نفسك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يوصلك إلى تحقيق هذه الأمنية . . ولكن إذا كان التمني قائما على عمل يوصلك إلى تحقيق الأمنية فهذا شيء آخر .

بعض الناس يقول التمني وإن لم يتحقق فإنه يروح عن النفس . . فقد ترتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب وتعيش أياما في نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية . . نقول إن الصدمة التي ستلحق بالإنسان بعد ذلك ستدمره . . ولذلك لا يكون في الكذب أبدا راحة . . فأحلام اليقظة لا تتحقق لأنها لا تقوم على أرضية من الواقع وهي لا تعطي الإنسان إلا نوعا من بعد عن الحقيقة . . ولذلك يقول الشاعر :

مُنَى إِنْ تَكُنْ حقاً تَكُنْ أَحْسَنَ الْمنَى ... وَإِلاّ فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْدَا

يعني الأماني لو كانت حقيقة أو تستند إلى الحقيقة فإنها أحسن الأماني لأنها تعيش معك . . فإن لم تكن حقيقة يقول الشاعر :

فقد عشنا بها زمنا رغدا ... أماني من ليلى حسان كأنما

سقتنا بها ليلى على ظمأ بردا ...

وقوله تعالى : { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } تبين لنا أن الأماني هي مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق . . والحق سبحانه يقول : { قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ } . . وما هو البرهان؟ . . البرهان هو الدليل . . ولا تطلب البرهان إلا من إنسان وقعت معه في جدال واختلفت وجهات النظر بينك وبينه . . ولا تطلب البرهان إلا إذا كنت متأكداً أن محدثك كاذب . . وأنه لن يجد الدليل على ما يدعيه .

هب أن شخصا ادعى أن عليك مالا له . . وطلب منك أن تعيده إليه وأنت لم تأخذ منه مالا . . في هذه الحالة تطلب منه تقديم الدليل . . (فالكمبيالة) التي كتبتها له أو الشيك أو إيصال الأمانة . . وأضعف الإيمان أن تطلب منه شهودا على أنك أخذت منه المال . . ولكن قبل أن

تطالبه بالدليل . . يجب أن تكون واثقا من نفسك وأنه فعلا يكذب وأنك لم تأخذ منه شيئا .
إذن فقوله الحق سبحانه : { هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ } . . كلام من الله يؤكد أنهم كاذبون . . وأنهم لو أرادوا أن يأتوا بالدليل . . فلن يجدوا في كتب الله ولا في كلام رسله ما يؤكد ما يدعونه ، وإن أضافوه يكن هذا افتراء على الله ويكن هناك الدليل الدامغ على أن هذا ليس من كلام الله ولكنه من افتراءاتهم .
إذن فليس هناك برهان على ما يقولونه . . ولو كان هناك برهان ولو كان في هذا الكلام ولو جزءا من الحقيقة . . ما كان الله سبحانه وتعالى يطالبهم بالدليل .
إذن لا تقول هاتوا برهانكم إلا إذا كنت واثقا أنه لا برهان على ما يقولون؛ لأنك رددت الأمر إليه فيما يدعيه . . وهو يحب أن يثبته ويفعل كل شيء في سبيل الحصول على برهان . . ولا يمكن أن يقول الله : { هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ } . . إلا وهو سبحانه يعلم أنهم يكذبون . . ولذلك قال : { إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } . . أي إن كنتم واثقين من أن ما تقولونه صحيح؛ لأن الله يعرف يقينا أنكم تكذبون .

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)

بعد أن بين لنا الله تبارك وتعالى كذب اليهود وطالبهم بالدليل على ما قالوه من أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى جاء بحقيقة القضية ليخبرنا جل جلاله من الذي سيدخل الجنة . .
فقال : « بلى » . . وعندما تقرأ : « بلى » اعلم أنها حرف جواب ولابد أن يسبقها كلام ونفي . . فساعة يقول لك إنسان ليس لي عليك دين . . إذا قلت له نعم فقد صدقت أنه ليس عليه دين . . ولكن إذا قلت بلى فذلك يعني أن عليه دينا وأنه كاذب فيما قاله . . إذن بلى تأتي جوابا لتثبيت نفي ما تقدم .
هم قالوا { لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى } . . عندما يقول الله لهم بلى فمعنى ذلك أن هذا الكلام غير صحيح . . وأنه سيدخلها غير هؤلاء . . وليس معنى أنه سيدخلها غير اليهود والنصارى . . أن كل يهودي وكل نصراني سيدخل الجنة . . لأن الله سبحانه وتعالى قد حكم حينما جاء الإسلام بأن الذي لا يسلم لا يدخل الجنة . . واقرأ قوله جل جلاله : { وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين } [آل عمران : 85]
لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى . . أنه لن يدخلها اليهود ولا النصارى . . لأن القرآن أزلي . . ما معنى أزلي؟ . . أي أنه يعالج القضايا منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة . . فالقرآن كلام الله تبارك وتعالى . . فلو أنه قال لن يدخل الجنة إلا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لكان في هذا تجاوزٌ . . لأن هناك من آمن بموسى وقت رسالته وعاصره واتبعه وحسن دينه ومات قبل أن يدرك محمدا عليه الصلاة والسلام . . فهل هذا لا يدخل الجنة ويجازى بحسن عمله . . وهناك

من النصارى من آمن بعيسى وقت حياته . . وعاصره ونفذ تعاليمه ومنهجه ثم مات قبل أن يُبْعَثَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام . . أهذا لن يدخل الجنة؟ . . لا . . يدخل وتكون منزلته حسب عمله ويجازى بأحسن الجزاء . . ولكن بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وجاء الإسلام ونزل القرآن ، فكل من لم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة . . بل ولن يراها . . ولذلك جاء كلام الله دقيقا لم يظلم أحدا من خلقه .

إذن فقوله تعالى : { بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ } . . أي لا يدخل الجنة إلا من أسلم وجهه لله وهو محسن . . فقد يسلم واحد وجهه لله ويكون منافقا يظهر غير ما يبطن . . نقول إن المنافقين لم يكونوا محسنين ولكنهم كانوا مسيئين .

. لأن لهم شخصيتين شخصية مؤمنة أمام الناس وشخصية كافرة في الحقيقة أو في قلوبهم .

قوله تعالى : { مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ } تدلنا على أن كل شيء أسلم لله لأن الوجه هو أشرف شيء في الإنسان . . فيه التمييز وفيه السمة وفيه التشخص وهو أعلى ما في الجسم . . وحينما عرفوا الإنسان قالوا حيوان ناطق أي حيوان مفكر . . وقال بعضهم حيوان مستوي القامة يعني قامته مرفوعة . . والقامة المرفوعة على بقية الجسم هي الوجه . . والإنسان مرفوع على بقية أجناس الأرض . . إذن هو مرفوع على بقية الأجناس ووجهه مرفوع عليه . . فإذا أسلم وجهه لله يكون قد أسلم أشرف شيء فيه لله . . ولذلك قيل . . أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد . . لماذا؟ . . لأنه جاء بالوجه الذي رفعه الله به وكرمه . . وجعله مساويا لقدميه ليستوي أكمل شيء فيه بأدنى شيء . . فلم يبقى عنده شيء يختال به على الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : { فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ } . . كلمة { أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ } . . دلت على أن الله لم يجعلنا مقهورين . . ولكنه كلفنا وجعلنا مختارين أن نفعل أو لا نفعل . . فإن فعلنا فلنا أجر . . ولأن التكليف من الله سبحانه وتعالى فالمنطقي أن يكون الأجر عند الله . . وألا يوجد خوف أو حزن . . لأن الخوف يكون من شيء سيقع . . والحزن يأتي على شيء قد وقع . . ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرنا عند الله .

إن الإنسان حين يكون له حق عند مساويه . . فربما يخاف أن ينكر المساوي هذا الحق أو يطمع فيه ، أو يحتاج إليه فيدعي عدم أحقيته فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى غني عن العالمين . .

ولذلك فهو لا يطمع فيما في أيدينا من خير لأنه من عنده . . ولا يطمع فيما معنا من مال لأن عنده خزائن السموات والأرض .

الله سبحانه لا ينكر حقا من حقوقنا لأنه يعطينا من فضله ويزيدنا . . ولذلك فإن ما عند الله لا خوف عليه بل هو يضاعَف ويزداد . . وما عند الله لا حزن عليه . . لأن الإنسان يحزن إذا فاته خير . . ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا تفوته . . فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى

تحزن عليه لأنه فات . . ولذلك كان قول الحق سبحانه وتعالى : { وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } . . أدق ما يمكن أن يقال عن حالة المؤمنين في الآخرة . . أنهم يكونون فرحين بما عند الله لا خوف عندهم ولا حزن .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)

نقول إن أصدق ما قاله اليهود والنصارى . . هو أن كل طائفة منهم اتهمت الأخرى بأنها ليست على شيء . . فقال اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء . . والعجيب إن الطائفتين أهل كتاب . . اليهود أهل كتاب والنصارى أهل كتاب . . ومع ذلك كل منهما يتهم الآخر بأنه لا إيمان له وبذلك تساوى مع المشركين .

الذين يقولون إن أهل الكتاب ليسوا على شيء . . أي أن المشركين يقولون اليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . واليهود يقولون المشركون ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { كَذَلِكَ قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ } . . وبذلك أصبح لدينا ثلاث طوائف يواجهون الدعوة الإسلامية . . طائفة لا تؤمن بمنهج سماوي ولا برسالة إلهية وهؤلاء هم المشركون . . وطائفتان لهم إيمان ورسل وكتب هم اليهود والنصارى . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { كَذَلِكَ قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ } . . أي الذين لا يعلمون دينا ولا يعلمون إلها ولا يعلمون أي شيء عن منهج السماء . . اتحدوا في القول مع اليهود والنصارى وأصبح قولهم واحدا .

وكان المفروض أن يتميز أهل الكتاب الذين لهم صلة بالسماء وكتب نزلت من الله ورسل جاءتهم للهداية . . كان من المفروض أن يتميزوا على المشركين . . ولكن تساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . وهذا معنى قوله تعالى : { كَذَلِكَ قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ } . . ومادامت الطوائف الثلاث قالوا على بعضهم نفس القول . . يكون حجم الخلاف بينهم كبيرا وليس صغيرا . . لأن كل واحد منهم يتهم الآخر أنه لا دين له .

هذا الخلاف الكبير من الذي يحكم فيه؟ لا يحكم فيه إلا الله . . فهو الذي يعلم كل شيء . . وهو سبحانه القادر على أن يفصل بينهم بالحق . . ومتى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم؟ أهو في الدنيا؟ لا . . فالدنيا دار اختبار وليست دار حساب ولا محاسبة ولا فصل في قضايا الإيمان . . ولذلك فإن الحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { فالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } . . ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطئ من المصيب فالطوائف الثلاث مخطئة . . والطوائف الثلاث في

إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان . . ويأتي الحكم يوم القيامة ليبين ذلك ويواجه المخالفين بالعذاب .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114)

فالحق جل جلاله بعد أن بين لنا موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم البعض ومن الإسلام ، وكيف أن هذه الطوائف الثلاث تواجه الإسلام بعداء ويواجه بعضها البعض باتهامات . . فكل طائفة منها تتهم الأخرى أنها على باطل . . أراد أن يحذرهم تبارك وتعالى من الحرب ضد الإسلام ومحاربة هذا الدين فقال : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ الله أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه } . . مساجد الله هي الأماكن التي يتم فيها السجود لله . . والسجود علامة الخضوع وعلامة العبودية كما بينا . . لأنك تضع أشرف شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعا لله وخشوعا له .

قبل الإسلام كان لا يمكن أن يصلي أتباع أي دين إلا في مكان خاص بدينهم . . مكان مخصص لا تجوز الصلاة إلا فيه . . ثم جاء الله بالإسلام فجعل الأرض كلها مسجدا وجعلها طهورا . . ومعنى أن تكون الأرض كلها مسجداً هو توسيع على عباد الله في مكان التقائهم بربهم وفي أماكن عبادتهم له حتى يمكن أن تلتقي بالله في أي مكان وفي أي زمان . . لأنه لا يحدد لك مكانا معينا لا تصح الصلاة إلا فيه . . وأنت إذا أردت أن تصلي ركعتين لله بخلاف الفرض . . مثل صلاة الشكر أو صلاة الاستخارة أو صلاة الخوف . . أو أي صلاة من السنن التي علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإنك تستطيع أن تؤديها في أي وقت . . فكأنك تلتقي بالله سبحانه أين ومتى تحب .

ومادام الله تبارك وتعالى أنعم على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بأن جعل لهم الأرض مسجدا طهورا فإنما يريد أن يوسع دائرة التقاء العباد بربهم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« أُعطيتُ خمسا لم يُعْطَهُن أحد من الأنبياء قبلي . نُصرْتُ بالرعب مسيرةَ شهر ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأُحِلَّتْ لِيَ الغنائمُ ولم تحل لأحد قبلي وأُعْطِيتُ الشفاعةَ وكان النبي يُبْعَثُ إلى قومه خاصة وَبُعِثْتُ إلى الناسِ عامة »

ولكن لماذا خص الله أمة محمد بهذه النعمة؟ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتقاءات العقل وطموحات الدنيا . . كلما ارتقى العقل في علوم الدنيا كشف قوانين وتغلب على عقبات . . وجاء بمبتكرات ومخترعات تفتن عقول الناس . . وتجذبهم بعيدا عن الدين فيعبدون الأسباب بدلا من خالق الأسباب .

يريد الحق تبارك وتعالى أن يجعل عبادتهم له ميسرة دائما حتى يعصمهم من هذه الفتنة . . وهو جل جلاله يريدنا حين نرى التليفزيون مثلا ينقل الأحداث من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن القمر إلى الأرض في نفس لحظة حدوثها .

. أن نسجد لله على نعمه التي كشف لنا عنها في أي مكان نكون فيه . . فخصائص الغلاف الجوي موجودة في الكون منذ خلق الله السموات والأرض . . لم يضعها أحد من خلق الله في كون الله هذه الأيام . . ولكنها خلقت مع خلق الكون . . وشاء الله ألا ندرك وجودها ونستخدمها إلا هذه الأيام . . فلابد أن نسجد لله شكرا على نعمه التي كشفت لنا أسرارا في الكون لم نكن نعرفها . . وهذه الأسرار تبين لنا دقة الخلق وتقربنا إلى قضايا الغيب .

فإذا قيل لنا أن يوم القيامة سيقف خلق الله جميعا وهم يشاهدون الحساب . . وإن كل واحد منهم سيرى الحساب لحظة حدوثه . . لا نتعجب ونقول هذا مستحيل . . لأن أحداث العالم الهامة نراها الآن كلها لحظة حدوثها ونحن في منتهى الراحة . . ونحن جالسون في منازلنا أمام التليفزيون . . أي أننا نراها جميعا في وقت واحد دون جهد . . فإذا كانت هذه هي قدرات البشر للبشر . . فكيف بقدرات خالق البشر للبشر؟ .

عندما نرى أسرار قوانين الله في كونه . . لابد أن نسجد لعظمة الخالق سبحانه وتعالى ، الذي وضع كل هذا العلم والإعجاز في الكون . . وهذا السجود يقتضي أن تكون الأرض كلها مساجد حتى يمكنك وأنت في مكانك أن تسجد لله شكرا . . ولا تضطر للذهاب إلى مكان آخر قد يكون بعيدا أو الطريق إليه شاقا فينسيك هذا شكر الله والسجود له . . فالله سبحانه وتعالى شاء أن يوسع على المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم دائرة الالتقاء بربهم؛ لأن هناك أشياء ستأتي الرسالة المحمدية في موعد كشفها لخلق الله . . وكلما انكشف سر من أسرار الوجود إغتر الإنسان بنفسه . . ومادام الغرور قد دخل إلى النفس البشرية . . فلابد أن يجعل الله في الكون ما يعدل هذا الغرور .

لقد كانت الأمور عكس ذلك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . . كانت الأمور فطرية فإذا امتنعت الأمطار ونضبت العيون والآبار . . لم يكن أمامهم إلا أن يتوجهوا إلى السماء بصلاة الاستسقاء . . وكذلك في كل أمر يصعب عليهم مواجهته . . ولكن الآن بعد أن كشف الله لخلقه عن بعض أسراره في كونه . . أصبحت هناك أكثر من وسيلة يواجه بها الإنسان عددا من أزمات الكون . . هذه الوسائل قد جعلت البشر يعتقدون أنهم قادرون على حل مشكلاتهم . . بعيدا عن الله سبحانه وتعالى وبجهودهم الخاصة . . فبدأ الاعتماد على الخلق بدلا من الإعتماد على الحق . . ولذلك نزل قول الحق سبحانه وتعالى : { الله نُورُ السماوات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ

لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه }

[النور : 35-36]

ما هي هذه البيوت التي يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى؟ هي المساجد . . فَعُمَّارُ المساجد وزوارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يرون نور الله . . فإذا أتى قوم يجترئون عليها ويمنعون أن يذكر اسم الله فيها . . فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاء الإيمان ضعفاء الدين تجرأ عليهم أعداؤهم . . لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله في مساجد الله . . أو أن يسعى إلى خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة . . ولكن ساعة يوجد من يخرب بيتا من بيوت الله . . يهب الناس لمنعه والضرب على يده يكون الإيمان قويا . . فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم . . لماذا؟ لأن الكافر الذي يريد أن يطفئ مكان إشعاع نور الله لخلقه . . يعيش في حركة الشر في الوجود التي تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يمنعوا ذكر اسم الله في بيته وأن يخربوه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { أولئك مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ } . . أي أن هؤلاء الكفار ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه . . فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين . . فمعنى ذلك أن وازع الإيمان في نفوس المؤمنين قد ضعف .

قوله تعالى : { وَمَنْ أَظْلَمُ } . . معناه أنه لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه . . أي أن هذا هو الظلم العظيم . . ظلم القمة . . وقوله تعالى : { وسعى فِي خَرَابِهَآ } . . أي في إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة . . والسعي في خراب المسجد هو هدمه .

ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقولة : { لَّهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ } . . أي لن يتركهم الله في الدنيا ولا في الآخرة . . بل يصيبهم في الدنيا خزي . . والخزي هو الشيء القبيح الذي تكره أن يراك عليه الناس . . قوله تعالى : { لَّهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ } . . هذا مظهر غيرة الله على بيوته . . وانظر إلى ما أذاقهم الله في الدنيا بالنسبة ليهود المدينة الذين كانوا يسعون في خراب مساجد الله . . لقد أخذت أموالهم وطردوا من ديارهم . . هذا حدث . . وهذا معنى قوله تعالى الخزي في الدنيا . . أما في الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون حسابا عسيرا لتطاولهم على مساجد الله سبحانه ، ولكن في الوقت نفسه فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتخاذلوا عن نصرة دين الله والدفاع عن بيوت الله . . سيكون لهم أيضا عذاب أليم .

إنني أحذر كل مؤمن أن يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله في

مساجده . . لأنه في هذه الحالة يكون مرتكبا لذنبهم نفسه وربما أكثر . . ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار .

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الذين يخربون مساجد الله ويهدمونها . . ويمنعون أن يذكر فيها اسمه والعذاب الذي ينتظرهم في الآخرة أراد أن يذكرنا بأن تنفيذ هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة لأن الأرض كلها مساجد . . وتخريبها معناه أن تخرب الأرض كلها . . لأن الله تبارك وتعالى موجود في كل مكان فأينما كنتم فستجدون الله مقبلا عليكم بالتجليات . وقوله تعالى : { فَثَمَّ وَجْهُ الله } . . أي هناك وجه الله . . وقوله تعالى : { الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } . . أي لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم؛ لأن الله واسع موجود في كل مكان في هذا الكون وفي كل مكان خارج هذا الكون . . ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى : { وَلِلَّهِ المشرق والمغرب } لا يعني تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط . . ولكنه يتعداها إلى كل الجهات شرقها وغربها . . شمالها وجنوبها والشمال الشرقي والجنوب الغربي وكل جهة تفكر فيها .

ولكن لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط؟ لأن بعد ذلك كل الجهات تحدد بشروق الشمس وغروبها . . فهناك شمال شرقي وجنوب شرقي وشمال غربي وجنوب غربي . . كما إن الشرق والغرب معروف بالفطرة عند الناس . . فلا أحد يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلى أين تغرب . فأنت كل يوم ترى شروقا وترى غروبا .

الله سبحانه وتعالى حين يقول : { وَلِلَّهِ المشرق والمغرب } فليس معناها حصر الملكية لهاتين الجهتين ولكنه ما يعرف بالاختصاص بالتقديم . . كما تقول بالقلم كتبت وبالسيارة أتيت . . أي أن الكتابة هي خصوص القلم والإتيان خصوص السيارة . . وهذا ما يعرف بالاختصاص . . فهذا مختص بكذا وليس لغيره شيء فيه . . ولذلك فإن معنى : { وَلِلَّهِ المشرق والمغرب } . . أن الملكية لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد . . وتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس معناه أن الله تبارك وتعالى في بيت المقدس والاتجاه بعد ذلك إلى الكعبة ليس معناه أن الله جل جلاله في الكعبة .

إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد في الصلاة . . وذلك دليل على وحدة الهدف . . فيجب أن تفرق بين اتجاه في الصلاة واتجاه في غير الصلاة . . اتجاه في الصلاة نكون جميعا متجهين إلى مكان محدد إختاره الله لنا لنتجه إليه في الصلاة . . والناس تصلي في جميع أنحاء العالم متجهة إلى الكعبة . . الكعبة مكانها واحد لا يتغير . . ولكن اتجاهنا إليها من بقاع الأرض هو الذي يتغير . . فواحد يتجه شمالا وواحد يتجه جنوبا وواحد يتجه شرقا وواحد يتجه غربا . . كل منا يتجه اتجاها مختلفا حسب البقعة التي يوجد عليها من الأرض .

. ولكننا جميعا نتجه إلى الكعبة رغم اختلاف وجهاتنا إلا أننا نلتقي في اتجاهنا إلى مكان واحد .
الله جل جلاله يريدنا أن نعرف أننا إذا قلنا : « ولله المشرقُ » فلا نظن أن المشرق إتجاه واحد بل إن المشرق يختلف باختلاف المكان . . فكل مكان في الأرض له مشرق وله مغرب . . فإذا أشرقت الشمس في مكان فإنها في نفس الوقت تغرب في مكان آخر . . تشرق عندي وتغرب عند غيري . . وبعد دقيقة تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين . . فإذا نظرت إلى الشرق وإلى الغرب بالنسبة لشروق الشمس الظاهري وغروبها . . تجد أن المشرق والمغرب لا ينتهيان من على سطح الأرض . . في كل دقيقة شروق وغروب .
وقوله تعالى : { إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } . . أي يتسع لكل ملكه لا يشغله شيء عن شيء . .
ولذلك عندما سئل الإمام علي كرم الله وجهه . . كيف يحاسب الله الناس جميعا في وقت واحد؟ قال كما يرزقهم جميعا في وقت واحد . .
إذن فالله لا يشغله شيء عن شيء . . ولا يحتاج في عمله إلى شيء . . إنما عمله « كن فيكون » .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن له كل شيء في الكون لا يشغله شيء عن شيء . . أراد أن يرد على الذين حاولوا أن يجعلوا لله معينا في ملكه . . الذين قالوا اتخذ الله ولداً . . الله تبارك وتعالى رد عليهم أنه لماذا يتخذ ولدا وله ما في السموات والأرض كل له قانتون . . وجاء الرد مركزا في ثلاث نقاط . . قوله تعالى : « سبحانه » أي تنزه وتعالى أن يكون له ولد . . وقوله تعالى : { لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض } . . فإذا كان هذا ملكه وإذا كان الكون كله من خلقه وخاضعا له فما حاجته للولد؟
وقوله سبحانه : {كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ } . . أي كل من في السموات والأرض عابدون لله جل جلاله مقرون بألوهيته .
قضية إن لله سبحانه وتعالى ولداً جاءت في القرآن الكريم تسع عشرة مرة ومعها الرد عليها . . ولأنها قضية في قمة العقيدة فقد تكررت وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى . . وإذا نظرت للذين قالوا ذلك تجد أن هناك أقوالا متعددة . . هناك قول قاله المشركون . . واقرأ القرآن الكريم : { أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى البنات على البنين } [الصافات : 151-153]
وقول اليهود كما يروي لنا القرآن : { وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله } [التوبة : 30]
وقول النصارى : { وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله } [التوبة : 30]
ثم في قصة خلق عيسى عليه السلام من مريم بدون رجل . . الله سبحانه وتعالى يقول : { وَقَالُواْ

اتخذ الرحمن وَلَداً * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً } [مريم : 88-93]

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا إدعاء خطير مستقبح مستنكر وممقوت . . لقد عالجت سورة مريم المسألة علاجا واسعا . . علاجا اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان . . انفعال السموات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التي تلعن كل من قال ذلك . . بل وتكاد شعورا منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء أي تسقط قطعا صغيرة . . وتنشق الأرض أي تتمزق . . وتخر الجبال أي تسقط كتراب . . كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل . . لأن هذا الادعاء افتراء على الله . ولقد جاءت كل هذه الآيات في سورة مريم التي أعطتنا معجزة خلق عيسى . . كما وردت القضية في عدة سور أخرى .

والسؤال هنا ما هي الشبهة التي جعلتهم يقولون ولد الله؟ ما الذي جعلهم يلجأون إلى هذا الافتراء؟ القرآن يقول عن عيسى بن مريم .

. كلمة الله ألقاها إلى مريم . . نقول لهم كلنا كلمة « كن » .

لماذا فتنتم في عيسى ابن مريم هذه الفتنة؟ والله سبحانه وتعالى يشرح المسألة فيقول : { إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [آل عمران : 59]

قوله كمثل آدم لمجرد مجاراة الخصم . . ولكن المعجزة في آدم أقوى منها في عيسى عليه السلام . . أنتم فتنتم في عيسى لأن عنصر الأبوة ممتنع . . وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة . . إذن فالمعجزة أقوى . . وكان الأولى أن تفتنوا بآدم بدل أن تفتنوا بعيسى . . ومن العجيب أنكم لم تذكروا الفتنة في آدم وذكرتم الفتنة فيما فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين في آدم . . وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ولكنكم لم تفعلوا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال له الله إن القضية ليست قضية إنكار ولكنها قضية كاذبة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى : { قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين } [الزخرف : 81]

أي لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد . . ولكنه جل جلاله لم يتخذ ولدا . . فلا يمكن أن يعبد الناس شيئا لم يكن لله . . وإنما ابتدعوه واختلقوه . .

الله جل جلاله يقول : { وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض } . . قوله تعالى : { بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض } تعطي الله سبحانه وتعالى الملكية لكل ما في الكون . . والملكية تنافي الولدية . . لماذا؟ لأن الملكية معناها أن كل ما في الكون من خلق الله . . كل شيء هو خالقه بدون معارض . . ومادام هو خالقه وموجده . . فلا يمكن أن يكون هذا الشيء

جزءا منه . . لأن الذي يخلق شيئا يكون فاعلا . . والفاعل له مفعول . . والمفعول لا يكون منه أبدا . . هل رأيت واحدا صنع صنعة منه؟ الذي يصنع سيارة مثلا . . هل صنعها من لحمه أو من لحم البشر؟ وكذلك الطائرة والكرسي والساعة والتليفزيون . . هل هذه المصنوعات من جنس الذي صنعها؟ طبعا لا .

إذن مادام ملكية . . فلا يقال إنها من نفس جنس صانعها . . ولا يقال إن الفاعل أوجد من جنسه . . لأن الفاعل لا يوجد من جنسه أبدا . . كل فاعل يوجد شيئا أقل منه . . فقول الله : « سبحانه » . . أي تنزيه له تبارك وتعالى . . لماذا؟ لأن الولد يتخذ لاستبقاء حياة والده التي لا يضمنها له واقع الكون . . فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه . . إذن هو من أجل بقاء نوعه . . والذي يريد بقاء النوع لا يكفيه أن يكون له ولد واحد .

لو فرضنا جدلا إن له ولداً واحداً فالمفروض أن هذا الولد يكون له . . ولكننا لم نر أولادا لمن زعموا أنه ابن الله . . وعندما وقبلما يوجد الولد ماذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل وهو بدون ولد؟ وماذا استجد على الله وعلى كونه بعد أن اتخذ ولدا كما يزعمون . . لم يتغير شيء في الوجود . . إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهرا من مظاهر القوة . . لأن الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء .

إذن فما سبب اتخاذ الولد؟ معونة؟ الله لا تضعف قوته . . ضمان للحياة؟ الله حياته أزليه . . هو الذي خلق الحياة وهو الذي يهبها وهو حي لا يموت . . فما هي حاجته لأي ضمان للحياة؟ الحق سبحانه وتعالى تنفعل له الأشياء . . أي أنه قادر على إبراز الشيء بمقتضى حكمه . . وهو جل جلاله له كمال الصفات أزلا . . وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده . . لذلك فهو ليس في حاجة إلى أحد من خلقه . . لأنه ساعة خلق كانت له كل صفات القدرة على الخلق . . بل قبل أن يخلق كانت له كل صفات الخالق وبهذه الصفات خلق . . والله سبحانه وتعالى كان خالقا قبل أن يخلق أحدا من خلقه . . وكان رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه . . وكان قهارا قبل أن يوجد من يقهره . . وكان توابا قبل أن يوجد من يتوب عليه . . وبهذه الصفات أوجد وخلق ورزق وقهر وتاب على خلقه .

إذن كل هذا الكون لم يضف صفة من صفات الكمال إلى الله . . بل إن الله بكمال صفاته هو الذي أوجد . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي : « يا عبادي لَوْ أَنَّ أولَكُم وَآخِرَكُم وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صعيدٍ واحدٍ ، فسألوني ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسان مَسْألته ما نقص ذلك مِنْ ملكي شيئا إلا كما يَنْقُصُ المخِيطُ إذا غُمس في البحر . . »

ثم إذا كان لله سبحانه وتعالى زوجة وولد . . فمن الذي وجد أولا؟ . . إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وجد أولا . . ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق وهما مخلوقان . . وإن كان

كل منهم قد أوجد نفسه فهم ثلاثة آلهة وليسوا إلها واحدا . . إذن فالولد إما أن يكون مخلوقا أو يكون إلها . . والكمال الأول لله لم يزده الولد شيئا . . ومن هنا يصبح وجوده لا قيمة له . .

وحين يعرض الحق تبارك وتعالى هذه القضية يعرضها عرضا واسعا في كثير من سور القرآن الكريم وأولها سورة مريم في قوله تعالى : { وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً } [مريم : 88]

إنه سبحانه منزه عن التماثل مع خلقه . . لا بالذات ولا بالصفات ولا بالأفعال . . كل شيء تراه في الوجود . . الله منزه عنه . . وكل شيء يخطر على بالك فالله غير ذلك . . قوله تعالى : { لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض } . . فتلك قضية تناقض اتخاذ الولد لأن كل ما في السموات والأرض خاضع لله . .

قوله تعالى؛ { كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ } . . أي خاضعون ، وهذا يؤكد لنا أن كون الله في قبضة الله خاضع مستجيب اختيارا أو قهرا لأمر الله .

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)

بعد أن بين الله تبارك وتعالى . . أن قولهم اتخذ الله ولدا هو افتراء على الله . . أراد الحق أن يلفتنا إلى بعض من قدراته . . فقال جل جلاله : { بَدِيعُ السماوات والأرض } . . أي خلق السموات والأرض وكل ما فيها من خلق على غير مثال سابق . . أي لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جن أو إنسان . . ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد متشابها لهم في شكل أو حجم أو قدرة . . أي أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نسميه نحن بالقالب .

إن الذي يصنع كوب الماء يصنع أولا قالبا يصب فيه خام الزجاج المنصهر . . فتخرج في النهاية أكواب متشابهة . . وكل صناعة لغير الله تتم على أساس صنع القالب أولا ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج . . ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هي في إعداد القالب الجيد الذي يعطينا صورة لما نريد . . والذي يخبز رغيفا مثلا قد لا يستخدم قالبا ولكنه يقلد شيئا سبق . . فشكل الرغيف وخامته سبق أن تم وهو يقوم بتقليدهما في كل مرة . . ولكنه لا يستطيع أن يعطي التماثل في الميزان أو الشكل أو الاستدارة . . بل هناك اختلاف في التقليد ولا يوجد كمال في الصناعة .

وحين خلق الله جل جلاله الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة . . جعل الخلق متشابهين في كل شيء . . في تكوين الجسم وفي شكله في الرأس والقدمين واليدين والعينين . . وغير ذلك من أعضاء الجسم . . تماثلا دقيقا في الشكل وفي الوظائف . . بحيث يؤدي كل عضو مهمته في الحياة . . ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة كن . . ورغم التشابه في الخلق فكل منا مختلف عن الآخر اختلافا يجعلك قادرا على تمييزه بالعلم والعين . . فبالعلم كل منا له بصمة أصبع وبصمة صوت يمكن أن يميزها خبراء التسجيل . . وبصمة رائحة قد لا نميزها نحن ولكن تميزها الكلاب المدربة . . فتشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر

. . وبصمة شفرة تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا . . فإن جئت بخلية من جسد آخر لفظها . وإن جئت بخلية من الجسد نفسه اتحد معها وعالج جراحها .

وإذا كان هذا بعض ما وصل إليه العلم . . فإن هناك الكثير مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص . . فإن لكل واحد ما يميزه وحده ولا يتكرر مع خلق الله كلهم . . وهذا هو الإعجاز في الخلق ودليل على طلاقة قدرة الله في كونه .

والله سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام في القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدث مصادفة ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو معد بقدرة الله سبحانه .

. فيقول جل جلاله : { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ } [الروم : 22]

هذا الاختلاف يمثل لنا طلاقة قدرة الله سبحانه في الخلق على غير مثال . . فكل مخلوق يختلف عمن قبله وعمن بعده وعمن حوله . . مع أنهم في الشكل العام متماثلون . . ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلى يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة . . وكل واحد منهم مختلف عن الآخر . . فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر . . هذه دقة الصنع وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « بديع » . . والدقة تعطي الحكمة . . والإبراز في صور متعددة يعطي القدرة . . ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا في التراب يجمعنا الله يوم القيامة . .

والإعجاز في هذا الجمع هو أن كل إنسان سيبعث من عناصره نفسها وصورته نفسها وهيئته نفسها التي كان عليها في الدنيا . ولذلك قال الحق سبحانه : { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ } [ق : 4]

إذن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته في الإيجاد قد خلقنا . . وبطلاقة قدرته في إعادة الخلق يحيينا بعد الموت . . بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرة فينا . . هل هناك دقة بعد ذلك؟ .

لو أننا أتينا بأدق الصناع وأمهرهم وقلنا له : اصنع لنا شيئا تجيده . فلما صنعه قلنا له : اصنع مثله . إنه لا يمكن أن يصنع نموذجا مثله بالمواصفات نفسها؛ لأنه يفتقد المقاييس الدقيقة التي تمده بالمواصفات نفسها التي صنعها . إنه يستطيع أن يعطينا نموذجا متشابها ولكن ليس مثل ما صنع تماما . لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة القيامة أو ساعة بعثهم يعيدهم بمكوناتهم نفسها التي كانوا عليها دون زيادة أو نقص . وذلك لأنه الله جل جلاله لا يخلق وفق قوالب معينة ، وإنما يقول للشيء : كن فيكون .

تقول الآية الكريمة : { بَدِيعُ السماوات والأرض وَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } .

« وكن » وردت كثيرا في القرآن الكريم . . وفي اللغة شيء يسمى المشترك . . اللفظ يكون واحدا ومعانيه تختلف حسب السياق . . فمثلا كلمة قضى لها معاني متعددة ولها معنى يجمع كل

معانيها . . مرة يأتي بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى . . في قوله تعالى : { فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فاذكروا الله كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً } [البقرة : 200]

ومعناها إذا انتهيتم من مناسك الحج . . ومرة يقول سبحانه : { فاقض مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحياة الدنيآ } [طه : 72]

والمعنى إفعل ما تريد . . وفي آية أخرى يقول الله تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ }

[الأحزاب : 36]

والمعنى هنا أنه إذا قال الله شيئا لا يترك للمؤمنين حق الاختيار . . ومرة يصور الله جل جلاله الكفار في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت .

واقرأ قوله سبحانه : { وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ } [الزخرف : 77] لِيَقْضِ علينا هنا معناها يميتنا . . ومعنى آخر في قوله تعالى : { وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر } [إبراهيم : 22]

أي لما انتهى الأمر ووقع الجزاء . . وفي موقع آخر قوله سبحانه : { فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [القصص : 29]

قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل وفي قوله تعالى : { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [يونس : 54]

أي حكم وفصل بينهم . . وقوله جل جلاله : { وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ } [الإسراء : 4]

بمعنى أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم . . إذن « قضى » لها معان متعددة يحددها السياق . . ولكن هناك معنى تلتقي فيه كل المعاني . . وهو قضى أي حكم وهذا هو المعنى الأم .

إذن معنى قوله تعالى : { إِذَا قضى أَمْراً } . . أي إذا حكم بحكم فإنه يكون . . على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق : { وَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ } . . معنى يقول له أن الأمر موجود عنده . . موجود في علمه . . ولكنه لم يصل إلى علمنا . . أي أنه ليس أمرا جديدا . . لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال : « يقول له » . . كأنه جل جلاله يخاطب موجودا . . ولكن هذا الموجود ليس في علمنا ولا نعلم عنه شيئا . . وإنما هو موجود في علم الله سبحانه وتعالى . . ولذلك قيل أن لله أموراً يبديها ولا يبتديها . . إنها موجودة عنده لأن الأقلام رُفِعَتْ ، والصحف جفت . . ولكنه يبديها لنا نحن الذين لا نعلمها فنعلمها .

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118)

الحق سبحانه وتعالى حين قال : { الذين لاَ يَعْلَمُونَ } . . أي لا يعلمون عن كتاب الله شيئا لأنهم كفار . . وهؤلاء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله . . ومعنى أن يكلمهم الله أن يسمعوا كلاما من الله سبحانه . . كما سمع موسى كلام الله .

وماذا كانوا يريدون من كلام الله تبارك وتعالى . . أكانوا يريدون أن يقول لهم الله إنه أرسل محمداً رسولا ليبلغهم بمنهج السماء . . وكأن كل المعجزات التي أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسها القرآن الكريم لم تكن كافية لإقناعهم . . مع أن القرآن كلام معجز وقد أتى به رسول أمي . . سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل . . جاء القرآن ليتحدى في أحداث المستقبل وفي أسرار النفس البشرية . . وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذبوا بها وطلبوا آية أخرى . . والله سبحانه وتعالى قد أبلغنا أنه لا يمكن لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة . . واقرأ قوله سبحانه : { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ } [الشورى : 51]

إذن فالبشر حتى المصطفى من الله والمؤهل للتلقي عن الله . . لا يكلمه الله إلا وحيا أو إلهامَ خاطرٍ أو من وراء حجاب كما كلم موسى . . أو يرسل رسولا مبلغا للناس لمنهج الله . . أما الاتصال المباشر فهو أمر تمنعه بشرية الخلق .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { أَوْ تَأْتِينَآ آيَةٌ } . . والآيات التي يطلبها الكفار ويأتي بها الله سبحانه وتعالى ويحققها لهم . . لا يؤمنون بها بل يزدادون كفرا وعنادا . . والله جل جلاله يقول : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا } [الإسراء : 59]

إذن فالآيات التي يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون . . ولكن يزدادون كفرا حتى ولو علموا يقينا أن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى كما حدث لآل فرعون . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين } [النمل : 13-14]

وهكذا فإن طلبهم أن يكلمهم الله أو تأتيهم آية كان من باب العناد والكفر . . والحق سبحانه يقول : { كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ } . . فبنو إسرائيل قالوا لموسى أرنا الله جهرة . . الذين لا يعلمون قالوا لولا يكلمنا الله . . ولكن الذين قالوا أرنا الله جهرة كانوا يعلمون لأنهم كانوا يؤمنون بالتوراة .

. فتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . لذلك قال الله تبارك وتعالى : { تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ } . . أي قلوب أولئك الذين كانوا خاضعين للمنهج والذين لا يخضعون لمنهج قد تشابهت

بمنطق واحد .

ولو أن الذين لا يعلمون قالوا ولم يقل الذين يعلمون لهان الأمر . . وقلنا جهلهم هو الذي أوحى إليهم بما قالوا . . ولكن ما عذر الذين علموا وعندهم كتاب أن يقولوا أرنا الله جهرة . . إذن فهناك شيء مشترك بينهم تشابهت قلوبهم في الهوى . . إن مصدر كل حركة سلوكية أو حركة جارحة إنما هو القلب الذي تصدر عنه دوافع الحركة . . ومادام القلب غير خالص لله فيستوى الذي يعلم والذي لا يعلم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { قَدْ بَيَّنَّا الآيات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } . . ما هو اليقين؟ هو استقرار القضية في القلب استقراراً لا يحتمل شكا ولا زلزلة . . ولا يمكن أن تخرج القضية مرة أخرى إلى العقل . . لتناقش من جديد لأنه أصبح يقينا . . واليقين يأتي من إخبار من تثق به وتصبح أخباره يقينا . . فإذا قال الله قال اليقين . . وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه حق . .

ولذلك من مصداقية الإيمان أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه . . عندما قيل له إن صاحبك يقول إنه صُعد به إلى السماء السابعة وذهب إلى بيت المقدس في ليلة واحدة . . قال إن كان قد قال فقد صدق .

إن اليقين عنده نشأ من إخبار من يثق فيه وهذا نسميه علم يقين . . وقد يرتقي الأمر ليصير عين يقين . . عندما ترى الشيء بعينك بعد أن حُدثت عن رؤية غيرك له . . ثم تدخل في حقيقة الشيء فيصبح حق يقين . . إذن اليقين علم إذا جاء عن إخبار من تثق به . . وعين يقين إذا كان الأمر قد شوهد مشاهدة العين . . وحق يقين هو أن تدخل في حقيقة الشيء . . والله سبحانه وتعالى يشرح هذا في قوله تعالى : { أَلْهَاكُمُ التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابر * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجحيم } [التكاثر : 1-6]

هذه هي المرحلة الأولى أن يأتينا علم اليقين من الله سبحانه وتعالى . . ثم تأتي المرحلة الثانية في قوله تبارك وتعالى : { ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين } [التكاثر : 7]

أي أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة . . هذا علم يقين وعين يقين . . يأتي بعد ذلك حق اليقين في قوله تعالى : { وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين } [الواقعة : 92-95]

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين . . إنه سيراها وهو يمر على الصراط . . ولكن الكافر هو الذي سيصلاها حقيقة يقين . . ولقد قال أهل الكتاب لأنبيائهم ما يوافق قول غير المؤمنين . . فاليهود قالوا لموسى : { لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً } . . والمسيحيون قالوا لعيسى : { هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء } قال : { اتقوا الله إِن كُنْتُم

مُؤْمِنِينَ } . . وهكذا شجع المؤمنون بالكتاب غير المؤمنين بأن يطلبوا رؤية الله ويطلبوا المعجزات المادية .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119)

هنا لابد أن نلتفت إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يخبرنا عن قضية من فعله . يأتي دائما بنون العظمة التي نسميها نون المتكلم . . ونلاحظ أن نون العظمة يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت . . فكأن العظمة في الإنسان سخرت المواهب المختلفة لتنفيذ القرار الذي يصدره رئيس الدولة . . فيشترك في تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار حرب . . تشترك مواهب متعددة من جماعات مختلفة تتكاتف لتنفيذ القرار . . والله تبارك وتعالى عنده الكمال المطلق . . كل ما هو لازم للتنفيذ من صفات الله سبحانه وتعالى . . فإذا تحدث الله جل جلاله عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى يقول « إنا » : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9]

ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد . . مثل قوله سبحانه : { إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ فاعبدني وَأَقِمِ الصلاة لذكري } [طه : 14]

ولا يقول فاعبدنا . . إذن ففي كل فعل يأتي الله سبحانه بنون العظمة . . وفي كل أمر يتعلق بالعبادة والتوحيد يأتي بالمفرد . . وذلك حتى نفهم أن الفعل من الله ليس وليد قدرته وحدها . . ولا علمه وحده ولا حكمته وحدها ولا رحمته وحدها . . وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

إن نون العظمة تأتي لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات في الله . . لأنك قد تقدر ولا تعلم . . وقد تعلم ولا تقدر ، وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن فتكامل الصفات مطلوب .

قوله تعالى : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بالحق } يعني بعثناك بالحق رسولا . . والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يتناقض . . فإذا رأيت حدثا أمامك ثم طلب منك أن تحكي ما رأيت رويت ما حدث . . فإذا طلب منك بعد فترة أن ترويه مرة أخرى فإنك ترويه بنفس التفاصيل . . أما إذا كنت تكذب فستتناقض في أقوالك . . ولذلك قيل إن كنت كذوبا فكن ذكورا .

إن الحق لا يتناقض ولا يتغير . . ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل بالحق . . فإنَّ عليه لأن يبلغه للناس وسيبقى الحق حقا إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : { بَشِيراً وَنَذِيراً } . . البشارة هي إخبار بشيء يسرك زمنه قادم . . والإنذار هو الإخبار بشيء يسوؤك زمنه قادم ربما استطعت أن تتلافاه . . بشير بماذا؟ ونذير بماذا؟ يبشر من

آمن بنعيم الجنة وينذر الكافر بعذاب النار . . والبشرى والإنذار يقتضيان منهجا يبلغ . . من آمن به كان بشارة له .

ومن لا يؤمن كان إنذارا له .

ثم يقول الحق جل جلاله : { وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجحيم } . . أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مسئولا عن الذين سيلقون بأنفسهم في النار والعذاب . إنه ليس مسئولا عن هداهم وإنما عليه البلاغ . . واقرأ قوله تبارك وتعالى : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6]

ويقول جل جلاله : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4]

فالله سبحانه وتعالى لو أرادنا أن نؤمن قسرا وقهرا . . ما استطاع واحد من الخلق أن يكفر . . ولكنه تبارك وتعالى يريد أن نأتيه بقلوب تحبه وليس بقلوب مقهورة على الإيمان . . إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختارين أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا . . وليس لرسول أن يرغم الناس على الإيمان بالقهر . . لأن الله لو أراد لقهر كل خلقه .

أما أصحاب الجحيم فهم أهل النار . والجحيم مأخوذة من الجموح . . وجمحت النار يعني اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جمحت النار . . أي أصبح لهيبها مضاعفا بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تخمد أبدا .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم . . أنه لا يجب أن ينشغل قلبه بالذين كفروا لأنه قد أنذرهم . . وهذا ما عليه ، وهذه مهمته التي كلفه الله بها .

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)

كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخل لؤم وكيد فيقولون هادنا ، أي قل لنا ما في كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك . . وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم . . أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطمعون أن تكون معهم . . فقال الله سبحانه : { وَلَنْ ترضى عَنكَ اليهود وَلاَ النصارى حتى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ } .

.

نلاحظ هنا تكرار النفي وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا النصارى . . ولو قال الحق تبارك وتعالى ، ولن ترضى عنك اليهود والنصارى بدون لا . . لكان معنى ذلك أنهم مجتمعون

على رضا واحد أو متفقون . . ولكنهم مختلفون بدليل أن الله تعالى قال : { وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَيْءٍ وَقَالَتِ النصارى لَيْسَتِ اليهود على شَيْءٍ } [البقرة : 113]
إذن فلا يصح أن يقال فلن ترضى عنك اليهود والنصارى . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضى عنك اليهود ولن ترضى عنك النصارى . . وإنك لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى . . وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود . .
ثم يقول الحق سبحانه : { حتى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ } . . والملة هي الدين وسميت بالملة لأنك تميل إليها حتى ولو كانت باطلا . . والله سبحانه وتعالى يقول : { وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكافرون : 3-6]
فجعل لهم دينا وهم كافرون ومشركون . . ولكن ما الذي يعصمنا من أن نتبع ملة اليهود أو ملة النصارى . . الحق جل جلاله يقول : { قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله } [آل عمران : 73]
فاليهود حرفوا في ملتهم والنصارى حرفوا فيها . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه هدى الله . . والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر طريق . . أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلى الغاية . . وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه .

ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة توصلك إلى الضلال . . ولكن الهدى الذي يوصل للحق هو هدى واحد . . هدى الله عز وجل .
وقوله تعالى : { وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَآءَهُمْ } إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية . . والأهواء جمع هوى . . والهوى هو ما تريده النفس باطلا بعيدا عن الحق . . لذلك يقول الله جل جلاله : { وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَآءَهُمْ بَعْدَ الذي جَآءَكَ مِنَ العلم مَا لَكَ مِنَ الله مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ } .

.

والله تبارك وتعالى يقول لرسوله لو اتبعت الطريق المعوج المليء بالشهوات بغير حق . . سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعدما جاءك من الله من الهدى فليس لك من الله من ولي يتولى أمرك ويحفظك ولا نصير ينصرك .
وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نقف معه وقفة لنتأمل كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه . . فالله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام . . فالمراد به أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده . . وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى . . أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتبعهم .

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم يقينا أن ما لم يقبله من رسوله عليه الصلاة والسلام . . لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه . . وذلك حتى لا يأتي بعد رسول الله من يدعي العلم . . ويقول نتبع ملة اليهود أو النصارى لنجذبهم إلينا . . نقول له لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد .

إن ضرب المثل هنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقصود به أن أتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تماما تحت أي ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المغرضين أي طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم ، أراد أن يبين أن هناك من اليهود والنصارى من لم يحرفوا في كتبهم . . وأن هؤلاء يؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته . . لأنهم يعرفونه من التوراة والإنجيل .

ولو أن الله سبحانه لم يذكر هذه الآية لقال الذين يقرأون التوراة والإنجيل على حقيقتيهما . . ويفكرون في الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لقالوا كيف تكون هذه الحملة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نعتزم الإيمان بالإسلام . . وهذا ما يقال عنه قانون الاحتمال . . أي أن هناك عددا مهما قل من اليهود أو النصارى يفكرون في اعتناق الإسلام باعتباره دين الحق . . وقد كان هناك جماعة من اليهود عددهم أربعون قادمون من سيناء مع جعفر بن أبي طالب ليشهدوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قرأوا التوراة غير المحرفة وآمنوا برسالته . . وأراد الله أن يكرمهم ويكرم كل من سيؤمن من أهل الكتاب . . فقال جل جلاله : { الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ } [البقرة : 121]

أي يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل . . فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوى البشر . . ولا بالتحريف الذي هو نقل شيء من حق إلى باطل .

يقول الله تبارك وتعالى : { أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فأولئك هُمُ الخاسرون } . . ونلاحظ أن القرآن الكريم يأتي دائما بالمقارنة . . ليكرم المؤمنين ويلقي الحسرة في نفوس المكذبين . . لأن المقارنة دائما تظهر الفارق بين الشيئين .

إن الله سبحانه يريد أن يعلم الذين آتاهم الله الكتاب فلم يحرفوه وآمنوا به . . ليصلوا إلى النعمة التي ستقودهم إلى النعيم الأبدي . . وهي نعمة الإسلام والإيمان . . مقابل الذين يحرفون التوراة والإنجيل فمصيرهم الخسران المبين والخلود في النار .

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122)

لو رجعنا إلى ما قلناه عندما تعرضنا للآية (40) من سورة البقرة . . وقوله تعالى : { يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بعهدي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فارهبون } . . فالحق سبحانه وتعالى لم ينه الجولة مع بني إسرائيل قبل أن يذكرهم بما بدأهم به . . إنه سبحانه لا ينهي الكلام معهم في هذه الجولة . . إلا بعد أن يذكرهم تذكيرا نهائيا بنعمه عليهم وتفضيله لهم على كثير من خلقه . . ومن أكبر مظاهر هذا التفضيل . . الآية الموجودة في التوراة تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام وذلك تفضيل كبير .

التذكير بالنعمة هنا وبالفضل هو تقريع لبني إسرائيل أنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه مذكور عندهم في التوراة . . وكان يجب أن يأخذوا هذا الذكر بقوة ويسارعوا للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه تفضيل كبير من الله سبحانه وتعالى لهم . . والله جل جلاله قال حين أخذت اليهود الرجفة . . وطلب موسى عليه السلام من ربه الرحمة . . قال كما يروي لنا القرآن الكريم : { واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل يَأْمُرُهُم بالمعروف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلال التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فالذين آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ أولئك هُمُ المفلحون } [الأعراف : 156-157]

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)

هذه الآية الكريمة تشابهت مع الآية 48 من سورة البقرة . . التي يقول فيها الله تبارك وتعالى : { واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ } .

نقول إن هذا التشابه ظاهري . . ولكن كل آية تؤدي معنى مستقلا . . ففي الآية 48 قال الحق سبحانه : { لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ } . . وفي الآية التي نحن بصددها قال : { لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ } . . لماذا؟ لأن قوله تعالى { لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً } . . لو أردنا النفس الأولى فالسياق يناسبها في الآية الأولى . . ولو أردنا النفس الثانية فالسياق يناسبها في الآية الثانية التي نحن بصددها . . فكأن معنا نفسين إحداهما جازية والثانية مجزي عنها . . والجازية هي التي تشفع . . فأول شيء يقبل منها هو الشفاعة . . فإن لم تقبل

شفاعتها تقول أنا أتحمل العدل . . أي أخذ الفدية أو ما يقابل الذنب . . ولكن النفس المجزي عنها أول ما تقدم هو العدل أو الفداء . . فإذا لم يقبل منها تبحث عن شفيع . . ولقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند تعرضنا للآية 48 من سورة البقرة .

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)

يأتي الحق سبحانه وتعالى إلى قصة إبراهيم عليه السلام . . ليصفي الجدل والتشكيك الذي أحدثه اليهود عند تغيير القبلة . . واتجاه المسلمين إلى الكعبة المشرفة بدلا من بيت المقدس . . كذلك الجدل الذي أثاره اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنه لا يأتي نبي إلا منهم .
يريد الله تبارك وتعالى أن يبين صلة العرب بإبراهيم وصلتهم بالبيت . . فيقول الحق جل جلاله : { وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ } . . ومعناها اذكر إذا ابتلى الله إبراهيم . . وإذ هنا ظرف وهناك فرق بينها وبين إذا الشرطية في قوله تعالى : { إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح * وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجاً } [النصر : 1-2]
إذا هنا ظرف ولكنه يدل على الشرط . . أما إذ فهي ظرف فقط . . وقوله تعالى : { وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } . . معناها اذكر وقت أن ابتلى إبراهيم بكلمات .
ما معنى الابتلاء؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه في الحقيقة ليس كذلك . . لأن الابتلاء هو إمتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فيه فهو شر . . فالابتلاء ليس شرا ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر . الذي ابتلى هو الله سبحانه . . هو الرب . . والرب معناه المربي الذي يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه . . ومن أساس التربية أن يمتحن المربي من يربيه ليعلم هل نجح في التربية أم لا؟ والابتلاء هنا بكلمات والكلمات جمع كلمة . . والكلمة قد تطلق على الجملة مثل قوله تعالى : { وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً * مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً } [الكهف : 4-5]
إذن فالكلمة قد تطلق على الجملة وقد تطلق على المفرد . . كأن تقول مثلا محمد وتسكت . . وفي هذه الحالة لا تكون جملة مفيدة . . والكلمة المرادة في هذه الآية هي التكليف من الله . قوله سبحانه إفعل ولا تفعل . . فكأن التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدي مطلوبها أو لا تؤديه . . وقد اختلف العلماء حول الكلمات التي تلقاها إبراهيم من ربه . . نقول لهم أن هذه الكلمات لابد أن تناسب مقام إبراهيم أبي الأنبياء . . إنها ابتلاء يجعله أهلا لحمل الرسالة . . أي لابد أن يكون الابتلاء كبيراً . . ولقد قال العلماء إن الابتلاءات كانت عشرة وقالوا أربعين منها عشرة في سورة التوبة وهي قوله تعالى : { التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر والحافظون لِحُدُودِ الله } [التوبة : 112]

وهذه رواية عبد الله بن عباس . . وعشرة ثانية في سورة المؤمنون . وفي قوله سبحانه : { قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * والذين هُمْ عَنِ اللغو مُعْرِضُونَ * والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون * والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * والذين هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أولئك هُمُ الوارثون }

[المؤمنون : 1-10]

وبعد ذلك قال : { أولئك هُمُ الوارثون } .

وفي سورة الأحزاب يذكر منهم قوله جل جلاله : { إِنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فُرُوجَهُمْ والحافظات والذاكرين الله كَثِيراً والذاكرات أَعَدَّ الله لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً } [الأحزاب : 35]

وفي سورة المعارج يقول : { إِلاَّ المصلين * الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ * والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ والمحروم * والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدين * والذين هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذَلِكَ فأولئك هُمُ العادون * والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [المعارج : 22-34]

نخرج من هذا الجدل ، بأن نقول إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات تكليفية افعل كذا ولا تفعل كذا . . وابتلاه بأن أُلقِي في النار وهو حي فلم يجزع ولم يتراجع ولم يتجه إلا لله وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه .

وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليه من جنسها . . وكونه يلقى في النار ولا يبالي يأتيه جبريل فيقول ألك حاجة فيرد إبراهيم أما إليك فلا . . وأما إلى الله فعلمه بحالي يغنيه عن سؤالي . . وكونه وهو شيخ كبير يبتلى بذبح ابنه الوحيد فيطيع بنفس مطمئنة ورضا بقدر الله . . يقول الحق : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ موسى * وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى } [النجم : 36-37]

أي وَفَّي كل ما طلب منه وأداه بعشق للمنهج ولابتلاءات الله . . لقد نجح إبراهيم عليه السلام في كل ما ابتلي به أو اختبر به . . والله كان أعز عليه من أهله ومن نفسه ومن ولده . . ماذا كافأه الله به؟ قال : { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة : 124]

أي أن الحق تبارك وتعالى أئتمنه أن يكون إماماً للبشر . . والله سبحانه كان يعلم وفاء إبراهيم

ولكنه اختبره لنعرف نحن البشر كيف يصطفي الله تعالى عباده المقربين وكيف يكونوا أئمة يتولون قيادة الأمور . . استقبل إبراهيم هذه البشرى من الله وقال كما يروي لنا القرآن الكريم : { قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي } [البقرة : 124]

ما هي الذرية؟ هي النسل الذي يأتي والولد الذي يجئ . . لأنه يحب استطراق الخير على أولاده وأحفاده وهذه طبيعة البشر ، فهم يعطون ثمرة حركتهم وعملهم في الحياة لأولادهم وأحفادهم وهم مسرورون .

. ولذلك أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلى أولاده وأحفاده . . حتى لا يحرموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدي بهم إلى نعيم لا يزول . . ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضية إيمانية أيضا هي تقريع لليهود . . الذي تركوا القيم وعبدوا المادة فيقول جل جلاله : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } [البقرة : 124]

فكأن إبراهيم بأعماله قد وصل إلى الإمامية . . ولكن هذا لا ينتقل إلا للصالحين من عباده العابدين المسبحين .

وقول الحق سبحانه : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } مقصود به اليهود الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة ، وهو استقراء للغيب أنه سيأتي من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم .

ومن العجائب أن موسى وهارون عليهما السلام كانا رسولين . . الرسول الأصيل موسى وهارون جاء ليشد أزره لأنه فصيح اللسان . . وشاءت إرادة الله سبحانه أن تستمر الرسالة في ذرية هارون وليس في ذرية موسى . . والرسالة ليست ميراثا . .

وقوله تعالى { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } . . فكأن عهد الله هو الذي يجذب صاحبه أي هو الفاعل . . نأتي بعد ذلك إلى مسألة الجنس والدم واللون . . بنوة الأنبياء غير بنوة الناس كلهم فالأنبياء اصطفاؤهم اصطفاء قيم وأبناؤهم هم الذين يأخذون منهم هذه القيم وليسوا الذين يأخذون الجنس والدم واللون . . ولو رجعنا إلى قصة نوح عليه السلام حين غرق ابنه . . رفع يديه إلى السماء وقال : { رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي } [هود : 45]

فرد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } [هود : 46]

إن أهل النبوة هم الذين يأخذون القيم عن الأنبياء . . ولولا أن الحق سبحانه قال لنا { إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } . . لاعتقدنا أنه ربما جاء من رجل آخر أو غير ذلك . . ولكن الله يريدنا أن نعرف أن عدم نسبة ابن نوح إلى أبيه بسبب { إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ } .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)

وضّحت لنا الآية التي سبقت أن اليهود قد انتفت صلتهم بإبراهيم عليه السلام . . بعد أن تركوا القيم والدين واتجهوا إلى ماديات الحياة . . أنتم تدعون أنكم أفضل شعوب الأرض لأنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم والعرب لهم هذه الأفضلية والشرف لأنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم . . إذن فأنتم غير مفضلين عليهم . . فإذا انتقلنا إلى قصة بيت المقدس وتحول القبلة إلى الكعبة . . نقول إن ذلك مكتوب منذ بداية الخلق أن تكون الكعبة قبلة كل من يعبد الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : { وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً } . . تأمل كلمة البيت وكلمة مثابة . . بيت مأخوذ من البيتوته وهو المأوى الذي تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح وتكون فيه زوجتك وأولادك . . ولذلك سميت الكعبة بيتا لأنها هي المكان الذي يستريح إليه كل خلق الله . . ومثابة يعني مرجعا تذهب إليه وتعود . . ولذلك فإن الذي يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يحب أن يرجع مرات ومرات . . إذن فهو مثابة له لأنه ذاق حلاوة وجوده في بيت ربه . . وأتحدى أن يوجد شخص في بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته . . تنظر إلى الكعبة فيذهب كل ما في صدرك من ضيق وهم وحزن ولا تتذكر أولادك ولا شئون دنياك ولو ظلت جاذبية بيت الله في قلوب الناس مستمرة لتركوا كل شئون دنياهم ليبقوا بجوار البيت . . ولذلك كان عمر بن الخطاب حريصا على أن يعود الناس إلى أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة . .

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفي من عقل الحاج وقلبه . . لأن الحجيج في بيت ربهم . . وكلما كربهم شيء أو همهم شيء توجهوا إلى ربهم وهم في بيته فيذهب عنهم الهم والكرب . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : { فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ } [إبراهيم : 37]

أفئدة وليست أجساما وتهوى أي يلقون أنفسهم إلى البيت . . والحج هو الركن الوحيد الذي يحتال الناس ليؤدوه . . حتى غير المستطيع يشق على نفسه ليؤدي الفريضة . . والذي يؤديه مرة ويسقط عنه التكليف يريد أن يؤديه مرة أخرى ومرات .

إن من الخير أن تترك الناس يثوبون إلى بيت الله . . ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة .

وقوله تعالى : { مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً } . . أمنا يعني يؤمّن الناس فيه . . العرب حتى بعد أن تحللوا من دين إسماعيل وعبدوا الأصنام كانوا يؤمنون حجاج بيت الله الحرام . . يلقي أحدهم قاتل أبيه في بيت الله فلا يتعرض له إلا عندما يخرج .

والله سبحانه وتعالى يضع من التشريعات ما يريح الناس من تقاتلهم ويحفظ لهم كبرياءهم فيأتي إلى مكان ويجعله آمنا . . ويأتي إلى شهر ويجعله آمنا لا قتال فيه لعلهم حين يذوقون السلام

والصفاء يمتنعون عن القتال .

والكلام عن هذه الآية يسوقنا إلى توضيح الفرق بين أن يخبرنا الله أن البيت آمن وأن يطلب منا جعله آمنا . . إنه سبحانه لا يخبرنا بأن البيت آمن ولكن يطلب منا أن نؤمّن من فيه . . الذي يطيع ربه يؤمن من في البيت والذي لا يطيعه لا يؤمنه . . عندما يحدث هياج من جماعة في الحرم اتخذته ستاراً لتحقيق أهدافها . . هل يتعارض هذا مع قوله تعالى : { مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً } . . نقول لا . .

إن الله لم يعط لنا هذا كخبر ولكن كتشريع . . إن أطعنا الله نفذنا هذا التشريع وإن لم نطعه لا ننفذه .

وقوله تعالى : { واتخذوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } . . وهنا نقف قليلا فهناك مَقام بفتح الميم ومُقام بضم الميم . . قوله تعالى : { ياأهل يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ } [الأحزاب : 13]

مَقام بفتح الميم إسم لمكان من قام . . ومُقام بضم الميم اسم لمكان من أقام . . فإذا نظرت إلى الإقامة فقل مُقام بضم الميم . . وإذا نظرت إلى مكان القيام فقل مقام بفتح الميم . . إذن فقوله تعالى : { واتخذوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } بفتح الميم اسم المكان الذي قام إبراهيم فيه ليرفع القواعد من البيت ويوجد فيه الحجر الذي وقف إبراهيم عليه وهو يرفع القواعد .

ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؟ لأنهم كانوا يتحرجون عن الصلاة فيه . . فالذي يصلي خلف المقام يكون الحجر بينه وبين الكعبة . . وكان المسلمون يتحرجون أن يكون بينهم وبين الكعبة شيء فيخلون من الصلاة ذلك المكان الذي فيه مقام إبراهيم . . ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؟ وسؤال عمر ينبع من الحرص على عدم الصلاة وبينه وبين الكعبة عائق وهم لا يريدون ذلك . . ولما رأى عمر مكانا في البيت ليس فيه صلاة يصنع فجوة بين المصلين أراد أن تعم الصلاة كل البيت . . فنزلت الآية الكريمة : { واتخذوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى . . فكأنه جل جلاله أقر وجود مكان إبراهيم في مكانه فاصلا بين المصلين خلفه وبين الكعبة . . وذلك لأن مقام إبراهيم له قصة تتصل بالعبادة وإتمامها على الوجه الأكمل ، والمقام سيعطينا حيثية الإتمام لأن الله سبحانه وتعالى يقول : { فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ } [آل عمران : 97]

إذن هناك آيات واضحة يريدنا الله سبحانه أن نراها ونتفهمها .

. فمقام إبراهيم هو مكان قيامه عندما أمره الله برفع القواعد من البيت . . والترتيب الزمني للأحداث هو أن البيت وُجد أولا . . ثم بعد ذلك رفعت القواعد ووضع الحجر الأسود في موقعه وقد وضعه إبراهيم عليه السلام .

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعطينا التاريخ بقدر ما يريد أن يعطينا العبرة؛ فقصة بناء البيت وقع فيها خلاف بين العلماء . . متى بني البيت؟ بعض العلماء جعلوا بداية البناء أيام إبراهيم وبعضهم يرى أنه من عهد آدم وفريق ثالث يقول إنه من قبل آدم . . وإذا حكمنا المنطق والعقل وقرأنا قول الحق تبارك وتعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم } [البقرة : 127]

نسأل ما الرفع أولا؟ هو الصعود والإعلاء ، فكل بناء له طول وله عرض وله ارتفاع . .

ومادامت مهمة إبراهيم هي رفع القواعد فكأن هناك طولا وعرضا للبيت وإن إبراهيم سيحدد البعد الثالث وهو الارتفاع . . إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم . . ثم جاء الطوفان الذي غمر الأرض في عهد نوح فأخفى معالمه . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره ويبين مكانه للناس .

والكعبة ليست هي البيت ولكنها هي المكين الذي يدلنا على مكان البيت . . إذن فالذين فهموا من قوله تعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت } . . بمعنى أن إبراهيم هو الذي بنى البيت . . نقول لهم إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم وأن مهمة إبراهيم اقتصرت على رفع القواعد لإظهار مكان البيت للناس . . ودليلنا على ذلك أنه الآن وقد ارتفع البناء حول الكعبة . . من يصلي على السطح لا يسجد للكعبة ولكنه يسجد لجوّ الكعبة . . ومن يصلي في الدور الأسفل يصلي أيضا للكعبة لأن المكان غير المكين .

ولعل أكبر دليل على ذلك من القرآن الكريم . . أن إبراهيم حين أخذ هاجر وابنها إسماعيل وتركهما في بيت الله الحرام ولم يكن قد بنى الكعبة في ذلك الوقت . . ذكر البيت واقرأ قول الحق تبارك وتعالى في دعاء إبراهيم وهو يترك هاجر وطفلها الرضيع : { رَّبَّنَآ إِنِي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة } [إبراهيم : 37]

يعني أن البيت كان موجودا وإسماعيل طفل رضيع . . ولكن القواعد من البيت قد أقيمت بعد أن أصبح إسماعيل شابا يافعا يستطيع أن يعاون أباه في بناء الكعبة . . إذن فمكان بيت الله الحرام كان موجودا قبل أن يبني إبراهيم عليه السلام الكعبة . . ولكن مكان البيت لم يكن ظاهرا للناس ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى لإبراهيم مكان البيت حتى يضع له العلامة التي تدل الناس عليه . . واقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً {

[الحج : 26]

إن كثيرا من المفسرين يخفى عليهم حقيقة ما جاء في القرآن . والمفروض أننا حين نتعرض لقضية بناء البيت لابد أن نستعرض جميع الآيات التي وردت في القرآن الكريم حول هذه القصة . .

ومنها قوله تبارك وتعالى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ } [

آل عمران : 96]

والكلام هنا عن البيت . والقول إنه وضع للناس . والناس هم آدم وذريته حتى تقوم الساعة . . وعلى ذلك لابد أن نفهم أن البيت مادام وضع للناس فالناس لم يضعوه . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضعه وحدده ، وعدل الله يأبى إلا أن يوجد البيت قبل أن يخلق آدم . ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله وحيث أراد الله لبيته أن يوضع . . والله مع نزول آدم إلى الأرض شرع التوبة وأعد هذا البيت ليتوب الناس فيه إلى ربهم وليقيموا الصلاة ويتعبدوا فيه .

وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفي أن يقيمها على قدر طول قامته ولكنه أتى بالحجر ليزيد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر . . ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخاذه مصلى أن يلفتنا إلى أن الإنسان المؤمن لابد أن يعشق التكليف . . فلا يؤديه شكلا ولكن يؤديه بحب ويتحايل ليزيد تطوعا من جنس ما فرض الله عليه .

إن الحجر الموجود في مقام إبراهيم إنما هو دليل على عشقه عليه السلام لتكاليف ربه ومحاولته أن يزيد عليها . وإن الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم به حفر على شكر قدميه . . وهما بين قائل أن الحجر لان تحت قدمي إبراهيم من خشية الله . . وبين قائل إن إبراهيم هو الذي قام بحفر مكان في الحجر على هيئة قدميه . . حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلى أعلى ما يمكن ليعلي القواعد من البيت كان توازنه محفوظا .

وقوله تعالى : { طَهِّرَا بَيْتِيَ } دليل على البيت زالت معالمه تماما وأصبح مثل سائر الأرض فذبحت فيه الذبائح وألقيت المخلفات ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يطهر هو وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ويجعله مكانا لثلاث طوائف : « الطائفين » وهذه مأخوذة من الطواف وهو الدوران حول الشيء . . ولذلك يسمون شرطة الحراسة بالليل طوافة لأنهم يطوفون في الشوارع في أثناء الليل . والله جل جلاله يقول : { فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم } [القلم : 19-20]

وهذه هي قصة الحديقة التي منع أولاد الرجل الصالح بعد وفاته حق الفقراء والمساكين فيها فأرسل الله سبحانه من طاف بها . . أي مشى في كل جزء منها فأحرق أشجارها . . فالطائف هو الذي يطوف . . { والعاكفين } هم المقيمون { والركع السجود } هم المصلون فتطهير البيت للطواف به والإقامة والصلاة فيه . . وهو مطهر أيضا لأنه سيكون قبلة للمسلمين لكل راكع أو ساجد في الأرض حتى قيام الساعة .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)

يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً } . . ومادام الله قد جعله أمنا فما هي جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا . . نقول إذا رأيت طلبا لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود . . فكأن إبراهيم يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن في البيت . . ذلك لأنك عندما تقرأ قول الحق تبارك وتعالى : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ والكتاب الذي نَزَّلَ على رَسُولِهِ والكتاب الذي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بالله وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليوم الآخر فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً } [النساء : 136]

هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا . . كيف؟ نقول إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويداوموا على الإيمان . . ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلبٌ لاستمرار هذا الموجود .

وقول إبراهيم : { رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً } . . أي يا رب إذا كنت قد جعلت هذا البيت آمنا من قبل فأمنه حتى قيام الساعة . . ليكون كل من يدخل إليه آمنا لأنه موجود في واد غير ذي زرع . . وكانت الناس في الماضي تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان في الطريق . . أو آمنا أي أن يديم الله على كل من يدخله نعمة الإيمان .

وقوله تعالى : { اجعل هذا بَلَداً آمِناً } تكررت في آية أخرى تقول : { اجعل هذا البلد آمِناً } . . فمرة جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة . . نقول إن إبراهيم حين قال : { رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً } . . طلب من الله شيئين . . أن يجعل هذا المكان بلدا وأن يجعله آمنا .

ما معنى أن يجعله بلدا؟ هناك أسماء تؤخذ من المحسات . . فكلمة غصب تعني سلخ الجلد عن الشاة وكأن من يأخذ شيئا من إنسان غصبا كأنه يسلخه منه بينما هو متمسك به .

كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة . . والبلد هو البقة تنشأ في الجلد فتميزه عن باقي الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء في الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التي ظهرت مميزة ببياض اللون . . والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومبان فيكون مستويا بالأرض لا تستطيع أن تميزه بسهولة . . فإذا أقمت فيه مباني جعلت فيه علامة تميزه عن باقي الأرض المحيطة به .

وقوله تعالى : { وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات } . . هذه من مستلزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس في هذا البلد . . ولكن إبراهيم قال : { وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ } فكأنه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم . . لماذا؟ لأنه حينما قال له الله :

{ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة : 124]

قال إبراهيم : { وَمِن ذُرِّيَّتِي } [البقرة : 124]

قال الله سبحانه : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } [البقرة : 124]

فخشي إبراهيم وهو يطلب لمن سيقيمون في مكة أن تكون استجابة الله سبحانه كالاستجابة السابقة . . كأن يقال له لا ينال رزق الله الظالمون . فاستدرك إبراهيم وقال : { وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ } . . ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية . . فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يناله إلا المؤمن ، أما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمن والكافر . لأن الله هو الذي استدعانا جميعا إلى الحياة وكفل لنا جميعا رزقنا . . وكأن الحق سبحانه حين قال : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } . . كان يتحدث عن قيم المنهج التي لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر . . لذلك قال الله سبحانه : { وَمَن كَفَرَ } . . وفي هذا تصحيح مفاهيم بالنسبة لإبراهيم ليعرف أن كل من استدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مؤمنا كان أو كافرا . والخير في الدنيا على الشيوع . فمادام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرقي على أرض المؤمن فقط ، ولم يقل للهواء لا يتنفسك ظالم وإنما أعطى نعمة استبقاء الحياة واستمرارها لكل من خلق آمن أو كفر . . ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وتعالى : { وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً } . . التمتع هو شيء يحبه الإنسان ويتمنى دوامه وتكراره .

وقوله تعالى : { فَأُمَتِّعُهُ } دليل على دوام متعته ، أي له المتعة في الدنيا . ولكل نعمة متعة ، فالطعام له متعة والشراب له متعة والجنس له متعة . . إذن التمتع في الدنيا بأشياء متعددة . ولكن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه قليل . . لأن المتعة في الدنيا مهما بلغت وتعدّدت ألوانها فهي قليلة .

واقرأ قوله تعالى : { ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار } . . ومعنى أضطره أنه لا اختيار له في الآخرة ، فكأن الإنسان له اختيار في الحياة الدنيا يأخذ هذا ويترك هذا ولكن في الآخرة ليس له اختيار . . فلا يستطيع وهو من أهل النار مثلا أن يختار الجنة بل إن أعضاءه المسخرة لخدمته في الحياة الدنيا والتي يأمرها بالمعصية فتفعل ، لا ولاية له عليها في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النور : 24]

أي أن الجوارح التي كانت تطيع الكافر في المعاصي في الدنيا لا تطيعه يوم القيامة؛ فاللسان الذي كان ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله يأتي يوم القيامة يشهد على صاحبه . . والقدم التي كانت تمشي إلى أماكن الخمر واللهو والفسوق تشهد على صاحبها ، واليد التي كانت تقتل وتسرق تشهد على صاحبها . وقوله : « اضطره » معناه أن الإنسان يفقد اختياره في الآخرة ثم ينتهي إلى النار وإلى العذاب الشديد مصداقا لقوله تعالى : { ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار وَبِئْسَ المصير } . . أي أن الله سبحانه وتعالى يحذر الكافرين بأن لهم النار والعذاب في الآخرة ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127)

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت . . وجاءت { يَرْفَعُ } هنا فعلا مضارعا لِتصويرِ الحدث الآن وفي المستقبل .

ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن؟ أم أنه رفع وانتهى؟ طبعا هو رفع وانتهى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت . . والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية الرفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلما حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكن يملك « سقالة » . . ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أن يتحايل ويأتي بالحجر .

إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولابد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلى مكان البناء . . ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التي سيتم بها رفع القواعد من البيت . ورغم المشقة التي يتحملها الاثنان . . هما سعيدان . . وكل ما يطلبانه من الله هو أن يتقبل منهما . والقبول والمقابلة والاستقبال كلها من مادة مواجهة . . أي أنهما يسألان الله في موقف المعرض عن عمله ، إنهما لا يريدان إلا الثواب : { تَقَبَّلْ مِنَّآ } أي أعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتنفيذا لأمرك .

وقوله تعالى : { إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم } . . أي أنت يا رب السميع الذي تسمع دعاءنا وتسمع ما نقول . . « والعليم » . . العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا لك . . وإننا نفعل هذا العمل ابتغاء لوجهك ولا نقصد غيرك . . ذلك أن الأعمال بالنيات ، وقد يعمل رجلان عملا واحدا . أحدهما يثاب لأنه يعمله إرضاء لله وتقربا منه والآخر لا يثاب لأنه يفعله من أجل الدنيا .

والله سبحانه وتعالى عليم بالنية فإن كان العمل خاصا لله تقبله ، وإذا لم يكن خالصا لوجهه لا يتقبله . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » إذن فالعمل إن لم يكن خالصا لله فلا ثواب عليه .

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)

هناك فرق بين أن تُكَلَّفَ بشيء فتفعله بحب ، وأن تفعل شكلية التكليف وتخرج من عملك خروج الذي ألقى عن كاهله عبء التكليف . . في هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل

وكانا يقولان يا رب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد فعلنا ما أمرتنا . . وليس معنى ذلك أننا اكتفينا بتكليفك لنا لأننا نريد أن نذوق حلاوة التكليف منك مرات ومرات . . { رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ } نسلم كل أمورنا إليك .

إن الإنسان لا يمكن أن ينتهي من تكليف ليطلب تكليفا غيره إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ووجد فيه استمتاعا . . ولا يجد الإنسان استمتاعا في التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه . . كلما عمل شيئا استحضر النعيم الذي ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالا : { رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ } ولم يكتفيا بذلك بل أرادا امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما . . فيقولان : { وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ } . . ليتصل أمد منهج الله في الأرض ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يقوم القيامة . . ثم يقولان : { وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا } . . أي بين لنا يا رب ما تريده منا . بين لنا كيف نعبدك وكيف نتقرب إليك . . والمناسك هي الأمور التي يريد الله سبحانه وتعالى أن نعبده بها .

وقوله : { وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا } ترينا أن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكليف على نفسه ، لأنه لا يرى في كل تكليف إلا تطهيرا للنفس وخيرا للذرية ونعيما في الآخرة . . ولذلك يقول كما يروي لنا الحق : { وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التواب الرحيم } . . وتب علينا ليس ضروريا أن نفهمها على أنها توبة من المعصية . . وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا في المعصية فيريدان التوبة إلى الله . . وإنما لأنهما علما أن من سيأتي بعدهما سيقع في الذنب فطلبا التوبة لذريتهما . . ومن أين عَلِما؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم : { وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار وَبِئْسَ المصير } . .

لقد طلبا من الله تبارك وتعالى التوبة والرحمة لذريتهما . . والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله في فلاة . . لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعا عاجلا فإن حلاوة الإيمان إن كان مؤمنا ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيدا عن المعاصي . . ولذلك قيل إن انتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ولكن يبدل سيئاتك حسنات . . وقلنا أن تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من أذى وشر كبير . . لأنه لو كان الذنب الواحد يجعلك خالدا في النار ولا توبة بعده لتجبر العصاة وازدادوا شرا . . ولأصيب المجتمع كله بشرورهم ولَيَئِسَ الناس من آخرتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

دعاء إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويزيد رحمته على عباده . . بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويبعد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة { رَسُولاً مِّنْهُمْ } ترد على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم . . ونحن نقول لهم إن جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق . ومحمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق . . ولا حجة لما تدعونه من أن الله فَضَّلَكم واختاركم على سائر الشعوب . . إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم في الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون . أراد الحق تبارك وتعالى أن يقول لهم أن هذا النبي من نسل إبراهيم وأنه ينتمي إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وقوله تعالى : { يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ } . . أي آيات القرآن الكريم .

وقوله تعالى : { وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة } . . يجب أن نعرف أن هناك فرقا بين التلاوة وبين التعليم . فالتلاوة هي أن تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به لتطبقه وتعرف من أين جاءت . . وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم فإن الحكمة هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قال الحق سبحانه وتعالى فيها في خطابه لزوجات النبي : { واذكرن مَا يتلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله والحكمة } [الأحزاب : 34]

وقوله تعالى : { وَيُزَكِّيهِمْ } أي ويطهرهم ويقودهم إلى طريق الخير وتمام الإيمان .

وقوله جل جلاله : { إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم } . . أي العزيز الذي لا يغلب لجبروته ولا يسأله أحد . . « والحكيم » الذي لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)

ما ملة إبراهيم؟ إنها عبادة الله وحده لا شريك له وعشق التكاليف؛ فإبراهيم وَفَّى كل ما كلفه به الله وزاد عليه . . وقابل الابتلاء بالطاعة الصبر . . فعندما ابتلاه الله بذبح ابنه الوحيد لم يتردد وكان يؤدي التكاليف بعشق ويحاول أن يستبقي المنهج السليم في ذريته .

قوله تعالى : { وَمَن يَرْغَبُ } يعني يعرض ويرفض . ويقال رغب في كذا أي أحبه وأراده . ورغب عن كذا أي صَدَّ عنه وأعرض . . والذين يصدُّون عن ملة إبراهيم ويرفضونها هؤلاء هم السفهاء

الجهلة ، لذلك قال عنهم الله سبحانه وتعالى : { إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ } . . دليل على ضعف الرأي وعدم التفرقة بين النافع والضار . . فعندما يكون هناك من ورثوا مالاً وهم غير ناضجي العقل لا يتفق عقلهم مع سنهم نسميهم السفهاء . . والسفيه هو من لم ينضج رأيه ولذلك تنقل قوامته على ماله إلى ولي أو وصي؛ لأنه بِسَفَهِهِ غيرُ قادر على أن ينفق المال فيما ينفع .

والقرآن الكريم يعالج هذه المسألة علاجا دقيقا فيقول : { وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ الله لَكُمْ قِيَاماً وارزقوهم فِيهَا واكسوهم وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً } [النساء : 5]

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى سمى أموال السفهاء بأموالي الولي ولم يعتبرها مال السفيه لأنه ليس أهلا للقيام عليها . . وجعل هذه الأموال تحت إشراف شخص آخر أكثر نضجا وحكمة .

وقوله تعالى : « أموالكم » ليكون الولي أو الوصي حريصا عليها كَمَالِهِ أو أكثر ولكن هو قيم فقط . . فإذا بلغ الإنسان سن الرشد أو شفى السفيه من سفاهته يرد إليه ماله ليتصرف فيه .

ونحن نرى عددا من الأبناء يرفعون قضايا على آبائهم وأمهاتهم يتهمونهم فيها بالسفه لأنهم لا يحسنون التصرف في أموالهم . . ثم يأخذون هذه الأموال ويبعثرونها هم . . والذي يجب أن يعلمه كل من يقوم بهذه العملية أنه لا حق له في إنفاق المال وتبذيره لحسابه الخاص ، ولكنّ هناك حكمين : إما أن يكون الشخص فقيرا فله أن يأكل بالمعروف . . وإما أن يكون غنيا فيجعل عمله في الولاية لله لا يتقاضى عنه شيئا . . أما أن يأخذ المال ويبعثره على نفسه وشهواته وعلى زوجته وأولاده فهذا مرفوض ويحاسب عليه . . والله سبحانه وتعالى يقول : { وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بالمعروف } [النساء : 6]

إذن الذي يعرض عن ملة إبراهيم هو سفيه لا يملك عقلا يميز بين الضار والنافع .

ويقول الله سبحانه وتعالى : { وَلَقَدِ اصطفيناه فِي الدنيا وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين } . . اصطفاه في الدنيا بالمنهج وبأن جعله إماما وبالابتلاء . . وكثير من الناس يظن أن ارتفاع مقامات بعضهم في أمور الدنيا هو اصطفاء من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلةً عالية في الآخرة . . نقول لا ، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة .

ولذلك قال الله تبارك وتعالى : { وَلَقَدِ اصطفيناه فِي الدنيا } . . وأضاف : { وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين } . . لنعلم أن إبراهيم عليه السلام له منزلة عالية في الدنيا ونعيم في الآخرة أي الاثنين معا .

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه قال لإبراهيم أسلم فقال أسلمت . . إذن فمطلوب الحق سبحانه وتعالى من عبده أن يسلم إليه . . ولم يقل الحق أسلم إليّ ، لأنها مفهومة . . ولم يقل أسلم لربك لأن الإسلام لا يكون إلا لله . لأنه هو سبحانه المأمون علينا . . على أن إبراهيم

عليه السلام قال في رده : { أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين } .

ومعنى ذلك أنه لن يكون وحده في الكون . لأنه إذا أسلم لله الذي سخر له ما في السماوات والأرض . . يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان . . ومَنْ أكثرُ نضجاً في العقل ممن يُسلم وجهه لله سبحانه . . لأنه يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوي لا يقهر ، قادر لا تنتهي قدرته . . غالب لا يغلب ، رزاق لا يأتي الرزق إلا منه . فكأنه أسلم وجهه للخير كله .

والدين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد آدم إلى يوم القيامة هو إسلام الوجه لله ، ولماذا الوجه؟ لأن الوجه أشرف شيء في الإنسان يعتز به ويعتبره سمة من سمات كرامته وعزته . . ولذلك فنحن حين نريد منتهى الخضوع لله في الصلاة نضع جباهنا ووجوهنا على الأرض . . وهذا منتهى الخشوع و الخضوع أن تضع أشرف ما فيك وهو وجهك على الأرض إعلانا لخضوعك لله سبحانه وتعالى .

والله جل جلاله يريد من الإنسان أن يسلم قيادته لله . . بأن يجعل اختياراته في الدنيا لما يريده الله تبارك وتعالى . . فإذا تحدث لا يكذب ، لأن الله يحب الصدق ، وإذا كلف بشيء يفعله لأن التكليف في صالحنا ولا يستفيد الله منه شيئا . . وإذا قال الله تعالى تصدق بمالك أسرع يتصدق بماله ليرد له أضعافا مضاعفة في الآخرة وبقدرة الله .

وهكذا نرى أن الخير كله للإنسان هو أن يجعل مراداته في الحياة الدنيا طبقا لما أراده الله . . وفي هذه الحالة يكون قد انسجم مع الكون كله وتجد أن الكون يخدمه ويعطيه وهو سعيد .

أما من يسلم وجهه لغير الله فقد اعتمد على قوي يمكن أن يضعف ، وعلى غني يمكن أن يفتقر . . وعلى موجود يمكن أن يموت ويصبح لا وجود له . ولذلك فهو في هذه الحالة يتصف بالسفاهة لأنه اعتمد على الضار وترك النافع .

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)

عندما تقرأ كلمة وصى فاعلم أن الوصية تأتي لحمل الإنسان على شيء نافع في آخر وقت لك في الدنيا؛ لأن آخر ساعات الإنسان في الدنيا إن كان قد عاش فيها يغش الناس جميعا فساعة يحتضر لا يغش نفسه أبدا ولا يغش أحدا من الناس لماذا؟ لأنه يحس إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق .

النصح أو الوصية هي عظة تحب أن يستمسك بها من تنصحه وتقولها له مخلصا في آخر لحظة من لحظات حياته . . ولذلك سيأتي الله سبحانه وتعالى ليبين لنا ذلك في قوله : { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي } [البقرة : 133]

وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائما تكون لمن تحب . . وأن حب الإنسان

لأولاده أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافرا . . ونحن لا نتمنى أن يكون في الدنيا من هو أحسن منا إلا أبناءنا ونعمل على ذلك ليكون لهم الخير كله .

وصّى إبراهيم بنيه ، ويعقوب وصى بنيه . . وكانت الوصية { يَابَنِيَّ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين } إذن فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم ولا أمرا من عند يعقوب . ولكن كانت أمرا اختاره الله للناس فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا أولادهما إلا بما اختاره الله . . فكأن إبراهيم ائتمن الله على نفسه فنفذ التكاليف وائتمنه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم الله .

قوله تعالى : { ووصى بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ } . . إبراهيم هو الأب الكبير وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب . . ويعقوب هو الأب المباشر لليهود . . ويعقوب وصاهم كما يروي لنا القرآن الكريم : { ووصى بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ } .

أنت لا تنهى إنسانا عن أمر إلا إذا كان في إمكانه أن يتجنبه ولا تأمره به إلا إذا كان في إمكانه أن ينفذه . . فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون؟ والموت لا يملكه أحد . . إنه يأتي في أي وقت فجأة . . ولكن مادام يعقوب قد وصى بنيه : { لاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ } فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسببه . . ليكون هذا إعلاما به ويتوقعه الناس في أي سن وفي أي مكان وفي أي زمان . . ولذلك قد نلتمس العافية في أشياء يكون الموت فيها . . والشاعر يقول :

إن نام عنك فكل طب نافع ... أو لم ينم فالطب من أسبابه

أي إن لم يكن قد جاء الأجل ، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء . . أما إذا جاء الأجل فيكون الطب سببا في الموت ، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك . .

فالإنسان لابد أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج ولا يغفل عنه أبدا . . حتى لا يأتيه الموت في غفلته فيموت غير مسلم . . والعياذ بالله .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

هذا خطاب من يعقوب ينطبق ويمس اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم . . يعقوب قال لأبنائه ماذا تعبدون من بعدي : { قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إلها وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } . .

هذا إقرار من الأسباط أبناء يعقوب بأنهم مسلمون وأن آباءهم مسلمون . . وتأمل دقة الأداء القرآني في قوله تعالى : { نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ } . . فكأنه لم يحدث بعد موت إبراهيم وحين

كان يعقوب يموت لم يحدث أن تغير المعبود وهو الله سبحانه وتعالى الواحد . . ولذلك قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم : { إلها وَاحِداً } . . وسنأخذ من هذه الآية لقطة تفيدنا في أشياء كثيرة لأن القرآن سيتعرض في قصة إبراهيم أنه تحدث مع أبيه في شئون العقيدة . . فقال كما يروي لنا القرآن الكريم : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [الأنعام : 74]

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم . . والرسول عليه الصلاة والسلام قال : « أنا سيد ولد آدم »

فإذا كان آزرُ أبو إبراهيم كافراً وعابداً للأصنام . . فكيف تصح سلسلة النسب الشريف؟ نقول إنه لو أن القرآن قال { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ } وسكت لكان المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم . . ولكن قول الله : { لأَبِيهِ آزَرَ } . . جاءت لحكمة . لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس الأب ولكن العم . . فأنت إذا دخلت منزلا وقابلك أحد الأطفال تقول له هل أبوك موجود ولا تقول أبوك فلان لأنه معروف بحيث لن يخطئ الطفل فيه . . ولكن إذا كنت تقصد العم فإنك تسأل الطفل هل أبوك فلان موجود؟ فأنت في هذه الحالة تقصد العم ولا تقصد الأب . . لأن العم في منزلة الأب خصوصا إذا كان الأب متوفيا .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : { لأَبِيهِ آزَرَ } بذكر الاسم فمعناه لعمه آزر . . فإذا قال إنسان هل هناك دليل على ذلك؟ نقول نعم هناك دليل من القرآن في هذه الآية الكريمة : { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ } . . والآباء جمع أب ، ثم حدد الله تبارك وتعالى الآباء ، إبراهيم وهو الجد يطلق عليه أب . . وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب واسحق وهو أبو يعقوب وجاء إسماعيل قبل اسحق .

إذن ففي هذه الآية جمع أب من ثلاثة هم إبراهيم وإسماعيل واسحق . . ويعقوب الذي حضره الموت وهو ابن اسحق ، ولكن أولاد يعقوب لما خاطبوا أباهم قالوا آباءك ثم جاءوا بأسمائهم بالتحديد . . وهم إبراهيم الجد وإسماعيل العم واسحق أبو يعقوب وأطلقوا عليهم جميعا لقب الأب .

. فكأن إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم وإبراهيم أطلق عليه الأب وهو الجد واسحق أطلق عليه الأب وهو الأب . . فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر »

يقول بعض الناس كيف ذلك ووالد إبراهيم كان غير مسلم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أنا سيد ولد آدم »

فإذا قال أحدهم كيف هذا وأبو إبراهيم عليه السلام كان مشركا عابدا للأصنام . . نقول له لم يكن آزر أبا لإبراهيم وإنما كان عمه ، ولذلك قال القرآن الكريم { لأَبِيهِ آزَرَ } وجاء بالاسم يريد به الأبوة غير الحقيقية . . فأبوة إبراهيم وأبوة اسحق معلومة لأولاد يعقوب . . ولكن إسماعيل كان مقيما في مكة بعيدا عنهم ، فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم واسحق؟ نقول جاء بالترتيب الزمني لأن إسماعيل أكبر من اسحق بأربعة عشر عاما . .

وكونه وصف الثلاثة بأنهم آباء . . إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لفظ الأب يطلق على العم . .

والله تبارك وتعالى يريدنا أن نتنبه لمعنى كلمة آزر . . ويريد أن يلفتنا أيضا إلى أن تعدد البلاغ عن الله لا يعني تعدد الآلهة . . لذلك قال سبحانه : { إلها وَاحِداً } . .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)

وقوله تعالى : « خلت » أي انفردت . وخلا فلان بفلان أي انفرد به . . وخلا المكان من نزيله أي أصبح المكان منفردا ، والنزيل منفردا ولا علاقة لأحدهما بالآخر . . الله تبارك وتعالى يقول : { وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } [البقرة : 14]

أي إنفردوا هم وشياطينهم ولم يعد في المكان غيرهم؛ ولقد قلنا إن كل حدث لابد أن يكون له محدث ، ولا حدث يوجد بذاته ، وكل حدث يحتاج إلى زمان ويحتاج إلى مكان . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ } فمعناه إنه انقضى زمانها وانفرد عن زمانكم .

والمقصود بقوله تعالى : { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ } أي انتهى زمانها . . وتلك إسم إشارة لمؤنث مخاطب وأمة هي المشار إليه ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولعامة المسلمين . . والله سبحانه وتعالى حين يقول : { تِلْكَ أُمَّةٌ } فكأنها مميزة بوحدة عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا . . ولذلك لابد أن يخاطبها بالوحدة . . واقرأ قوله تعالى : { إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاعبدون } [الأنبياء : 92]

وتلك هنا إشارة لأمة إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب . . هم جماعة كثيرة لهم عقيدة واحدة .

وقوله تعالى : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ } . . أي تلك جماعة على دين واحد تحاسب عما فعلته كما ستحاسبون أنتم على ما فعلتم . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } [النحل : 120]

وإبراهيم فرد وليس جماعة؟ نقول نعم إن إبراهيم فرد ولكن اجتمعت فيه من خصال الخير ومواهب الكمال ما لا يجتمع إلا في أمة .

وقوله تعالى : { قَدْ خَلَتْ } يراد بها إفهام اليهود ألا ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم نسبا كاذبا لأن نسب الأنبياء ليس نسباً دمويا أو جنسيا أو انتماء . . وإنما نسب منهج واتباع . . فكأن الحق

يقول لليهود لن ينفعكم أن تكونوا من سلالة إبراهيم ولا اسحق ولا يعقوب . . لأن نسب النبوة هو نسب إيماني فيه اتباع للمنهج والعقيدة . . ولا يشفع هذا النسب يوم القيامة لأن لكل واحد عمله .

قوله تعالى : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ } . . الكسب يؤخذ على الخير والاكتساب يؤخذ في الشر لأن الشر فيه افتعال .

إننا لابد أن نلتفت ونتنبه إلى آيات القرآن الكريم حتى نستطيع أن نرد على أولئك الذين يحاولون الطعن في القرآن . . فلا يوجد معنى لآية تهدمها آية أخرى ولكن يوجد عدم فهم .

يأتي بعض المستشرقين ليقول هناك آية في القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يعطي بالأنساب وذلك في قوله جل جلاله : { والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ } [الطور : 21]

الأبناء مؤمنون ، وقوله تعالى : { أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } كلمة ألحقنا تأتي عندما تلحق ناقصا بكامل .

. فإذا كان الاثنان مؤمنين فكأنك تزيد درجة الأبناء إكراما لآبائهم المؤمنين . . نقول إن الإيمان شيء والعمل بمقتضى الإيمان شيء آخر . . الأب والذرية مؤمنون ولكن الآباء تفانوا في العمل والأبناء ربما قصروا قليلا . . ولكن هنا رفع درجة بالنسبة للمؤمنين أي لابد أن يكون الأب والذرية مؤمنين . . ولكن غير المؤمنين مبعدون ليس لهم علاقة بآبائهم انقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر . . فالآباء لهم أعمال حسنة كثيرة . . والأبناء لهم أعمال حسنة أقل . . ينزل الله الأبناء في الجنة مع آبائهم لأن الإيمان واحد .

وقوله تعالى : { وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ } أي أنقصناهم من عملهم من شيء . . إذن فالآباء والذرية مأخوذون بإيمانهم ، والله بفضله يلحق الأبناء بالآباء .

قوله تعالى : { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ } . . هذه عملية الإيمان في العقيدة . . قد يقول البعض إن الله تبارك وتعالى يقول : { كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } [الطور : 21]

ويقول سبحانه : { وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى } [النجم : 39]

فكيف يأخذ الأبناء جزاء بدون سعي؟ نقول افهموا النصوص جيدا . قوله تعالى : { وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى } تحدد العدل ولكنها لا تحدد الفضل الذي يعطيه الله سبحانه لمن شاء من عباده ، وهذا يعطي بلا حساب . . ثم من الذي قال إن هذا ليس من سعيهم؟ إن إلحاق الأبناء المؤمنين بالمنزلة العالية لآبائهم تكريم لعمل الآباء وليس زيادة لعمل الأبناء .

ولقد روى لنا العلماء أن ولدا كان مؤمنا طائعا عابدا وأبوه كان مسرفا على نفسه . . فلما مات الأب حزن عليه ابنه ولكنه رأى أن أباه جالس فوق رأسه ومعه واحدة من الحور العين تؤنسه . .

فتعجب الإبن كيف ينال أبوه هذه المكافأة وقد كان مسرفا على نفسه فسأله : كيف وصلت لهذه المنزلة؟ فقال الأب أي منزلة . . قال الابن أن تكون معك واحدة من الحور العين . . فقال الأب وهل فهمت أنها نعيم لي . . قال الابن نعم . . فقال الأب : لا ، أنا عقوبة لها . . الله سبحانه وتعالى يقول : { قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس : 58]

إذن أنت في الآخرة ستفرح بفضل الله ورحمته أكثر من فرحك بعملك الصالح . . مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدْخِلَ الجنة أحداً عَمَلُه ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته »

ربما يأتي أحد ويقول الصلاة على الميت ما هو القصد الشرعي منها . . إن كانت تفيده فستكون الفائدة زيادة على عمله . . وإن لم تكن تعطيه أكثر من عمله فما فائدتها؟ .

نقول مادام الشرع كلفنا بها فلها فائدة .

وهل تظن أن الصلاة على الميت ليست من عمله؟ هي داخلة في عمله لأنه مؤمن وإيمانه هو الذي دفعك للصلاة عليه . . والذي تدعو له بالخير وبالرحمة وبالمغفرة ويتقبلها الله . . أيقال أنه أخذ غير عمله؟ لا؛ إنك لم تدع له إلا بعد أن أصابك الخير منه . . ولكنك لا تدعو مثلا لإنسان أخذ بيدك إلى خمارة أو إلى فاحشة أو إلى منكر . . بل تدعو لمن أعطاك خيرا فإن استجاب الله لك فهو من عمله .

الله سبحانه وتعالى يقول إن ما كان يعمله من سبقكم من الأمم لا تسألون عنه . . وإن كنتم تدعون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا نقل لكم أنتم لن تسألوا عما كان يعمل إبراهيم ولكن عليكم أنفسكم . . السؤال يكون عن عملكم .

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)

عندما تأتي قالوا فمعناها إن الذين قالوا جماعة . . الذين قالوا هم اليهود والنصارى . ولكن كلا منهم قال قولا مختلفا عن الآخر . . قالت اليهود كونوا هودا . وقالت النصارى كونوا نصارى . . ونحن عندنا عناصر ثلاثة : اليهود والنصارى والمشركون . ويقابل كل هؤلاء المؤمنون . . { وَقَالُواْ كُونُواْ } من المقصود بالخطاب؟ المؤمنين . . أو قد يكون المعنى وقالت اليهود للمؤمنين والمشركين والنصارى كونوا هودا . . وقالت النصارى لليهود والمشركين والمؤمنين كونوا نصارى . . لأن كل واحد منهما لا يرى الخير إلا في نفسه . . ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى وتوراته الصحيحة ، وأخذ من المسيحية عيسى وإنجيله الصحيح . . وكل ما جاء به محمد

صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك أن الإسلام أخذ وحدة الصفقة الإيمانية المعقودة بين الله سبحانه وبين كل مؤمن . .

ولذلك تجد في القرآن الكريم قوله تعالى : { لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رُّسُلِهِ } [البقرة : 285]

ونلاحظ أن المشركين لم يدخلوا في القول لأنهم ليسوا أهل كتاب .

قوله تعالى : { بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } . . أي رد عليهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنني سأكون تابعا لدين إبراهيم وهو الحنيفية . . وهم لا يمكن أن يخالفوا في إبراهيم فاليهود اعتبروه نبيا من أنبيائهم . . والنصارى اعتبروه نبيا من أنبيائهم ولم ينفوا عنه النبوة ولكن كلا منهم أراد أن ينسبه لنفسه .

ما معنى حنيفا؟ إن الاشتقاقات اللفظية لابد أن يكون لها علاقة بالمعنى اللغوي . . الحنف ميل في القدمين أن تميل قدم إلى أخرى . . هو تقوس في القدمين فتميل القدم اليمنى إلى اليسار أو اليسرى إلى اليمين هذا هو الحنف . . ولكن كيف يؤتي بلفظ يدل على العوج ويجعله رمزا للصراط المستقيم؟ .

لقد قلنا إن الرسل لا يأتون إلا عندما تعم الغفلة منهج الله . . لأنه مادام وجد من أتباع الرسول من يدعو إلى منهجه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يكون هناك خير .

النفس البشرية لها ألوان . . فهناك النفس اللوامة تصنع شرا مرة فيأتي من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير . . ولكن هناك النفس الأمارة بالسوء وهي التي لا تعيش إلا في الشر تأمر به وتغري الآخرين بفعله . . إذا فسد المجتمع وأصبحت النفوس أمارة بالسوء ينطبق عليها قول الحق سبحانه : {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ } [المائدة : 79]

تتدخل السماء برسول يعالج اعوجاج المجتمع . . ولكن الله تبارك وتعالى وضع عنصر الخيرية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة .

قال تعالى : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ بالله وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكتاب لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ مّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون }

[آل عمران : 110]

إذن فقد ائتمن الله تبارك وتعالى أمة محمد على المنهج . . ومادام فيها من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فلن يأتي رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

نعود إلى قوله تعالى حنيفا . . قلنا إن الحنف هو الاعوجاج . . ونقول إن الاعوجاج عن المعوج اعتدال . . والرسل لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل في المجتمع . . ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال . . لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال . .

وقوله تعالى : « حنيفا » تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج

الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال . . والهداية عند اليهود والنصارى مفهومها تحقيق شهوات نفوسهم لأن بشرا يهدي بشرا . . والله سبحانه وتعالى قال : { وَلَنْ ترضى عَنكَ اليهود وَلاَ النصارى حتى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ } [البقرة : 120]
ولقد تعايش رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة مع اليهود ولكنهم حاربوه ولم يرضوا عنه . . وإبراهيم عليه السلام كان مؤمنا حقا ولم يكن مشركا . .

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)

هذه الآية الكريمة تعطينا تفسيرا لقوله تعالى : { مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ } . . إيمان بالله وحده لا شريك له . . إيمان بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل لإبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى أي التوراة وما أوتي عيسى أي الإنجيل وما أوتي النبيون بالإجمال . . فالبلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم حتى الآن هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . ووحدة الكون بأن الله هو الخالق وهو المدبر وكل شيء يخرج عن الألوهية لله الواحد الأحد . . وأن كل شيء يخرج عن ذلك يكون من تحريف الديانات السابقة هو افتراء على الله سبحانه لا نقبله .
قوله تعالى : { قولوا آمَنَّا بالله وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا } وهو القرآن الكريم . ولا يمكن أن يعطف عليه ما يصطدم معه . . ولذلك فإن ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط هذه ملة إبراهيم . . وهذا يؤكد لنا أن ملة إبراهيم من وحي الله إليه . . والرسالات كلها كما قلنا تدعو لعبادة الله الواحد الواحد الذي لا شريك له .
وقوله تعالى : { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } . . أي أن إبراهيم كان مسلما وكل الأنبياء كانوا مسلمين وكل ما يخالف ذلك من صنع البشر . . ومعنى الإسلام أن هناك مسلما ومسلما إليه هو الله عز وجل . ونحن نسلم له في العبودية سبحانه وفي اتباع منهجه . . والإنسان لا يسلم وجهه إلا لمن هو أقدر منه وأعلم منه وأقوى منه ولمن لا هوى له . . فإن تشككت في أحد العناصر فإسلامك ليس حقيقة وإنما تخيل . . وأنت لا تسلم زمامك لله سبحانه وتعالى إلا وأنت متأكد أن قدراته سبحانه فوق قدرات المخلوقين جميعا ، وأنه سبحانه غني عن العالمين ، ولذلك فإنه غير محتاج إلى ما في يدك بل هو يعطيك جل جلاله من الخير والنعم ولا يوجد إلا الوجود الأعلى لتسلم وجهك له .

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)

نقول إن السؤال الذي يطرح نفسه بالنسبة لهذه الآية . . هل لِما آمنا به مثل حتى يؤمنوا به؟ إنك لكي تؤمن لابد أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . . فهل إذا قالها أحد بعدك يكون قال ما قلته أم مثل ما قلته؟ يكون قال مثل ما قلت . أي إنني حين أعلن إيماني وآخذ الشهادة التي قلتها أنت أكون قد قلت مثلها لأن ما نطقت به لا يفارقك أنت . . ولكني إذا صنعت شيئا وقلت لغيري إصنع مثله ، هو سيصنع شيئا جديدا ولن يصنع ما صنعته أنا .

الشيء نفسه حين تقول لي : تصدق بمثل ما تصدق به فلان . لن تكون الصدقة هي المال نفسه بل تكون مثله . نقول لمن يردد هذا الكلام : إنك لم تفهم المعنى إيمانهم أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وإيمان غيرهم أن يقولوا مثل هذه العبارة أي أن يعلنوا إيمانهم مثلنا بالله ورسوله . . فالمثل هنا يرتبط بالشهادة وكل من آمن بالإسلام نطق بالشهادتين مثل من سبقوه في الإيمان . فالمثلية هنا في العبارة وإيمانهم هو أن يقولوا مثل ما قلنا .

يقول الحق تبارك وتعالى : { فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَآ آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهتدوا } أي اهتدوا إلى الحق . . { وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ } وتولوا يعني أعرضوا . وشقاق يعني خلافا معكم وخلافا مع بعضهم البعض؛ فلكل منهم وجهة نظر يدعيها ، وهداية اخترعها . . حتى إذا التقوا في الكفر فلن يلتقوا في أسباب الكفر كل واحد اتخذ سببا ولذلك اختلفوا . . والشقاق من المشقة والنزاع والمشاجرة ، والشق هو الفرقة بين شيئين .

وقوله تعالى : { فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله } أي لا تلتفت إلى معاركهم ولا إلى حوارهم فالله يكفيك بكل الوسائل عمن سواه واقرأ قوله سبحانه : { أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر : 36]

الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم إذا حاول اليهود والنصارى والمنافقون أن يكيدوا لك ويؤذوك والمؤمنين ، فالله سبحانه وتعالى يكفيك لأنه عليم سميع بصير لا يخفى عليه شيء . . ولقد حاول اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة وحاولوا إيذاءه بالسحر فأبطل الله كيدهم وأظهر ما خفي منه وأطلع رسوله عليه . . فمهما استخدموا من وسائل ظاهرة أو خفية فسيكفيك الله شرها ولذلك قال تعالى : { فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السميع العليم } . . أي سميع بما يقال ، عليم بما يدبرونه . بل يعلم ما في صدورهم قبل أن ينطقوا به . . فلا تعتقد أن شيئا يفوت على الله سبحانه أو يفلت منه . إن كل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه ، وكل كيد قبل أن يتم هو محبطه . فإذا كان الله سبحانه وتعالى معك فماذا تخشى؟ وممن تخاف؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يصل إليك؟ . وأنت معك عليم بكل ما سيحدث حتى يوم القيامة وبعد يوم القيامة . . ومادام معك القوي الذي لا يضعف أبدا والحي الذي لا يموت أبدا والعليم بكل شيء فلا تخشى أحدا لأنك في أمان الله سبحانه .

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)

ما هي الصبغة؟ الصبغة هي إدخال لون على شيء بحيث يغيره بلون آخر . . تصبغ الشيء أحمر أو أزرق أو أي لون تختاره . والصبغ ينفذ في المصبوغ خاصة إذا كان المصبوغ له شعيرات مسام كالقطن أو الصوف . . ولذلك فإن الألياف الصناعية لا يمكن أن تصبغ لماذا؟ لأن شعرة القطن أو الصوف أشبه بالأنبوبة في تركيبها .

وإذا جئنا بقنديل من الزيت ووضعنا فيه فتيلا من القطن بحيث يكون رأس الفتيل في الزيت ثم تشغله من أعلاه نجد أن الزيت يسري في الأنابيب ويشعل الفتيل . . فإذا جربنا هذا في الألياف الصناعية فلا يمكن أن يسري فيها الزيت وإنما النار تأكل الألياف لأنه ليس فيها أنابيب شعرية كالقطن والصوف . . ولذلك تجد الألياف الصناعية سهلة في الغسيل لأن العرق لا يدخل في مسامها بينما الملابس القطنية تحتاج لجهد كبير لأن مسامها مشبعة بالعرق والتراب .

إذن الصبغة لابد أن تتدخل مادتها من مسام القماش . . أما الطلاء فهو مختلف . إنه طبقة خارجية تستطيع أن تزيلها . . ولذلك فإن الذين يفتون في طلاء الأظافر بالنسبة للسيدات ويقولون إنه مثل الحناء نقول لهم لا . . الحناء صبغة تتخلل المادة الحية وتبقى حتى يذهب الجلد بها أي لا تستطيع أن تزيلها عندما تريد . . ولكن الطلاء يمكن أن تزيله في أي وقت ولو بعد إتمامه بلحظات . . إذن فطلاء الأظافر ليس صبغة .

قوله سبحانه : { صِبْغَةَ الله } فكأن الإيمان بالله وملة إبراهيم وما أنزل الله على رسله هي الصبغة الإلهية التي تتغلغل في الجسد البشري . . ولماذا كلمة صبغة؟ حتى نعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله . . إنه ليس صبغة من خارج جسمك ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب موجودة فيه ساعة الخلق . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه »

فكأن الإيمان صبغة موجودة بالفطرة . . إنها صبغة الله . . فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة . وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أي يأخذانه ويضعانه في ماء ويقولون صبغناه بماء المعمودية . . هذا هو معنى صبغة الله .

ويريد الحق سبحانه أن يبين لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا . . هذا الاختلاف في اللون من صبغة الله . . اختلاف ألوان البشر ليس طلاء وإنما في ذات التكوين . . فيكون هذا أبيض وهذا أسمر وهذا أصفر وهذا أحمر ، هذه هي صبغة الله . . وما يفعلونه من تعميد للطفل لا يعطي صبغة .

لأن الإيمان والدين لا يأتي من خارج الإنسان وإنما يأتي من داخله . . ولذلك فإن الإيمان يهز كل أعضاء الجسد البشري . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً

مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر : 23]

هذا هو التأثير الذي يضعه الله في القلوب . . أمر داخلي وليس خارجيا . . أما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجي وليس صبغة لأنهم تركوا صبغة الله . . ونقول لهم : لا . هذا الطلاء من عندكم أنتم ، أما ديننا فهو صبغة الله . .

وقوله تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً } . . استفهام لا يمكن أن يكذبوه ولكن الجواب يأتي على وفق ما يريده السائل سبحانه من أنه لا يوجد من هو أحسن من الله صبغة .

وقوله تعالى : { وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ } أي مطيعون لأوامره والعابد هو من يطيع أوامر الله ويجتنب ما نهى عنه .

والأوامر دائما تأتي بأمر فيه مشقة يطلب منك أن تفعله والنهي يأتي عن أمر محبب إلى نفسك هناك مشقة أن تتركه . . ذلك أن الإنسان يريد النفع العاجل ، النفع السطحي ، والله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى النفع الحقيقي . . النفع العاجل يعطيك لذة عاجلة ويمنحك نعيما دائما في الآخرة وتمتعا بقدرات الله سبحانه وتعالى . .

وأنت حين تسمع المؤذن ولا تقوم للصلاة لأنها ثقيلة على نفسك قد أعطيت نفسك لذة عاجلة كأن تشغل نفسك بالحديث مع شخص أو بلعب الطاولة أو بغير ذلك . . وتترك ذلك النفع الحقيقي الذي يقودك إلى الجنة . . ولذلك قال الله سبحانه : { إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين * الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ } [البقرة : 45-46]

إذن العبادة أمر ونهي . . أمر يشق على نفسك فتستثقله ، ونهى عن شيء محبب إلى نفسك يعطيك لذة عاجلة ولذلك تريد أن تفعله . .

إذن فقوله تعالى : { وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ } . . أي مطيعون لأوامره لأننا آمنا بالآمر إلها وربا يعبد . . فإذا آمنت حبب الله إليك فعل الأشياء التي كنت تستثقلها وسهل عليك الامتناع عن الأشياء التي تحبها لأنها تعطيك لذة عاجلة . . هذه هي صبغة الله التي تعطينا العبادة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى : { واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان أولئك هُمُ الراشدون } [الحجرات : 7]

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى بصبغة الإيمان يحبب إلينا الخير ويجعلنا نبغض الشر . . لا عن رياء ونفاق خارج النفس كالطلاء ولكن كالصبغة التي تتخلل الشيء وتصبح هي وهو شيئا واحدا لا يفترقان . .

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139)

تحديد الأمر بِقُلْ إيقاظ لمهمة التكليف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والله سبحانه وتعالى حين يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام قل كان يكفي أن يقول ما يريده سبحانه . . فأنت إذا قلت لابنك اذهب إلى أخيك وقل له أبوك يأمرك بكذا فيذهب الولد ويقول هذا الكلام دون أن يقول كلمة قل . . ولكن خطاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة قل تلفتنا إلى أن هذا الأمر ليس من عنده ولكنه من عند الله سبحانه ، ومهمة الرسول هي البلاغ . إن تكرار كلمة « قل » في الآيات هي نسبة الكلام المقول إلى عظمة قائله الأول وهو الله تبارك وتعالى . . فالكلام ليس من عند رسول الله ولكن قائله هو الله جل جلاله .

قوله تعالى : { قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ } . . المحاجة معناها حوار بالحجة ، كل من المتحاورين يأتي بالحجة التي تؤيد رأيه أو وجهة نظره . . وإذا قرأت قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ } [البقرة : 258]

أي قال كل منهما حجته . . ولابد أن يكونا خصمين كل منهما يعاند رأيه الرأي الآخر وكل يحاول أن يأتي بالحجة التي تثبت صدق كلامه فيرد عليه خصمه بالحجة التي تهدم هذا الكلام وهكذا .

قوله تعالى : { أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ } . . ومادام الله رب الجميع كان من المنطق أن نلتقي لأنه ربي وربكم حظنا منه سواء . . ولكن مادامت قد قامت الحجة بيننا فأحدنا على باطل . . واقرأ قوله سبحانه : { والذين يُحَآجُّونَ فِي الله مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } [الشورى : 16]

والمحاجة لا يمكن أن تقوم بين حق وحق وإنما تقوم بين حق وباطل وبين باطل وباطل . . لأن هناك حقا واحدا ولكن هناك مائة طريق إلى الباطل . . فمادامت المحاجة قد قامت بيننا وبينكم ونحن على حق فلابد أنكم على باطل . . وليحسم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة ويمنع الجدل والجدال قال سبحانه : { وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } . . أي لا نريد جدلا لأن الجدل لن يفيد شيئا . . نحن لنا أعمالنا وأنتم لكم أعمالكم وكل عمل سيجازى صاحبه عليه بمدى إخلاصه لله . . ونحن أخلصنا العبادة لله وحدة وأنتم اتجهتم بعبادتكم إلى ما تحبه أهواؤكم . إن الله سبحانه وتعالى الذي هو ربنا وربكم لا يفضل أحدا على أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه الله . . ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولا وقد يكون العمل واحدا أمام الناس . . هذا يأخذ به ثوابا وذلك يأخذ به وزرا وعذابا فالمهم هو أن يكون العمل خالصا لله .

قد يقول إنسان إن الإخلاص في العمل والعمل مكانه القلب . . ومادام الإنسان لا يؤذي أحدا ولا يفعل منكرا فليس من الضروري أن يصلي مادامت النية خالصة . . نقول إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إنما الأعمال بالنيات »

فلابد من عمل بعد النية . . لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل ويعود على الناس . . فإذا كان في نيتك أن تتصدق وتصدقت انتفع الفقراء بمالك . . ولكن إذا لم يكن في نيتك فعل الخير وفعلته لتحصل على سمعة أو لترضي بشرا انتفع الفقراء بمالك ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقترن عملك بنية الإخلاص لله . . والعمل حركة في الحياة . والنية هي التي تعطي الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب ولذلك يقول الله جل جلاله : { إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقرآء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [البقرة : 271]

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق . . والفقير سينتفع بالصدقة سواء كانت نيتك أن يقال عنك رجل الخير المتصدق . . أو أن يقال عنك رجل البر والتقوى أو أن تخفي صدقتك . . فالعمل يفعل فينتفع به الناس سواء أردت أو لم ترد .

أنت إذا قررت أن تبني عمارة ، النية هنا هي التملك . ولكن انتفع ألوف الناس بهذا العمل ابتداء من الذي باع لك قطعة الأرض والذي أعد لك الرسم الهندسي وعمال الحفر والذي وضع الأساس ومن قام بالبناء وغيرهم وغيرهم . . هؤلاء انتفعوا من عملك برزق لهم . . سواء أكان في بالك الله أم لم يكن في بالك الله فقد انتفعوا .

إذن فكل عمل فيه نفع للناس أردت أو لم ترد . . ولكن الله لا يجزي على الأعمال بإطلاقها وإنما يجزي على النيات بإخلاصها . . فإن كان عملك خالصا لله جزاك الله عليه . . وإن كان عملك لهدف آخر فلا جزاء لك عند الله لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك .

إن الذين يتعجبون من أن إنسانا كافرا قدم كشفاً هاماً للبشرية ولكنه لم يكن مؤمنا بالله . . يتعجبون أيعذب في النار؟ نقول نعم لأنه عمل وليس في قلبه الله . . ولذلك يجازى في الحياة الدنيا ، فتقام له التماثيل ويطلق اسمه على الميادين ويخلد اسمه في الدنيا التي عمل من أجلها . . ولكن مادام ليس في نيته الله فلا جزاء له عند الله .

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140)

اليهود والنصارى إدعوا أن الأنبياء السابقين لموسى وعيسى كانوا يهودا أو نصارى . فاليهود ادعوا أنهم كانوا يهودا . والنصارى ادعوا أنهم كانوا نصارى ، الله سبحانه وتعالى يرد عليهم بقوله : { قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ الله } .

والسؤال هنا لا يوجد له إلا رد واحد لأنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم من الله . . وقلنا إنه إذا طرح سؤال في القرآن الكريم فلابد أن يكون جوابه مؤيدا بما يريده الحق سبحانه وتعالى ولا

يوجد له إلا جواب واحد . . ولذلك فإن قوله تعالى : { أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ الله } والله لاشك أعلم وهذا واقع .

إذن فكأن الله بالسؤال قد أخبر عن القضية . . ولكن يلاحظ في هذه الآية الكريمة ذكر إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط . . وفي ذكر إسماعيل دائما مع اسحق ويعقوب يدل على وحدة البلاغ الإيماني عن الله؛ لأن إسماعيل كان في أمة العرب واسحق ويعقوب كانا في بني إسرائيل .

والحق سبحانه وتعالى يتحدث عن وحدة المصدر الإيماني لخلقه؛ لأنه لا علاقة أن يكون إسماعيل للعرب واسحق لغير العرب بوحدة المنهج الإلهي . ولذلك تقرأ قول الحق تعالى : { قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إلها وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة : 133] والله الذي بعث إسماعيل هو الله الذي بعث اسحق إله واحد أحد . . ومادام الإله واحداً فالمنهج الإيماني لابد أن يكون واحدا . . فإذا حدث خلاف فالخلاف من البشر الذين يحرفون المنهج ليحققوا شهوات ومكاسب لهم . . وكل نفس لها ما كسبت فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يضيف إليكم شيئا في الآخرة . . إن كانوا مؤمنين فلن ينفعكم أن تكفروا وأن تقولوا نحن ننتسب إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . وإن كانوا غير ذلك فلا يضركم شيئا .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)

بعض الناس يقول إن هذه الآية مكررة فقد تقدمتها آية تقول : { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إلها وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [البقرة : 133-134]

بعض السطحيين يقولون إن في هاتين الآيتين تكرارا . . نقول إنك لم تفهم المعنى . . الآية الأولى تقول لليهود إن نسبكم إلى إبراهيم واسحق لن يشفع لكم عند الله بما حرفتموه وغيرتموه في التوراة . . وبما تفعلونه من غير ما شرع الله . فاعملوا أن عملكم هو الله ستحاسبون عليه وليس نسبكم .

أما في الآية التي نحن بصددها فقد قالوا إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى . . الله تبارك وتعالى لا يجادلهم وإنما يقول لهم لنفرض وهذا فرض غير صحيح إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى فهذا لن يكون عذرا لكم . . لأن لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم ، فلا تأخذوا ذلك حجة على الله يوم القيامة . . ولا تقولوا إننا كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى أي كانوا على غير دين الإسلام لأن هذه حجة غير مقبولة . . وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذي يشهد بأنهم كانوا مسلمين .

إياك أن تقول إن هناك تكراراً . . فإن السياق في الآية الأولى يقول لا شفاعة لكم يوم القيامة في نسبكم إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . والسياق في الآية الثانية يقول لا حجة لكم يوم القيامة في قولكم إنهم كانوا هودا أو نصارى . . فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يقبل الله حجتكم . . وهكذا فإن المعنى مختلف تماما يمس موقفين مختلفين يوم القيامة .

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142)

هذه الآية نزلت لتصفي مسألة توجه محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس . . وهذا أول نسخ في القرآن الكريم . . يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطيه العناية اللائقة؛ لأنه سيكون مثار تشكيك وجدل عنيف من كل من يعادي الإسلام؛ فكفار قريش سيأخذون منه ذريعة للتشكيك وكذلك المنافقون واليهود .

الله تبارك وتعالى يريد أن يحدد المسألة قبل أن تتم هذه التشكيكات . . فيقول جل جلاله : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا } . . حرف السين هنا يؤكد إنهم لم يقولوا بعد . . ولذلك قال سبحانه : { سَيَقُولُ السفهآء } فقبل أن يتم تحويل القبلة قال الحق تعالى : إن هذه العملية ستحدث هزة عنيفة يستغلها المشككون .

وبرغم أن الله سبحانه وتعالى قال : { سَيَقُولُ السفهآء } . . أي أنهم لم يقولوها إلا بعد أن نزلت هذه الآية . . مما يدل على أنهم سفهاء حقا؛ لأن الله جل جلاله أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم في قرآن يتلى ويصلى به ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . قال : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس } . . فلو أنهم امتنعوا عن القول ولم يعلقوا على تحويل القبلة لكان ذلك تشكيكا في القرآن الكريم . . لأنهم في هذه الحالة كانوا يستطيعون أن يقولوا : إن قرآنا أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . قال : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ } . . ولم يقل أحد شيئا . .

ولكن لأنهم سفهاء فعلا . . والسفه جهل وحمق وطيش قالوها . . فكانوا وهم الكافرون بالقرآن الذين يريدون هدم هذا الدين من المثبتين للإيمان الذين تشهد أعمالهم بصدق القرآن . لأن الله سبحانه قال : { سَيَقُولُ السفهآء } وهم قالوا فعلا . . ولقد قال كفار مكة عن الكعبة إنها بيتنا وبيت آبائنا وليست بيت الله . . فصرف الله رسوله في أول الإسلام ووجهه إلى بيت المقدس . . وعندئذ قال اليهود : يسفه ديننا ويتبع قبلتنا . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يحتوي الإسلام كل دين قبله فتكون القداسة للكل . . ولذلك أسرى برسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . . حتى يدخل بيت المقدس في مقدسات الإسلام لأنه أصبح محتوى في الإسلام .

ولم يشأ الله أن يجعل القبلة إلى الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكانوا

يضعون فيها أصنامهم . . ووضع الأصنام في الكعبة شهادة بأن لها قداسة في ذاتها . . فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يحموا هذه الأصنام فوضعوها في الكعبة .

. لماذا لم يضعوها في مكان آخر؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام .
والله سبحانه وتعالى حين قال : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا } . . وَلاّه يعني حرفه ورده . . والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس . . وهنا يأتي الحق برد جامع هو أن أوامر الله الإيمانية لا ترتبط بالعلة . . إنما علة التنفيذ فيما يأمرنا الله سبحانه به جل جلاله أن الله هو الآمر . . ولو أن الحق تبارك وتعالى بين لنا السبب أو العلة في تغيير القبلة لما كان الأمر امتحانا للإيمان في القلوب . . لأن الإيمان والعبادة هي طاعة معبود فيما يأمر وما ينهي . . يقول لك الله عظم هذا الحجر وهو الحجر الأسود الموجود في الكعبة وتعظمه بالاستلام والتقبيل . . ويقول لك : ارجم هذا الحجر الذي يرمز إلى إبليس فترجمه بالحصى ، ولا يقول الله سبحانه لماذا؟ لأنه لو قال لماذا ضاع الإيمان هنا وأصبح الأمر مسألة إقناع واقتناع .
فأنا حين أقول لك لا تأكل هذا لأنه مر وكل هذا لأنه حلو يكون السبب واضحا . . ولكن الله تبارك وتعالى يقول لك كل هذا ولا تأكل هذا . . فإن أكلت مما حرمه تكون آثما . وإن امتنعت تكون طائعا وتثاب .
إذن العلة الإيمانية هي أن الأمر صادر من الله سبحانه . . ولو أنك امتنعت عن شرب الخمر لأنها ضارة بالصحة أو تفسد الكبد فلا ثواب لك ، ولو امتنعت عن أكل لحم الخنزير لأن فيه كمية كبيرة من الكولسترول وله مضار كثيرة فلا ثواب لك . . ولكنك لو امتنعت عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن الله حرمهما . . فهذه هي العبادة وهذا هو الثواب .
الله سبحانه وتعالى أراد أن يرد على هؤلاء السفهاء فقال : { قُل للَّهِ المشرق والمغرب يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } . . أي أنك إذا اتجهت إلى بيت المقدس أو اتجهت إلى الكعبة أو اتجهت إلى أي مكان في هذا الكون فالله موجود فيه . . فبيت المقدي ليس له خصوصية بذاته ، والكعبة ليس لها خصوصية بذاتها . . ولكن أمر الله تبارك وتعالى هو الذي يعطيهما هذه الخصوصية . . فإذا اتجهنا إلى بيت المقدس فنحن نتجه إليه طاعة لأمر الله . . فإذا قال الله سبحانه اتجهوا إلى الكعبة اتجهنا إليها طاعة لأمر الله .
قوله تعالى : { يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } . . الصراط هو الطريق المستقيم لا التواء فيه بحيث يكون أقرب المسافات إلى الهدف . والله سبحانه وجهنا لبيت المقدس فهو صراط مستقيم نتبعه . . وجهنا إلى الكعبة فهو صراط مستقيم نتبعه . . فالأمر لله .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)

ساعة ترى كذلك فهناك تشبيه . . الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتنبه إلى نعمته في أنه جعلنا أمة وسطاً . . فكل ما يشرعه الله يدخل في باب النعم على المؤمنين . . وإذا كان الاتجاه إلى الكعبة هو اختبار لليقين الإيماني في نفوس المسلمين . . فإنه سبحانه جعلنا أمة وسطا نعمة منه ، ومادمنا وسطا فلابد أن هناك أطرافا حتى يتحدد الوسط . . هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر . . ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين .

ولكن ما معنى أمة وسطا؟ وسط في الإيمان والعقيدة . فهناك من أنكروا وجود الإله الحق . . وهناك من أسرفوا فعددوا الآلهة . . هذا الطرف مخطئ وهذا الطرف مخطئ . . أما نحن المسلمين فقلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحد أحد . . وهذه بديهية من بديهيات هذا الكون . . لأن الله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كل ما فيه وقال سبحانه إنه خلق . . ولم يأت ولن يأتي من يدعي الخلق . . إذن فالدعوى خالصة لله تبارك وتعالى . . ولو كان في هذا الكون آلهة متعددة لادعى كل واحد منهم الخلق . . ولذلك فإن الله جل جلاله يقول : { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ } [المؤمنون : 91]

أي لتنازع الخلق ولاضطرب الكون . . فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدد الآلهة . . على أن هناك أناساً يسرفون في المادية ويهملون القيم الروحية . . وأناساً يهملون المادة ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها .

واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين لأن عندهم المال والقوة . . الإسلام جاء وسطا فيه المادة والروح . . وإياك أن تقول أن الروح أحسن من المادة أو المادة أحسن من الروح . . فالمادة وحدها والروح وحدها مسخرة وعابدة ومسبحة لله تعالى . . لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس ، والنفس هي التي لها اختيار تطيع أو تعصي . . تعبد أو تكفر والعياذ بالله .

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء . . وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ولا المادة وحدها . . وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء . . فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وسطا تجمع خير الطرفين نعرف أن الدين جاء ليعصم البشر من أهواء البشر .

الله تبارك وتعالى يريدنا أن نبحث في ماديات الكون بما يخلق التقدم والرفاهية والقوة للبشرية . .

فما هو مادي معملي لا يختلف البشر فيه . . لكن ما يدخل فيه أهواء البشر ستضع السماء لكم قانونه . . فإذا عشتم بالأهواء ستشقون .

. وإذا عشتم بنظريات السماء ستسعدون .

قد يتساءل البعض هل الشيوعية التي جاءت منذ أكثر من نصف قرن ارتقت بشعوبها أم لا؟ نقول انظروا إليها الآن لقد بنت ما ادعته من ارتقاءات على الكذب والزيف . . ثم تراجعت ثم انهارت تماما . . وكما انهارت الشيوعية ستنهار الرأسمالية لأنهما طرفان متناقضان إنما نحن أمة وسطا . . ولذلك أعطانا الله سبحانه خيري الدنيا والآخرة .

الحق سبحانه يقول : { لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس } . . أي أن الحجة ستكون لكم في المستقبل . . وسيضطر العالم إلى الرجوع إلى ما يقننه دينكم . . والله تبارك وتعالى قال : { أُمَّةً وَسَطاً } ولم يقل الوسط بكسر الواو أي المنتصف حتى لا يقال إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماما . . ولكن بعضهم سيميل قليلا إلى هذه الناحية أو تلك بحيث يتم اللقاء . .

ولذلك عندما يقولون نأخذ أموال الأغنياء ونوزعها على الفقراء . . نقول لهم وعندما يأتي فقير في المستقبل . . من أين تعطيه بعد أن قضيت على الأغنياء؟ .

وقد سمعت من شخص له تجربة في السياسة والحكم . . قال إن الذي كان يعمل معي وأضاع ماله كله على الخمر والقمار والنساء كان أحسن مني . . لأنني احتفظت بأموالي ونميتها فقالوا إنك إقطاعي وصادروها . . بينما ذلك الذي أسرف لم يفعلوا به شيئا . . قلت إن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تنمي مالك . . لأنك إن لم تنمه ودفعت عنه زكاة 2 . 5% فالمال يفنى خلال أربعين سنة . . ولكن إذا نميت مالك وجاءوا إلى ناتج عملك وأخذوه بدعوى أنك إقطاعي فإنهم يقضون على العمل في المجتمع . . لأنه إذا كنت ستأخذ ناتج عمله بدون حق فلماذا يعمل؟ إن الإسلام جاء ليزيد مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك . . ليأخذ من ماله زكاة ويعين غير القادر حتى لا يحقد على المجتمع . . هذا وسط .

وقوله تعالى : { لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس } . . فكأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه ستحدث في الكون معركة لن يفصل فيها إلا شهادة هذه الأمة . . فاليمين أو الرأسمالية على خطأ ، والشيوعية على خطأ . . أما منهج الله الذي وضع الموازين القسط للكون ولحياة الإنسان فهو الصواب . . ثم يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيدا علينا .

. هل كان عملنا وتحركنا مطابقا لما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام لنا؟ أم أننا اتبعنا أهواءنا وانحرفنا عن المنهج .

الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا في هذه النقطة . . تلك الآية وإن كانت قد بشرت الأمة الوسط بأن العالم سيعود إلى حكمها ، فذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا سادت

شهادة الحق والعدل فيها :

وقوله تعالى : { وَمَا جَعَلْنَا القبلة التي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ } .

. هذه عودة إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . . الله تبارك وتعالى لا يفضل اتجاها على اتجاه . . ولذلك فإن الذين يتجهون إلى الكعبة ستختلف اتجاهاتهم حسب موقع بلادهم من الكعبة . . هذا يتجه إلى الشرق . وهذا يتجه إلى الشمال الشرقي . . وهذا يتجه إلى الجنوب الغربي .

إنه ليس هناك عند الله اتجاه مفضل على اتجاه . . ولكن تغيير القبلة جعله الله سبحانه اختبارا إيمانيا ليس علم معرفة ولكن علم مشهد . . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم . . ولكنه جل جلاله يريد أن يكون الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة . . ولكنه اختبار إيماني ليعلم الله مدى إيمانكم ومن سيطيع الرسول فيما جاءه من الله ومن سينقلب على عقبيه . . فكأن أمر تحويل القبلة سيحدث هزة إيمانية عنيفة في المسلمين أنفسهم . . فيعلم الله من يستمر في إيمانه واتباعه لرسول الله . . ومن سيرفض ويتحول عن دين الإسلام .

وقوله تعالى : { وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الذين هَدَى الله } . . والله يريد هنا العلم الذي سيكون شهيدا على الناس يوم القيامة . . وعملية الابتلاء أو الاختبار في تغيير القبلة عملية شاقة . . إلا على المؤمنين الذين يرحبون بكل تكليف . . لأنهم يعرفون أن الإيمان هو الطاعة ولا ينظرون إلى علة الأشياء .

ولكن الكفار والمنافقين واليهود لم يتركوا عملية تحويل القبلة تمر هكذا فقالوا : إن كانت القبلة هي الكعبة فقد ضاعت صلاتكم أيام اتجهتم إلى بيت المقدس . . وإن كانت القبلة هي بيت المقدس فستضيع صلاتكم وأنتم متجهون إلى الكعبة .

نقول لهم لا تعزلوا الحكم عن زمنه . . قبلة بيت المقدس كانت في زمنها والكعبة تأتي في زمنها . . لا هذه اعتدت على هذه ولا هذه اعتدت على هذه . . ولقد مات أناس من المؤمنين وهم يصلون إلى بيت المقدس فقام المشككون وقالوا صلاتهم غير مقبولة . . ورد الله سبحانه بقوله : { وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } . . لأن الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس كانوا مطيعين لله مؤمنين به فلا يضيع الله إيمانهم .

وقوله تعالى : { إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ } . . أي تذكروا أنكم تؤمنون برب رءوف لا يريد بكم مشقة . . رحيم يمنع البلاء عنكم .

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)

نحن نعلم أن « قد » للتحقيق . . و « نرى » . . فعل مضارع مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . أنه يحب ويشتاق أن يتجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس . . وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحي من علو . . فكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتجه ببصره إلى السماء مكان إيتاء الوحي . . ولا يأتي ذلك إلا إذا كان قبله متعلقا بأن يأتيه الوحي بتغيير القبلة . . فكأن هذا أمر شغله .

إن الله سبحانه يحيط رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجه رسوله الكريم في السماء وأجابه ليتجه إلى القبلة التي يرضاها . . فهل معنى ذلك أن القبلة التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بيت المقدس لم يكن راضيا عنها؟ نقول لا . . وإنما الرضا دائما يتعلق بالعاطفة ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل . . ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن راضيا عن قبلة بيت المقدس . . وإنما كان يتجه إلى بيت المقدس وفي قلبه عاطفة تتجه إلى الكعبة . . هذا يدل على الطاعة والالتزام .

الله يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : { فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا } أي تحبها بعاطفتك . . ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان يتطلع إلى هذا التغيير ، فكأن عواطفه صلى الله عليه وسلم اتجهت لتضع مقدمات التحويل .

قال الله تعالى : { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام } . . والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة ، والشطر معناه النصف . . وكلا المعنيين صحيح لأنه حين يوجد الإنسان في مكان يصبح مركزاً لدائرة ينتهي بشيء اسمه الأفق وهو مدى البصر . . وما يخيل إليك عنده أن السماء انطبقت على الأرض .

إن كل إنسان منا له دائرة على حسب نظره فإذا ارتفع الإنسان تتسع الدائرة . . وإذا كان بصره ضعيفا يكون أفقه أقل ، ويكون هو في وسط دائرة نصفها أمامه ونصفها خلفه .

إذن الذي يقول الشطر هو النصف صحيح والذي يقول أن الشطر هو الجهة صحيح .

وقوله تعالى : { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام } . . أي اجعل وجهك جهة المسجد الحرام أو اجعل المسجد الحرام في نصف الدائرة التي أمامك . . وفي الزمن الماضي كانت العبادات تتم في أماكن خاصة . . إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الله له الأرض كلها مسجدا .

إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمي المكان الذي نصلي فيه مسجدا .

. ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصورا على الصلاة لله ولا تزاول فيه شيئا آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة . . أما المكان الذي تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه . . والكعبة بيت الله . باختيار الله . وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله . . ولذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

وقوله تعالى : { وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ } يعني أينما كنتم . . { فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } . . لأن الآية نزلت وهم في مسجد بني سلمة بالمدينة فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام . . وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل في هذا المسجد فقط وفى الوقت الذي نزلت فيه الآية فقط قال تعالى : { وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } . .

وقوله جل جلاله : { وَإِنَّ الذين أُوتُواْ الكتاب لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } . . أي أن الذين أوتوا الكتاب ويحاولون التشكيك في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل . . ويعلمون أنه صاحب القبلتين . . ولو لم يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلى الكعبة . . لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم يصلي إلى قبلتين فلماذا لم تتحقق؟ ولكان هذا أدعى إلى التشكيك .

إذن فالذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم . . لأنه في التوراة أن الرسول الذي سيجيء وسيتجه إلى بيت المقدس ثم يتجه إلى البيت الحرام . . فكأن هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سببا في زعزعة اليقين .

وقوله تعالى : { وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } . . يريد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر . . فموقفهم ليس لطلب الحجة ولكن للمكابرة . . فهم لا يريدون حجة ولا دليلا إيمانياً . . ولكنهم يريدون المكابرة .

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145)

اتباع القبلة مظهر إيماني في الدين ، فمادمت آمنت بدينك فاتبع قبلتك . . لا أؤمن بدينك لا اتبع قبلتك .

وقوله تعالى : { وَلَئِنْ أَتَيْتَ } ساعة تسمع « ولئن » واو ولام وإن . . هذا قسم . فكأن الحق

تبارك وتعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ولا اتبعوا قبلته . . لماذا؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد . . ولو كانوا يريدون دليلا أو اقتناعا لوجدوه في كتبهم التي أنبأتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم وأعطتهم أوصافه . . فكأن الدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفها وعنادا ومكابرة .

وقوله تعالى : { وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ } . . فكأنه حين جاءت الآية بتغير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بين المقدس ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة . . ولكي يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون في جانب ونحن سنكون في جانب آخر . . وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم . قال سبحانه : { وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ } . . فالخلاف في القبلة مستمر إلى يوم القيامة .

وقول الحق : { وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظالمين } . . حين يخاطب اللهُ سبحانه وتعالى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الآية . . وهو يعلم أن محمدا الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم . . نقول إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله يخاطب أمته في شخصه قائلا : { وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظالمين } . . ما هي أهواء أهل الكتاب؟ هي أن يهادنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول إن ما حرفوه في كتبهم أنزله الله . . وهكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعا . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد عليه الصلاة والسلام . . إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان . . وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه فكيف يقبله من أي فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التي تفسد العقيدة كلها . . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أنه لا يتسامح فيها ولا يقبلها حتى لو حدثت من رسوله ولو أنها لن تحدث . . ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماما من الله على أي مستوى من مستويات الإيمان حتى في مستوى القمة فتبتعد أمة محمد عن مثل هذا الفعل تماما .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ **(146)**

الله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونه . . يعرفون ماذا؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة؟ أم يعرفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه

ورسالته التي يحاولون أن يشككوا فيها؟ الله سبحانه وتعالى يشرح لنا ذلك في قوله تعالى : { وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين } [البقرة : 89]

فكأن اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ومكتوب في التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به . . إن كعب الأحبار كان جالسا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان موجودا فسأله عمر أكنتم تعرفونه يا كعب؟ أي أكنتم تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ورسالته وأوصافه؟ فقال كعب وهو من أحبار اليهود . . أعرف كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد . . فلما سألوه لماذا؟ قال لأن ابني أخاف أن تكون امرأتي خانتني فيه أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فأوصافه مذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا نخطئه .

إذا فأهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمنه ورسالته . . والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا وكفروا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كتموا ما يعرفونه . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : { وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ } . . وساعة تقول كتم الشيء . . فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز وينتشر . . والحق بطبيعته لابد أن يبرز وينتشر ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى مجهود .

إن الذين يحققون في القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق . . فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة . . لأن النطق بالحق لا يحتاج إلى مجهود ، أما كتم الحق فهو الذي يحتاج إلى كجهود وقوة ، وعدم النطق بالحق عملية شاقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : { لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ } . . أي أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة . . والحق من الله فهل يستطيع هؤلاء كتمانه؟ طبعا لا ، لابد أن يظهر . . فإذا انتشر الكذب والباطل فهو كالألم الذي يحدث في الجسد . . الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئا أصابه مرض فتتجه إليه بأسباب العافية .

إن أخطر الأمراض هي التي لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد فات وقت العلاج . . والحق دائما غالب على أمره ولذلك لا توجد معركة بين حقين . . أما الباطل فتوجد معركة بين باطل وباطل . وبين حق وباطل . لأنه لا يوجد إلا حق واحد أما الباطل فكثير . .

والمعارك بين الحق والباطل تنتهي بهزيمة الباطل بسرعة . . ولكن الذي يطول هو معركة بين باطلين . . ولذلك فإن معارك العصر الحديث تطول وتتعب الدنيا . . فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلا لازالت آثارها ممتدة حتى الآن في الحرب الباردة وغير ذلك من الحروب الصغيرة . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)

الحق من الله سبحانه وتعالى . . ومادام من الله فلا تكونن من الذين يشكون في أن الحق سينتصر . . ولكن الحق لابد من قوة تحميه . . وكما يقول الشاعر :

السيف إن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا في يدي بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتار . . دون أن توجد اليد القوية التي ستضرب به . . ونحن غالبا نكون مضيعين للحق لأننا لا نوفر له القوة التي ينتصر بها .

وقوله تعالى : { فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين } . . الممتري هو الذي يشك في حدوث الشيء . . والشك معناه أنه ليست هناك نسبة تتغلب على نسبة . . أي أن الاحتمالين متساويان . . ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله . . ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل في جدل عقيم حول انتصار الحق .

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختارا . . ومن هنا فإن له الاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن . . أن ينصر الحق أو ينصر الباطل . . أن يفعل الخير أو يفعل الشر . . كل هذه اختبارات شاء الله أن يعطيها للإنسان في الدنيا بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل . . ولكن هذا لن يبقى إلى الأبد . إن هذا الاختيار موجود في الحياة الدنيا .

ولكن بشرية الإنسان تنتهي ساعة الاحتضار فعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسان مقهورا وليس مختارا . . فهو لا يملك شيئا لنفسه ولا يستطيع أن يقول لن أموت الآن . . انتهت بشريته وسيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه . . ففي الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التي يتجه إليها ، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان . . هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية ، فمادام للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر . . والذي يهديه الله يتجه إلى الخيرات وكأنه يتسابق إليها . . لماذا؟ لأنه لا يعرف متى يموت ولذلك كلما تسابق إلى خير كان ذلك حسنة أضافها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين في الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله . . لأنه كما يقول عز وجل : { أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ الله جَمِيعاً } . . أي أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى بل هو يعرف أماكنكم جميعا واحدا واحدا وسيأتي بكم جميعا مصداقا لقوله تعالى : { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً } [الكهف : 47]

وقوله سبحانه : { ففروا إِلَى الله إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } [الذاريات : 50]
أي أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقينا أننا لا نستطيع أن نفر من علمه . ولا من قدره ولا من عذابه . . وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله . . وأنه لا منجاة من الله إلا إليه . . ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله . . ولا يظن أنه لن يكون موجودا يوم القيامة أو أنه لن يحاسب أو أنه يستطيع أن يختفي .
إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من الله وأنهم لن يلاقوه . . نقول لهم إنكم ستفاجأون في الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق والجنة حق والنار حق . ستفاجأون بما سيحدث لكم . . ومن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزي والعذاب الأليم . . إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع في الخيرات لننجوا من عذابه ، ويقول لنا لن يفلت واحد منكم ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدي الله للحساب . . ولذلك ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : { إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . . أي أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء . . إنه سبحانه على كل شيء قدير .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149)

لابد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة . . أكدها ثلاث مرات متقاربة . . لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة في نفوس المؤمنين . . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيدا إيمانيا .
لقد جاء بثلاث آيات التي هي أقل الجمع . . واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد . . والثانية للمتجه وهو خارج المسجد . . والثالثة للمتجه من الجهات جميعا .
قوله تعالى : { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام } . . هو رد على المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك في الإسلام . . بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة . . على أساس أنها قضية ما كان يجب أن تتم لأنه ليس فيها زيادة في التكليف ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن . . فالجهد الذي يبذله المؤمن في الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذي يبذله في الاتجاه إلى البيت الحرام . . فأنت إذا اتجهت في صلاتك يمينا أو شمالا أو شرقا أو غربا فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة . فما هو سبب التغيير؟ .
نقول لهم إن هذه ليست حجة للتشكيك في تحويل القبلة لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة الله . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية . . يقول المولى جل جلاله : { وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } . . أي أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى . . والله عز وجل ليس غافلا عن عملكم بحيث تكونون قد

اتجهتم إلى البيت الحرام . بل الله يعلم ما تبدون وما تكتمون . . فاطمئنوا أنكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام . . واعملوا أن الله سبحانه محيط بكم في كل ما تعملون .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام . . سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة أو في أي مكان على الأرض . . وتلك هي قبلتهم في كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذين يصلون فيه .

وقوله تعالى : { لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ } . . الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى . . حجة في ماذا؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس فاتجهوا إلى المسجد الحرام . . وليس لبيت المقدس قدسية في ذاته ولا للمسجد الحرام قدسية في ذاته كما قلنا . . ولكن نحن نطيع الأمر من الآمر الأعلى وهو الله . . إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة (ظلموا) ووصفهم بأنهم الذين ظلموا . . فمن هو الظالم؟ الظالم هو من ينكر الحق أو يغير وجهته . أو ينقل الحق إلى باطل والباطل إلى حق . . والظلم هو تجاوز الحد وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم ق تجاوزوا الحق وأنكروه يقول سبحانه : { فَلاَ تَخْشَوْهُمْ } أي لا تخشوا الذين ظلموا : { واخشوني وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } . . أي أن الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشرا . . لأنه يعلم أن القوة لله جميعا . . ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحدا إلا الحق .

وقوله سبحانه : { وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } . . تمام النعمة هو الإيمان . وتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان . . فإذا هدانا الله للإيمان فهذا من تمام نعمة علينا . ولكي يكونُ الإيمان صحيحا ومقبولا فلابد أن أؤدي مطالبه والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا ، فلا نجعل التكليف ينقطع . لأن التكليف نعمة بغيرها لا تصلح حياتنا ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج الله بعشق . . وأنت حينما تأتي إلى المنهج قد يكون شاقا ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة فإنك ستخشع وتعشق التكليف . . لأنك تعرف العمل الصالح بثوابه والعمل في المعصية بعقابه . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : { واستعينوا بالصبر والصلاة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين * الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة : 45-46]

إذن الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب ، لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذي يذهب إلى المعصية عزل

المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة . . فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان . . ولذلك في حجة الوداع نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة : { اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً }

[المائدة : 3]

وكان ذلك إخبارا بتمام رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأحكام التكليفية قد انتهت . . ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك لقد عم الفساد والله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . كأنه يحكم بأن هذا في وسعه وهذا ليس في وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف . . نقول له أَكَلَّفَ الله أم لم يُكلِّف ، إن كان قد كَلّف فيكون التكليف في وسعك . . لأنه سبحانه حين يجد مشقة يأمر التخفيف مثل إباحة قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار في رمضان للمريض والمسافر فهو سبحانه قد حدد ما في وسعك .

قوله تعالى : { وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } . . الهداية هي الطريق المستقيم الموصل إلى الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هي أن تصل إلى نعيم الآخرة . . الله أعطاك في الدنيا الأسباب لتحكم حركة حياتك ولكن هذه ليست غاية الحياة . . بل الغاية أن نذهب إلى حياة بلا أسباب وهذه هي عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى . . والله جل جلاله يأتي ليعلمنا في الآخرة أنه خلقنا لنعيش في الدنيا بالأسباب وفي الآخرة لنعيش في كنفه بلا أسباب .

إذن قوله تعالى : { وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } . . أي لعلكم تنتبهون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم . . ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هي الغاية أو هي النهاية أو هي الهدف . . فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالا أو حراما باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له . . نقول لا ، إنه في هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هي في الآخرة . ولعرف أن نعيم الآخرة الذي لا تفوته ولا يفوتك . . يجب أن يكون هدفنا في الحياة الدنيا فنعمل ما نستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب في الجنة .

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)

الله جل جلاله بعد أن حدثنا عن الهداية إلى منهجه وإلى طريقه . حدثنا عن نعمته علينا بإرسال رسول يتلو علينا آيات الله . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي ستأتي على يديه قمة النعم وهو القرآن والدين الخاتم .

قوله تعالى : { رَسُولاً مِّنْكُمْ } أي ليس من جنس آخر . ولكنه صلى الله عليه وسلم رسول منكم تعرفونه قبل أن يكلف بالرسالة وقبل أن يأتي بالحجة . . لماذا؟ لأنه معروف بالخلق العظيم

وبالقول الكريم والأمانة وبكل ما يزيد الإنسان رفعة وعلوا واحتراما . . إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين يعرفونه أكثر من غيرهم . . كأبي بكر الصديق وزجته صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب . . هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا لأنهم أخذوا الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة . . فهم لم يعرفوا عنه كذبا قط . فقالوا إن الذي لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله فآمنوا . . فالله سبحانه وتعالى من رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميا ليعلمه ربه . .

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128]

الحق سبحانه يقول : { يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ } . . الآيات هي القرآن الكريم والتزكية هي التطهير ولابد أن يكون هناك دنس ليطهرهم منه . . فيطهرهم من عبادة الأصنام ومن وأد البنات والخمر والميسر والربا . . ومعنى التزكية أيضا سلب الضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر .

وقوله تعالى : { وَيُعَلِّمُكُمُ الكتاب والحكمة } . . الكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم والحكمة هي وضع الشيء في موضعه . . والكتاب يعطيك التكليف إما أن يأمرك بشيء وإما أن ينهاك عن شيء .

إذن فهي دائرة بين الفعل والترك . . والحكمة أن تفعل الفعل الذي يحقق لك خيرا ويمنع عنك الشر . وهي مأخوذة من الحكمة أو الحديدة التي توضع في فم الجواد لتحكم حركته في السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تؤدي الغرض منها والحكمة أيضا هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى : { واذكرن مَا يتلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله والحكمة } [الأحزاب : 34]

وقوله سبحانه : { وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ } لأنكم أمة أمية . فإن بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التي تجعلكم متفوقين عليهم . . فكل ما يأتيكم من السماء هو فوق كل حضارات الأرض . . لذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما عمر لولا الإسلام .

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152)

قوله تعالى : « فاذكروني » أي كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها . . أن تعيشوا دائما في ذكر من أنعم عليكم . . فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشركوه شكرهم وزادهم . . والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي :

« أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن

ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »

هذه هي رغبة الكريم في أن يعطي بشرط أن نكون أهلا للعطاء لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر . . فقوله تعالى : « اذكروني » أي اذكروا الله في كل شيء . في نعمه . في عطائه . في ستره . في رحمته . في توبته . يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسمه ثلاثا . . أول جرعة قبل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله وابدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله . . ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله . فمادام هذه الماء في جوفك فلن تحدثك ذرة من جسدك بمعصية الله . جربها يوما في نفسك وقل باسم الله واشرب ، وقل الحمد لله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد استقبلت النعمة بذكر المنعم وأبعدت عن نفسك حولك وقوتك ، وأنهيت النعمة بحمد الله . ولكن لماذا الماء؟ لأن الماء في الجوف أشبع من أي شيء آخر .

قوله تعالى : { واشكروا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ } الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يزيدك منها . واقرأ قوله تبارك وتعالى : { لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم : 7]

وشكر الله يذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب وتقول أوتيته على علم مني . { وَلاَ تَكْفُرُونِ } أي لا تستروا نعم الله بل اجعلوها دائما على ألسنتكم . . فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلت بقولك « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » لا ترى في النعمة مكروها أبدا لأنك حصنت النعمة بسياج المنعم . . أعطيت لله حقه في نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت موجدها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153)

الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة . . على ماذا؟ على كل ما يطلبه منا الله . . على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة . . ولكن لماذا الصبر؟ لأن الصبر هو منع النفس من أي شيء يحدث وهو يأخذ ألوانا شتى حسب تسامي الناس في العبادة .

فمثلا سئل الإمام علي رضي الله عنه عن حق الجار؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه؟ قالوا نعم . . قال وأن تصبر على أذاه . . فكأنه ليس مطلوبا منك فقط ألا تؤذي جارك بل تصبر على أذاه . . والصبر هو الذي يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك عنه .

إن الله منعك من أشياء هي من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه محتاجة إلى الصبر . . وأنت أن أخذت منهج الله تعبداً ستأخذه فيما بعد عادة . يقول أحد الصالحين في دعائه : اللهم إني أسألك ألا تكلني إلى نفسي فإني أخشى يا رب ألا تثبيني على الطاعة لأنني أصبحت

أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا . . انظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محببة إلى النفس . . رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لبلال ساعة الآذان :

« أرحنا بها يا بلال »

ولم يقل كما يقول بعض الناس والعياذ بالله أرحنا منها؛ ذلك أن هناك من يقول لك أن الصلاة تكون على كتفي مثل الجبل وأرتاح ، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها؛ لأنك وقفت بين يدي الله المكلف ، ومادام الإنسان واقفا أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلا .

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتي ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربي ورب العالمين . . الذي له أب يعينه لا يحمل هما فما بالك بالذي له رب يعينه وينصره .

قول الحق سبحانه : { إِنَّ اللهَ مَعَ الصابرين } أي أنه يطلب منك أن تواجه الحياة في معية الله؛ فأنت لو واجهت المشكلات في معية من تثق في قوته تواجه الأمور بشجاعة فما بالك إذا كنت في معية الله وكل شيء في الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك وأنت مع الله؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم . . وإنما من يعيش في حضانة ربه لا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خناس . . ما معنى خناس؟ إذا سهوت عن الله اجترأ عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف؛ فهو لا قوة له . . وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى في معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويبتعدون عنه يقول القرآن الكريم :

{ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 82-83]

ومادام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر . . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا؟ يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده » يقول بعض الصالحين : اللهم إني استحي أن أسألك الشفاء والعافية حتى لا يكون ذلك زهدا في معيتي لك . . إذن لابد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائماً في معية الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّ اللهَ مَعَ الصابرين } . . ونحن نريد أن يكون الله سبحانه معنا دائما . . إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقى في حركة حياته من المشقة .

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154)

الحق جل جلاله يعلم أن أحداث الإيمان وخصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة . . لا تهددهم في أموالهم فقط ولكن تهددهم في نفوسهم ، فأراد الله عز وجل أن يعطي المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث . . وأوصاهم بالصبر والصلاة يواجهون بها كل حدث يهزهم بعنف . . قال

لهم إن المسألة قد تصل إلى القتل . . إلى الاستشهاد في سبيل الله . وأراد أن يطمئنهم بأن الشهادة هي أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها في الدنيا فقال سبحانه : { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ } .

إن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان . . فأنت تصاب في مالك أو في ولدك أو في رزقك أو في صحتك ، أما أن تصاب في نفسك فتقتل فهذه هي المصيبة الكبرى . . والله سبحانه سَمَّى الموتَ مصيبة واقرأ قوله تعالى : { إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأرض فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الموت } [المائدة : 106]

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذي يقتل في سبيل الله لا يموت . . وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة فيه من النعم ما لا يعد ولا يحصى . يقول جل جلاله : { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ } .

ما هو مظهر الحياة التي يعيشونها؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذي قتل في سبيل الله ما هي حركته؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة . . لأنه سيذهب إلى حياة أسعد والموت ينقله إلى خير مما هو يعيش فيه . . فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئا وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها . . أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمي لهم منهج الله ليصل إليهم إلى أن تقوم الساعة .

إن كل المعارك التي يستشهد فيها المؤمنون إنما هي سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان في الوجود . . وعظمة الحياة ليست في أن أتحرك أنا ولكن أن اجعل مَن بعدي يتحرك . . والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره في الوجود لكل حركة من متحرك بعده . . فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيماني دافعا لتقاتل وتستشهد . فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة . . أما الكافر فإن الحياة تنتهي عنده بالموت ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث الله الناس جميعا ثم يأتي بالموت فيموت . . وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا موت إما في الجنة وإما في النار .

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن من يقتل في سبيل الله هو حي عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة .

. ولا يكتب عليه الموت في حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيدا . . ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها لأنها من حياة الآخرة . . وهي غيب عنا قال تبارك وتعالى : { وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ } . . ومادمنا لا نشعر بها فلابد أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية .

الذي استشهد في عرف الناس سلب نفسه الحياة ولكنه في عرف الله أخذ حياة جديدة . . ونحن

حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو فنقول إنه ميت أمامنا . . لابد أن تتنبه إنك لحظة فتحت عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والله سبحانه قال : { أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ } ولم يقل أحياء في عالم الشهادة . . فهو حي مادام في عالم الغيب ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسدا في قبره لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . . أما كيف؟ قلنا إن الغيب ليس فيه كيف . . لذلك لن تعرف وليس مطلوبا منك أن تعرف .

إننا حين نجري عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكي يفقده الوعي والحس ولكن لا يعطيه له ليموت ثم يبدأ يجري العملية فلا يشعر المريض بشيء من الألم .

فالمادة لا تحس لأنها هي التي أجريت عليها العملية والجسد لازال فيه الحياة من نبض وتنفس ولكنه لا يحس . . ولكن النفس الواعية التي غابت هي التي تحس بالألم .

أنت عندما يكون هناك ألم في جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم فكأن الألم ليس مسألة عضوية ولكنه مرتبط بالوعي . . فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة . . والعلماء فحصوا مخ الإنسان وهو نائم فوجدوا أنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوان يرى فيها رؤيا يظل يحكيها ساعات . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « إنهم أحياء عند ربهم » . . فلابد أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده . . والله عز وجل أراد أن يقرب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى } [الزمر : 42]

فكأن الحق جل جلاله يعطي الشهداء حياة دائمة خالدة لأنهم ماتوا في سبيله . . ومادام تعالى قال : « لا تشعرون » فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسك لأنك لن تدركها على أن الشهيد لابد أن يقتل في سبيل الله وليس لأي غرض دنيوي . . وإنما لتكون كلمة الله هي العليا .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)

نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شرا ، ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء ، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان ، ولم يقل أحد : إن الامتحانات شر ، إنها تصير شراً من وجهة نظر الذي لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح ، أما الذي بذل الجهد وفاز بالمركز الأول ، فالامتحانات خير بالنسبة له ، إذن فقوله الحق : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ } أي سنصنع لكم امتحاناً يصفي البطولة للعقيدة الجديدة .

والحق سبحانه قد ذكر لنا قبل هذه الآية قمة الابتلاءات؛ وهي أن ينال الإنسان الاستشهاد في سبيل الله ، وذكر ثواب الشهيد ، وهو البقاء على هيئة من الحياة عند ربه ، وكان ذلك مقدمة

للابتلاءات الأقل ، فقمة الابتلاء في حدود إدراكنا هي فقد الحياة ، وأراد الحق أن يعطي المؤمنون مناعة فيما دون الحياة ، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات . وكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترفي بالنسبة لفقد الحياة نفسها ، فمن لم يفقد حياته ، فستأتي له ابتلاءات فيما دون حياته وهي ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال ، ونقص في عدد الأخوة المؤمنين ، وكذلك نقص في الثمرات ، وكل هذه أشياء يحبها الإنسان ، ويأتي التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضا مما يحب ، وتلك الابتلاءات تدخل في نطاق بقاء التكليف .

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف ، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شيء ضار ، فالنفس لها ملكات متعددة ، وعندما يصيبها الخوف ، فهي تعاني من عدم الانسجام ، والخوف خورٌ لا ضرورة له ، لأنك إذا كنت تريد أن تؤمن نفسك من أمر يُخيفك ، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذي يُخيفك ، أما إن استسلمت للانزعاج ، فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل ملكاتك ، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة ، بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف؛ حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف . أما إن زاد انزعاجك عن الحد ، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك ، ولا بجميع تفكيرك .

إذن فالذي يخاف من الخوف؛ نقول له : أنت معين لمصدر الخوف على نفسك ، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف ، ولذلك لابد لك من أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف ، ودع الأمر المخوف إلى أن يقع ، فلا تعش في فزعه قبل أن يأتيك ، فآفة الناس أنهم يعيشون في المصائب قبل وقوعها ، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب . إن المصيبة قد تأتي مثلا بعد شهر ، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع؛ تكون قد قصرت مسافتها . ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأتي المصيبة فهو برحمته ينزل معه اللطف ، فكأنك إن عشت في المصيبة قبل أن تقع ، فأنت تعيش في المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها ، لكن لو ظللت صابراً محتسباً قادراً على مواجهة أي أمر صعب ، فأنت لن تعيش في المصيبة بدون اللطف .

لقد كانت الدعوة إلى الله بالإسلام ما زالت وليدة ، لذلك كان لابد من إعداد القدوة المؤمنة إعداداً قوياً ، وكان الخوف متوقعاً ، لأن خصوم الدعوة يكيدون لها ويُبَيتون ، وهذا هو الابتلاء . وما المراد من المؤمن حين يواجه ابتلاء الخوف؟ إن عليه أن يجعل من الخوف ذريعة لاستكمال الأسباب التي تمنع وقوع الأمر المخوف ، فإن صنع ذلك يكون قد نجح في هذا الابتلاء .

ونأتي إلى الابتلاء الثاني في هذه الآية الكريمة ، وهو الجوع . إن الجوع شهوة غالبة إلى الطعام ، وهو ضروري لاستبقاء الحياة ، ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالإنسان أن ضمن له في ذاته غذاء

يدخره من وقت رخائه لينفعه وقت شدته . فالإنسان يحتفظ بالغذاء الزائد على صورة شحم ولحكم ، وحين يجوع ولا يجد طعاماً ، فهو يأخذ من هذا الشحم ، فإذا انتهى الشحم ، فهو يأخذ من اللحم ، وإذا انتهى اللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم ، من أجل أن يستبقى الإنسان الحياة .

والإنسان مكون من أجهزة متعددة ، وسيد هذه الأجهزة المخ ، ومادامت الحياة موجودة في خلايا المخ فإن كل شيء فيك جاهز للعمل ، لكن إذا ماتت هذه الخلايا ، انتهى كل شيء ، وذلك هو السبب في أن يقال : إن فلاناً مات ثم أعطوه دواء معينا فعادت إليه الحياة . إنهم يتناسون الحقيقة العلمية المؤكدة ، وهي أن الحياة لا تغادر الإنسان إلا إذا توقف المخ عن العمل ، ولذلك فهناك إنسان قد يتوقف قلبه فيعالجه الأطباء بصدمة كهربية تعيد تشغيل القلب ، أو يشقون الصدر لتدليك القلب . لكن إذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . فأجهزة الجسم كلها في خدمة ذلك السيد وهو المخ .

ومن العجيب أنك تجد سيد الإنسان وهو المخ في قمته ، والحيوانات كذلك مخها في قمتها ، أما النبات فسيده في جذوره ، فالورق يذبل أولا ، ثم تحف الأغصان الرفيعة ، ثم الجذع ، ويجف الجذر في النهاية عندما لا يأتيه بعض الماء ، وعندما يأتي بعض الماء إلى الجذور في الوقت المناسب فهي تعود إلى الاخضرار ، وتنمو وتعود إليها الحياة ، وكذلك المخ في الإنسان ، فساعة ينهي الإنسان مخزونه من شحمه ومن لحمه ويتغذى على العظام ، فإنقاذه يأتي من إيصال الغذاء إلى المخ . ولذلك قالت المرأة العربية التي لم تكن تعرف التشريح : « نحن مرت علينا سنون ، سنة أذابت الشحم ، وسنة مَحَقَتْ اللحم ، وسنة محت العظم » .

ويجب أن نفهم أن الجوع يُحسِّن لنا كل رزق في الحياة؛ فإنك إن كنت جوعان صار كل طعام شهياً ، والذي يرغم الناس على إعداد ألوان مختلفة من الأطعمة؛ إنما هو عدم الجوع؛ فالإنسان يريد أن يُشهِّي لنفسه ليأكل ، لكنه لو كان جوعان لكفاه أي طعام ، ولذلك قالوا : « طعام الجائع هنئ وفراش المتعب وطئ » .

فساعة يكون الإنسان متعبا فهو ينام على أرض خشنة؛ ويستغرق في النوم ، وإن لم يكن الإنسان متعبا ، فهو يظل يتقلب في الفراش حتى ولو كان من الديباج .

إذن فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضروري من الطعام الذي يقيم لك الحياة ، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة ، ولا تأكله التذاذا ، وحين يقتات الإنسان ليضمن لنفسه وقود الحياة فأي طعام يكفيه . ولذلك شرع الله الصوم لنصبر على أذى الجوع ، لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام ، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعد المؤمن إعدادا كافيا كاملا ، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد ، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة .

ولذلك تجد أن المجتمعات تواجه متاعب الاقتصاد بالتقشف ، ولكن بعض المجتمعات لا تستطيع ذلك ، فتجد الناس في تلك المجتمعات لا تتقشف ، ولهذا نقول لمن يعيش حياة الترف : أنت لا تعد نفسك الإعداد اللازم لمواجهة تقلبات الزمن .

وأقول كما قال إبراهيم بن أدهم :

وإذا غلا شيء عليَّ تركته ... فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

إن أي شيء إذا غلا سعره ، لا يشتريه ، ويتركه ، فيكون أرخص شيء لأنه لن يدفع فيه مالا ليشتريه .

وأما الابتلاء الثالث وهو نقص الأموال فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة ، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التي تنتج المال ولذلك تنقص الأموال ، لأن حركتهم في الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم الله . وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين؛ وقد يستشهد منهم عدد . وأخيراً يواجهون نقص الثمرات ، والثمرات هي الغاية من كل عمل .

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد ، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى ، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات : صبر على الخوف ، وصبر على الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقص الأنفس ، وصبر على نقص الثمرات .

إذن فالمهم أن ينجح المؤمن في كل هذه الابتلاءات؛ حتى يواجه الحياة صلبا؛ ويواجه الحياة قويا . ويعلم أن الحياة معبر ، ولا يشغله المعبر عن الغاية؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهي مأخوذة من إصابة الهدف .

والمؤمن يستقبل المصيبة واثقا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها ، ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين في بعض المعارك ، أنزل الله ذلك القول الحق للمؤمنين : { قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا } [التوبة : 51]

أي قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء الحمقى من الكافرين : إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله .

وعندما نتأمل قوله الحق : { مَا كَتَبَ الله لَنَا } أي أن المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حسن الثواب من الله ، ولم يقل الحق : كتب الله علينا ، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله .

وأي أمر يصيب الإنسان ، إما أن يكون له دخل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإما أن تكون مصيبة لا دخل له بها ، وحدثت له من غيره مثلا ، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها : أعدلا أم ظلما؟ إن كانت عدلا فهي قد جبرت الذنب ، وإن كانت ظلما فسوف يقتص الله له ممن ظلمه . وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح .

إذن فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعا أن يأتي له منها خير . وعلى كل مؤمن أن يقيم نفسه تقييما حقيقيا ، « هل لي على الله حق؟ أنا مملوك الله وليس لي حق عنده ، فما يجريه علي فهو يجريه في ملكه هو » . ومن لا يعجبه ذلك فليتأب على أي مصيبة؛ ويقول لها : « لا تصيبيني » ، ولن تستطيع درء أي مصيبة ومادمنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلنقبلها كمؤمنين لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يعزنا ويكرمنا . إنه يدعونا أن نقول : { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } . إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا . ولابد لنا هنا أن نأتي بمثال ولله المثل الأعلى هل رأيت إنسانا يفسد ملكه؟ أبداً .

إن صاحب الملك يعمل كل ما يؤدي إلى الصلاح في ملكه ، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر أنه فساد ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن ملك له ، وهو سبحانه لا يُعرِّض ملكه أبداً للضرر ، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح .

{ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } أي نحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إن كان في مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان ، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله ، إذن فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية في المرجع؛ هو سبحانه ملك القوسين؛ الابتداء والانتهاء ، ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أي مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع؛ أي أن يقول : { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } .

وزادنا أيضا أن نقول : « اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها » إنك إذا ما قلتها عند أي مصيبة تصيبك فلا بد أن تجد فيما يأتي بعدها خيراً منها ، وحتى إن نسى الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة ، ثم تذكرها وقالها فله جزاؤها ، كأنه قالها ساعة المصيبة .

وهناك قصة عن أم سلمة رضي الله عنها؛ حين مات أبو سلمة زوجها وكان ملء السمع والبصر وجزعت عليه أم سلمة ، فقيل لها قولي : ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : وما علمكم؟ قالوا : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها » فقالت ما قيل لها ، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبي خاطبا ، فقيل لها : أوجد خير من أبي سلمة أم لم يوجد؟ قالت : ما كنت لأتسامى أي أتوقع مثل هذا الموقف « .

فإذن ، كل مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها : » إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها « .

وماذا يكون حال الذين يقولون هذا الدعاء؟ . هاهو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول : { أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ . . . }

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)

فلننظر إلى غاية الغايات التي يدربنا الله عليها لنحمل الدعوة ، ولنحمي منهج الحق ، ولنهدم دولة المبطلين ، هذه غاية؛ لكنها ليست الغاية النهائية ، فالغاية النهائية أننا نفعل ذلك لنأخذ رحمات الله وبركاته في الآخرة .

إذن ، فالغاية النهائية في كل إيمان وفي كل عمل هي ابتغاء مرضاة الله ورحمته .

وكما قال المرحوم الشيخ سيد قطب رحمة الله عليه : إياك أن يشغلك عن صلوات الله وتحياته وبركاته شيء ولو انتصار العقيدة نفسه .

كأن انتصار العقيدة وسيلة لتنال بها الصلوات والرحمة من ربك ، فكل شيء ما عدا ذلك وسيلة تسلم إلى غاية ، وغاية المؤمن أن يكون من الذين يشملهم قول الله :

{ أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئك هُمُ المهتدون } [البقرة : 157]

ونحن نعرف أن الصلاة في اللغة هي الدعاء ، للناس صلاة ، وللملائكة صلاة ، ولله صلاة ، فهو القائل : { هو الذي يصلي عليكم وملائكته } [الأحزاب : 43]

وكلنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ، ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنعم والخيرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة الله ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان ، والاطمئنان نعمة كبرى ، فمن يعش في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لون عظيم من الاطمئنان .

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة .

والصلاة من الملائكة استغفار .

والصلاة من المؤمنين دعاء .

والدعاء حين تدعوه لمحمد صلى الله عليه وسلم بالخير وبالرحمة وبالبركة وهو دعاء لك ، لماذا؟ لأن كل منزلة ينالها رسول الله عائدة لأمته وللعالم أجمع .

فمن الذي يشفع عند الله في يوم الحشر ليعجل الله بالفصل بين الخلائق؟ . إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فكل خير يناله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خير لأمته ، فإذا دعوت له فكأنك تدعو لنفسك إنك عندما تصلي عليه مرة يصلي الله عليك عشراً .

أليس في ذلك خير لك؟

{ أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئك هُمُ المهتدون } [البقرة : 157]

والمهتدون هم الذين التزموا الطريق الموصل للغاية ، والغاية هي صلوات من ربهم ورحمة ، وأنت الآن متمتع بنعم الله بأسباب الله ، وعند الله في الآخرة سوف تتمتع بإذن الله بنعم الله وبلقاء الله .

بعد ذلك يقول الحق : { إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله . . . }

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)

والصفا والمروة جبلان صغيران ، يعرفهما الذين زاروا الأماكن المقدسة ، والذين لم يذهبوا؛ أسأل الله أن يروهما عين اليقين ، وحين يرونهما يكون هذا علم اليقين . وهذان الجبلان كانت سيدتنا هاجر أم إسماعيل قد ترددت بينهما لتطلب الماء لولدها بعد أن تركهما إبراهيم عليه السلام عند بيت الله الحرام . وبالله عليك ، فبماذا تفكر امرأة عندما يتركها زوجها مع رضيعها في مكان لا طعام فيه ولا ماء؟

هنا قالت هاجر قولتها المشهورة :

إلى من تكلنا؟ آلله أمرك بذلك؟

فقال سيدنا إبراهيم : نعم . فقالت : إذن لن يضيعنا ، لقد استغنت بالخالق عن المخلوق ، ولم تنطق مثل هذا القول إلا بوحي من المسبب ، وهذه أول قضية إيمانية مع ملاحظة الأرضية الإيمانية التي وجدت عليها ، حينما دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا : { رَّبَّنَآ إِنِي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة } [إبراهيم : 37]

وإذا قرأت { غَيْرِ ذِي زَرْعٍ } فاعلم أنه غير ذي ماء ، فحيث يوجد الماء؛ يوجد الزرع ، فالماء هو الأصل الأصيل في استبقاء الحياة ، وعندما يغيب الماء عن أم ووليدها ، فماذا يكون حالهما؟ لقد عطش ولدها وأرادت أن تبحث عن نبع ماء أو طير ينزل في مكان لتعلم أن فيه ماء ، أو ترى قافلة تسير ومعها ماء؛ لذلك خرجت إلى أعلى مكان وتركت الوادي ، وصعدت إلى أعلى جبل الصفا فلم تجد شيئا ، فنظرت إلى الجهة الأخرى؛ إلى المروة ، وصعدت عليها فلم تجد شيئا . وظلت تتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط . ولنا أن نتصور حالتها ، امرأة في مثل سنها ، وفي مثل وحدتها ، وفي مثل عدم وجود ماء عندها ، ولابد أنها عطشت كما عطش وليدها ، وعندما بلغ منها الجهد ، انتهت محاولاتها ، وعادت إلى حيث يوجد الوليد .

ولو أن سعيها بين الصفا والمروة أجدى ، فرأت ماء لقلنا : إن السعي وحده قد جاء لها بالماء ، لكنها هي التي قالت من قبل : « إذن لن يضيعنا » ، وهي بهذا القول قد ارتبطت بالمسبِّب لا بالسبب ، فلو أنه أعطاها بالسبب المباشر وهو بحثها عن الماء لما كان عندها حجة على صدقها في قولها : « إذن لن يضيعنا » . ويريد الحق أن ينتهي سعيها سبع مرات بلا نتيجة ، وتعود إلى وليدها؛ فتجد الماء عند قدم الوليد . وهكذا صدقت هاجر في يقينها ، عندما وثقت أن الله لن

يضيعها ، وأراد الله أن يقول لها : نعلم لن أضيعك ، وليس بسعيك؛ ولكن بقدم طفلك الرضيع؛ يضرب بها الأرض ، فينبع منها الماء . وضرب الوليد للأرض بقدمه سبب غير فاعل في العادة ، لكن الله أراده سببا حتى يستبقى السببية ولو لم تؤد إلى الغرض .

وحين وجدت هاجر الماء عند قدم رضيعها أيقنت حقا أن الله لم يضيعها . وظل السعي شعيرة من شعائر الحج إلى بيت الله الحرام ، استدامة لإيمان المرء بالمسبب وعدم إهماله للسبب ، وحتى يقبل الإنسان على كل عمل وهو يؤمن بالمسبب . ولذلك يجب أن نفرق بين التوكل والتواكل . إن التوكل عمل قلب وليس عمل جوارح ، والتواكل تعطيل عمل جوارح . ليس في الإسلام تواكل ، إنما الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . هكذا كان توكل هاجر ، لقد عملت وتوكلت على الله؛ فرزقها الله بما تريد بأهون الأسباب ، وهي ضربة قدم الوليد للأرض ، وبقيت تلك المسألة شعيرة من شعائر الحج وهي سبعة أشواط بين الصفا والمروة .

وعندما غفل الناس عن عبادة الله ، ودخلت عبادة الأصنام في الجزيرة العربية أوجدوا على جبل الصفا صنما أسموه « إسافا » وعلى المروة صنما أسموه « نائلة » . وكانوا يترددون بين إساف ونائلة ، لا بين الصفا والمروة ، لقد نقلوا العبادة من خالصية التوحيد إلى شائبية الوثنية .

فلما جاء الإسلام أراد الله ألا يوجه المسلمين في صلاتهم إلى البيت المحرم إلا بعد أن يطهر البيت ويجعله خالصا لله ، فلما ذهب بعض المؤمنين إلى الكعبة تحرجوا أن يسعوا بين الصفا والمروة؛ لأن « إسافا » و « نائلة » فوق الجبلين ، فكأنهم أرادوا أن يقطعوا كل صلتهم بعادات الجاهلية ، واستكبر إيمانهم أن يترددوا بين « إساف » و « نائلة » ، فأنزل الله قوله الحق :

{ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ الله شَاكِرٌ عَلِيمٌ } ، أي لا تتحرجوا في هذا الأمر لأنكم ستسعون بين الصفا والمروة؛ لا بين إساف ونائلة كما كان يفعل المشركون الوثنيون ، إذن فالعمل هنا كان بالنية .

لقد كانت نية السعي الأولى عند هاجر هي الإيمان بالله والأخذ بالأسباب ، لكن الوثنية قلبت قمة الإيمان إلى حضيض الكفر ، وكان لابد أن يستعيد المسلمون نية الإيمان الأولى عند زيارة البيت المحرم بالسعي بين الصفا والمروة ، فنحن في الإسلام نرضخ لأمر الآمر ، قال لنا : « قبلوا الحجر الأسود » ، وفي الوقت نفسه أمرنا أن نرجم الحجر الذي يرمز إلى إبليس ، هكذا تكون العبرة بالنية؛ وليس بشكل العمل ، وتكون العبرة في إطاعة أمر الله . وكأن الحق بهذه الآية يقول للمؤمنين : إن المشركين عبدوا « إسافا » و « نائلة » ، لكن أنتم اطرحوا المسألة من بالكم ، واذهبوا إلى الصفا والمروة ، فالصفا والمروة من شعائر الله ، وليستا من شعائر الوثنية ، ولكن ضلال المشركين هو الذي خلع عليهما الوثنية في إساف وفي نائلة . لقد أراد الوثنيون بوضع « إساف » على الصفا « ونائلة » على المروة أن يأخذوا صفة التقديس للأوثان ، فلولا أن الصفا

والمروة من المقدسات سابقا لما وضعوا عليهما أحجارهم ولما جاءوا بأصنامهم ليضعوها على الكعبة ، هذا دليل على أن قداسة هذه الأماكن أسبق من أصنامهم ، لقد حموا وثنيتهم بوضع « إساف » و « نائلة » على الصفا والمروة .

وبعد أن بين الحق للمؤمنين أن الصفا والمروة من شعائر الله ، ينبه على أن المكين ساكن المكان لا ينجس المكان ، بدليل أن الإيمان عندما كتبت له الغلبة ، كسر الأصنام وأزالها من الكعبة وأصبح البيت طاهرا ، وعندما كان المؤمنون يتحرجون عن أن يفعلوا فعلا من أفعال الجاهلية طمأنهم الحق سبحانه وتعالى ، وقال لهم :

{ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله } .

وكلمة « صفا » معناها الحجر الأملس ، وأصبح كذلك من كثرة الملامسين له على مر الزمان ، وقيل : إن الصفا منسوبة إلى اصطفاء آدم ، وقيل : إن المروة منسوبة إلى المرأة التي هي حواء ، لكنه كلام يقال لا نتوقف عنده كثيرا ، لأنه علم لا ينفع وجهل لا يضر ، فالمهم بالنسبة لنا أنه مكان ترددت بينه هاجر وهي تطلب الماء لابنها ، إن الحق جعل السعي بينهما من شعائر الله ، والشعائر هي معالم العبادة ، وتطلق دائماً على المعالم المكانية ، ويقال : هذا مطاف ، وهذا مسعى ، وهذا مرمى الجمرات ، وهذا المشعر الحرام .

إن كلمة « المشعر » تعني المكان الذي له عبادة مخصوصة ، وبما أن الصفا والمروة مكانان فقد جاء وصفهما بأنهما { مِن شَعَآئِرِ الله } . { فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا } كأن الحج والعمرة لهما شيء يجعلهما في مقام الفرضية ولهما شيء آخر يجعلهما في مقام التطوع ، فإن أدى المسلم الحج والعمرة مرة يكون قد أدى الفرض ، وهذا لا يمنع من أن تكرار الحج والعمرة هو تطوع مقبول بإذن الله ، له شكر من الله .

وساعة نقول : « لا جناح عليك أن تفعل كذا » فمعنى ذلك أنك إن فعلت فلا إثم عليك ، لكن ليس خطأ في أن تفعل ، وليس فرضاً في أن تفعل ، وهذا ما جعل بعض الناس يقولون : إن السعي بين الصفا والمروة ليس ركنا من أركان الحج ، ونقول لهؤلاء : هذه آية جاءت لسبب ، وهو أنهم كانوا يتحرجون من الطواف في مكان يطوف فيه المشركون فقال لهم : { فلا جناح عليه أن يطوف بهما } .

إن نفي الجناح لا يعني أنك إن لم تفعل يصح ، لا ، إنه سبحانه يرد على حالة كانوا يتحرجون منها ، وقوله تعالى : { يَطَّوَّفَ بِهِمَا } يستدعي منا وقفة ، إن الحاج أو المعتمر يسعى بين الصفا والمروة ، فلماذا وصف الحق هذا السعي ب { يَطَّوَّفَ بِهِمَا } .

لكي نعرف ذلك لابد أن نوضح معنى « طاف » و « جال » و « دار » . إن « طاف » تعني « دار حول الشيء » ، فما هي الدورة التي بين الصفا والمروة؛ حتى يسميها الحق طوافا؟ .

إن الدائر حول الدائرة يبدأ من أي نقطة منها كبداية ، لتكون تلك النقطة نهاية ، فكل طواف حول دائرة تجد فيه أن كل بداية فيها تعتبر نهاية ، وكل نهاية تعتبر بداية ، وأي حركة من وإلى شيء واحد يصنع دائرة .

وصحيح أن من يسعى بين الصفا والمروة لا يدور ، ولكنه سيذهب من الصفا إلى المروة ثم ينقلب عائدا إلى الصفا ، ثم منها إلى المروة ، وهكذا يصير الأمر طوافا . ومثال آخر من حياتنا اليومية ، إن الشرطي الذي يطوف لحراسة الشوارع والمنازل بالليل ، قد يلف المدينة كلها ، ويمكن أن يلف شارعاً واحداً هو مكان حراسته ، هذا الدوران في الشارع من أوله إلى آخره عدة مرات يسمى طوافا بينهما ، وهكذا نفهم معنى { يَطَّوَّفَ بِهِمَا } ، أي يمشي بينهما عدة مرات من بداية إلى نهاية .

وهكذا نجد أن السعي بين الصفا والمروة هو جزء من شعائر الحج والعمرة . ونجد أن الفرضية في الحج والعمرة أساسية ، والتطوع بتكرار الحج والعمرة هو خير . { وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ الله شَاكِرٌ عَلِيمٌ } وهذا القول يقتضي أن نفهم أن الشاكر أصابته نعمة من المشكور ، فما الذي أصاب الحق هنا من تكرار الحج؟ .

إن المؤمن عندما يؤدي ما افترضه الله عليه فهو يؤدي الفرض ، لكن عندما يزيد بالتطوع حبا في النسك ذاته فهذه زيادة يشكره الله عليها ، إذن فالشكر من الله عز وجل يفيد أن نعمة ستجيء ، والحق سبحانه وتعالى حين يفترض على عبدا كذا من الفروض يلتزم العبد بذلك ، فإذا زاد العبد من جنس ما افترضه الله عليه ، فقد دل ذلك على حبه وعشقه للتكليف من الله ، وإذا ما أحب وعشق التكليف من الله بدون أن يطلبه الله منه ويلزمه به بل حببه إليه ، فهو يستحق أن يشكره الله عليه ، وشكر الله للعبد هو عطاء بلا نهاية .

ويقول الحق من بعد ذلك : { إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ البينات والهدى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكتاب أولئك يَلعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعنون }

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159)

والحق سبحانه حين يعرض هذه القضية ، يبين لنا موقف الجزاء من الذين يكتمون ما أنزل الله ، لقد كتم بعض من أهل الكتاب البينات التي أنزلها الله في الكتاب الذي معهم ، بينات تثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته ، وهذا الكتمان سيورث شرورا ، وكلما نال العالم شر من كتمانهم فسيلعنهم ، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله .

والحق سبحانه وتعالى ينبه المؤمنين بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن هذا الجزاء من الطرد ومن اللعن ليس مقصورا على هؤلاء ، وإنما ينسحب ويشمل كل من يكتم ما أنزل الله من

البينات ، إذن فذلك فيه واقع مما حدث من أهل الكتاب ، وفيه أيضا تحذير للذين يؤمنون بالإسلام أن يكتموا بينات الله؛ وإلا صاروا إلى ما صار إليه هؤلاء ، وهو اللعن .

وكلمة « اللعن » وردت في القرآن إحدى وأربعين مرة ، وساعة تأتي للعذاب تكون للطرد والإبعاد بغضب ، وهو الخلود في النار ، وساعة يكون الطرد إبعاد تأديب ، فلا يوجد بغضب؛ لأن المؤدب لا يغضب على من يؤدبه ، وإنما يغضب لمن يؤدبه .

وعندما يحدث الطرد من بعد غضب ، فذلك دليل على أنه ليس من بعد ذلك رجعة ، فالإنسان إذا ترك لشيء صامت ليعذب به كالنار ، يقول لنفسه : « ربما جاء من يرق لحالي ويعطف علي فيخرجني من النار » ، إنه يقول ذلك لنفسه : لأن الذي يعذب به صامت لا عاطفة له ، لكن ما المخرج إذا كانت اللعنة من الله والملائكة والناس؟ كما يقول الحق في آية أخرى : { أولئك جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله والملائكة والناس أَجْمَعِينَ } [آل عمران : 87]

ويتضح لنا هنا أن لعنة الله تكون في الدنيا وفي الآخرة ، ويلعنهم اللاعنون من الناس ، وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا فيها نجد أن اللعنة أشمل ، لأن « اللاعنون » تضم الناس وغير الناس من الكائنات الأخرى ، كأن كل من في الوجود يشترك في لعنهم ، وعلى سبيل المثال ، إذا حبس الله الماء عن قوم لعصيانهم ، فالنبات يلعنهم لأنه حُرم من الماء ، وتلعنهم الحيوانات لأنها حُرمت من الماء ، وتلعنهم الأمكنة لأنهم خالفوا ما عليه الأمكنة من التسبيح لله . أما لعنة الآخرة حيث لا ري لنبات أو حيوان؛ فسيكون اللعن لهم صادرا من الله والملائكة والناس أجمعين . والناس هم بنو آدم إلى أن تقوم الساعة ، وهؤلاء منهم كافر ومنهم مؤمن ، كيف إذن يوجد اللعن ممن كفر مع أنه هو أيضا ملعون؟

نقول : نحن في الدنيا نجد من يخدع غيره في دين الله ، وهناك من ينخدع ، فإذا ما انجلت الأمور في الآخرة ، وانفضح الخادعون ، وأسقط في يد المخدوعين ، فهنا يتبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ، يتبرأ الخادع من المخدوع ، ويتبرأ المخدوع من الخادع ، وكلما دخلت أمة من المخدوعين إلى النار لعنت الأمة التي خدعتها ، وكلما دخلت أمة خادعة إلى النار ، فإنها تلعن الذين استسلموا للخديعة ، ويتبادلون اللعن .

يقول الحق : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا } [البقرة : 166]

ويقول أيضا : { كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا } [الأعراف : 38]

إذن فاللعنة موجودة بين الكافرين بعضهم لبعض ، كما هي موجودة في الدنيا أيضا ، فالذين يكفرون بمنهج الله وينحرفون ويظلمون ، هؤلاء يتلقون اللعنة من أهل منهج الله ، ويتلقون اللعنة من المظلومين منهم ، ثم يأتي لهم موقف آخر ، يأتي لهم من يظلمهم ، فيلعنونه ويلعنهم ، وهكذا يلعنهم الناس أجمعون .

واللعن بطرد وغضب وزجر يختلف عن اللعن التأديبي الذي يأخذ صيغة الإبعاد ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المتخلفين في غزوة تبوك ، وغزوة تبوك كانوا يسمونها غزوة العسرة ، لأنها جاءت في مشقة من كل جهاتها ، لبعد المكان بين تبوك والمدينة ، ومشقة أخرى من نقص الدواب التي تحمل المقاتلين ، فقد كان كل عشرة من المقاتلين يتناوبون على دابة واحدة ، ومشقة وعسرة في الزاد ، حتى أنهم كانوا يأكلون التمر بدوده ، وكانوا يأكلون الشحم والدهن والإهالة الزنخة ، وعسرة في الماء حتى أنهم كانوا يذبحون البعير ليشربوا من فرثه وكرشه الماء ، وعسرة في الجو القائظ الشديد الحرارة ، كانت كل الظروف صعبة وقاسية وتحتم ألا يخرج للغزوة إلا الصادق في يقينه .

لقد كانت تلك الغزوة اختبارا وابتلاء للإيمانية في نفوس الناس . ولذلك فإن بعضهم استسلم لحديث النفس في أن يظل بالمدينة ، وقال واحد منهم : « أظل ظليل وراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في القيظ؟! والله لا يكون هذا أبدا » ، ثم قام وتبع جيش المؤمنين ، وآخر عنده بستان فيه ظلال وثمار؛ فنظر إلى بستانه وقال : « أأنت الذي منعتني أن أكون في ركاب رسول الله؟! والله لا تكون ملكي بعد الآن ، وأنت لله في سبيل الله » ، وثالث جلس في بيته وأمامه زوجته الجميلة وحوله أشجار وزروع ، فقال : « أأجلس في ظل ورطب وماء وامرأة حسناء ورسول الله في حمارة القيظ ، والله لا يكون هذا أبدا » ، وامتطى حصانه إلى الصحراء لينضم لجيش المسلمين .

وعندما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا اعتذر له من لم يشاركوه رحلة النصر بأنهم كانوا لا يملكون وسائل الحرب من دواب ودروع وسيوف ونبال ، فقبل رسول الله علانيتهم وترك سرائرهم لله ، إلا ثلاثة صدقوا وقالوا : « يا رسول الله ما كنا أغنى منا ساعة امتنعنا عن الذهاب معك فعندنا عدة الحرب والدواب » .

لقد أمر رسول الله الناس ألا يكلموهم ولا يتعاملوا معهم ، واستكان اثنان منهم وظلا في بيتهما ، وهما هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، أما كعب بن مالك فكان يخرج ويلقى الناس فلا يكلمه أحد ، ويذهب للصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسارق النظر إلى النبي ويسلم عليه ، لكن رسول الله لا يرد ، ويغض طرفه ويعرض عنه ، حتى أن كعباً يقول : « فانظر هل حرك رسول الله شفتيه برد السلام أم لا؟ » .

لماذا كل ذلك؟ . لقد أرادها النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة إيضاح لكيفية إبعاد التأديب .

وضاقت الدنيا على الثلاثة ، وذهب كعب إلى ابن عمه أبي قتادة وتسلق عليه الحائط ، لأنه يعلم أنه لو طرق الباب فلن يفتح له . ورغم تسلق الحائط إلا أن ابن العم أعرض عنه ، فقال راجيا : « أنشدك الله ، أنشدك الله ، أنشدك الله » كل ذلك وابن عمه لا يرد عليه ، ثم قال له : « تعلم

أني أحب رسول الله » . فلم يرد عليه ابن العم وظل يتوسل سائلا عن موعد العفو ، فقال أبو قتادة : « الله ورسوله أعلم » .

فلما مضت أربعون ليلة على هذا الإبعاد ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يصعد التأديب فيطلب من الرجال الثلاثة من خلال رسول أرسله إليهم ألا يقربوا نساءهم . لقد دخل العزل إلى دائرة جديدة وهي دائرة المجتمع الخاص حيث الرجل وامرأته ، فقال كعب لرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أطلق زوجتي »؟ . قال الرسول : « بل لا تقربها » . وقال قوم لكعب : اذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فلتذهب امرأتك لتستأذنه في أن تظل معك لتخدمك؛ فقد استأذنت امرأة هلال بن أمية رسول الله؛ فأذن لها أن تخدم زوجها . فقال كعب : والله لا أفعل ، لأن امرأة هلال حينما ذهبت إلى رسول الله قال لها : « لا يقربنك » فقالت : « يا رسول الله والله إن هلالا ما به حركة لشيء » فأذن لها أن تظل لتخدمه . لكني رجل شاب وأخاف أن أستأذن رسول الله فلا يعطيني هذا الحق .

هكذا كان إبعاد التأديب ، وليس بالطرد الكامل من حظيرة الإيمان ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل من يتلقون التأديب أهلا لأوامر يلقيها عليهم ، ثم جاءت البشرى بالإفراج بعد عشرة أيام عندما أنزل الحق قوله : { وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم } [التوبة : 118]

وهكذا لم يقفل الحق الباب بل جعله مفتوحا أمام الإنسان ، حتى لمن كفر ، وحتى لمن كتم ، فلا يظن أن سابق كفره أو تراخيه عن نصرة الحق سيغلق أمامه الباب ، أو يحول بينه وبين ربه ، لذلك يقول الحق : { إِلاَّ الذين تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فأولئك أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)

أي أعلنوا التوبة وهي أمر ذاتي ، وأصلحوا بمقدار ما أفسدوا ، وبينوا للناس بمقدار ما كتموا ، إذن شرط التوبة أن يعود كل حق لصاحبه ، فالذي كتم شيئا عليه أن يبينه ، فالكتمان لا يؤثر فقط في العلاقة بين العبد والرب ، ولكنه يضر العباد ، والحق سبحانه حين يفتح باب التوبة للعبد يقول : { تاب عليهم ليتوبوا } [التوبة : 118]

ومادة « تاب » تعني الرجوع إلى الله ، فعندما يتوب العبد فهو يعود إلى ربه طالبا المغفرة عن العصيان والذنب ، وعندما يتوب الله على عبد ، فذلك يعني أن الله قبل توبته ، فبعد أن كان مقدرا له أن يعذب فإن الله يعفو عنه فلا يعذبه ، إذن فالتوبة كلها رجوع إلى الله ، وحين تقدم التوبة من الله على التوبة من العباد في قوله : { تاب عليهم ليتوبوا } ، فمعنى ذلك أن الحق شرع التوبة وقننها ليفتح باب الرجوع إليه ، فهناك ثلاث مراحل للتوبة :

المرحلة الأولى : هي أن الله شرع التوبة .

المرحلة الثانية : هي أن يتوب العبد .

المرحلة الثالثة : أن يقبل الله التوبة .

وكلها تعني الرجوع عن المعصية والذنب .

إذن فأي إنسان يذنب ذنبا لابد أن يصلح هذا الذنب من جنس ما فعل ، فإن فعل ذنبا سرا فيكفيه أن يتوب سرا ، أما إن كسر حدود الله علنا ، فنقول له : لا يستقيم أبدا أن تعصي الله علنا أمام الناس وتكون أسوة سيئة لأناس تجعلهم يتجرأون ولذلك فالمثل العامي يقول : « تضربني في شارع وتصالحني في حارة » .

إن الذي يكسر حداً من حدود الله أمام الناس نقول له : لابد أن تعلن توبتك أمام الناس جميعاً ، ولذلك نحن ندرأ الحدود بالشبهات ، لكن الذي يتباهى بأنه ارتكب الذنب لا نتركه ، مثلا الذي شهد عليه أربعة بأنه ارتكب ذنبا من الكبائر كالزنى ، لقد ظل يفعل الذنب باستهتار إلى أن شهد عليه أربعة ، هل يعقل أن نقول له : ندرأها بالشبهات؟ . لا . هو كسر الحد علنا فوجبت معاقبته بإقامة الحد .

وأما الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوه وبيَّنوا للناس ما كتموه فجزاؤهم توبة من الله .

ومن لطف الله بالإنسان أن شرع التوبة حتى يشعر الناس بالذنب ، وجعلها من فعل التائب؛ ومن فعل قابل التوبة ، وهو الله سبحانه فقال : { تابوا } و { أتوب } ، كل ذلك حتى لا يستشعر الإنسان عندما يرتكب ذنبا ويتوب أنها مسألة مستعصية ، إن الحق يقول : { فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } إنه سبحانه يتوب على من تاب عن الذنب ويتوب عن المذنبين جميعا ، فهو تعالى « تواب » وهي كلمة تعني المبالغة في الصفة . ويقول الحق بعد ذلك : { إِن الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ الله والملائكة والناس أَجْمَعِينَ }

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161)

إنهم الذين أصروا على عدم التوبة فكان جزاؤهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . ويضيف سبحانه : { خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ }

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (162)

وساعة يأتي الحق في عذاب الكافرين ويتكلم عن النار عذابا وعن الزمان خلودا ثم يُصَعِّد الخلود بالأبدية ، فنحن نعرف بذلك أن هناك عذاباً في النار ، وخلوداً فيها ، وأبدية . ولأن رحمة الله سبقت غضبه في التقنين العذابي ، لم يذكر الخلود في النار أبداً إلا في سورة الجن ، قال : { وَمَن

يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً } [الجن : 23]
ومادام فيه مقيد ، فإن كل مطلق من التأبيد يُحمل عليه ، وكون الحق لم يأت بكلمة « أبداً » عند ذكر العذاب ، فهذا دليل على أن رحمته سبقت غضبه حتى في تقنين العذاب ، وهناك إشكال يَرِدُ في سطحية الفهم فحين يقول الحق : { يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ } [هود : 105-108]
فإنّ الحق يتحدث عن يوم الحشر ، وعن البشر شقيهم وسعيدهم ، فالذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ، ولنا أن نتخيل صورة التنفس داخل النار وسط جوها المكفهر باللهب . إن الإنسان يتنفس ليستروح بالهواء؛ فكيف يأخذه من النار؟ . إن في ذلك عذاباً عظيماً . وأهل النار خالدون فيها مادامت السماوات والأرض . ويتساءل السطحيون « إن الله يضع الذين شقوا في النار مادامت السماوات والأرض ، ويقول القول نفسه عن الذين سعدوا بالجنة » ونقول لهم : السماوات والأرض الآن؛ تختلف عن السماوات والأرض في الآخرة ، إن السماوات والأرض في الدنيا هي أسباب ومعاش ، أما في الآخرة فنحن لا نأكل بالأسباب ، إنما بالمسبب ، نحن نحيا في الآخرة بكلمة « كن » ، ولا نعيش بأسباب الحرث والزرع والمطر . إن الحق يبدل السماوات والأرض في اليوم الآخر ، واقرأ إن شئت قول الحق : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات } [إبراهيم : 48]
ومن هذا القول نفهم أن المقصود هو السماوات والأرض المبدلة . ونلحظ أن الحق جاء في أمر خلود الأشقياء بالمشيئة فقال : { إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ } ، فكأن خلود الأشقياء في النار تنقضه وتضع نهاية له مشيئة الله؛ لأن الأشقياء ليسوا هم الكفار فحسب ، بل منهم بعض المؤمنين العصاة الأشقياء ، وهؤلاء المؤمنون العصاة سيدخلون النار على قدر حظهم من المعاصي ، وساعة تقوم الساعة ويأتي الجزاء يدخلون النار ويأخذون جزاءهم ، لكن بعد أخذ الجزاء يخرجون ، إذن ، فسينتهي الخلود من آخر الزمن ، فيكون المعنى : { إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ } أن يستمروا في النار إلى وقت محدد .
أما بالنسبة للجنة . فالاستثناء يكون من البدء ، لماذا؟ لأن المؤمن الذي عصى الله لن يدخل الجنة من البداية ، وإنما سيقضي فترة في النار ثم يدخل الجنة ، إذن فالخلود في الجنة بالنسبة له قد نقص من أوليته .

أما الشقي فالخلود في النار نقص من آخريته ، إذن { إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ } ؛ تعني أن المؤمن العاصي لن يدخل الجنة من بدء الآخرة . إذن : « إلا » هنا جاء لاستثناء الزمن أوله بالنسبة

للسعداء ، أو استثناء الزمن من آخره بالنسبة للعصاة الأشقياء ، ولذلك لا تجد تناقضا ، ذلك التناقض الذي تصنعه سطحية الفهم .

أما قوله الحق : { لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب } فهو أن الإنسان عندما يعذب بشيء فإن تكرار العذاب عليه ربما يجعله يألف العذاب ، لكن الواقع يقول : إن العذاب يشتد عليه ، فالتخفيف لا علاقة له بالزمن ، وقوله الحق : { وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ } نعرف منه أن الإنظار هو الإمهال ، والمعنى أنهم لا يؤخرون عن عذابهم؛ أو لا ينظرون بمعنى لا ينظر إليهم . وهناك آية تفيد هذا المعنى في قوله تعالى : { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة وَلاَ يُزَكِّيهِمْ } { آل عمران : 77]

لأن النظر يعطي شيئا من الحنان ، ولماذا قال : لا ينظرون؟ . لأنك قد تتجه ناحيته فتنظره دون قصد ، بتلقائية . ولكن النظرة لا تتجه عطفا عليه ، وهو سبحانه لا ينظر إليهم أساسا ، لأن النظرة قد توحي بلون من الشفقة ، بذلك تكون لا يُنظرون؛ أي لا ينظر إليهم أبداً ، فكأنهم أهملوا إهمالا تاماً .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وإلهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ الرحمن الرحيم }

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163)

وتلك هي قضية الحق الأساسية ، و { وإلهكم } يعني أن المعبود إله واحد ، فالواقع أن الإله الحق موجود قبل أن يوجد الكفر . و { لاَّ إله إِلاَّ هُوَ } هذه قضية ثانية ، لأن غفلة الناس هي التي جعلت بعضا من نفوس الناس تلتفت إلى آلهة أخرى . وقوله الحق أنه سبحانه : { إله وَاحِدٌ } أي ليس له ثان ، والفارق بين { واحد } و { أحد } هو أن { واحد } تعني ليس ثان ، و { أحد } يعني ليس مركباً ولا مكوناً من أجزاء ، ولذلك فالله لا يمكن أن نصفه بأنه « كل » أو « كلي » لأن « كل » يقابلها « جزء » و « كلي » يقابلها « جزئي » ، و « كل » هو أن يجتمع من أجزاء . والله متفرد بالوحدانية ، وسبحانه المنزه عن كل شيء وله المثل الأعلى ، وأضرب هذا المثل للتقريب لا للتشبيه ، إن الكرسي « كل » مكون من خشب ومسامير وغراء وطلاء ، فهل يمكن أن نطلق على الخشب أنه « كرسي » أو على المسامير أو على الغراء أو على الطلاء؟ . لا . إذن كل جزء لا يطلق على « الكل » ، بل الكل ينشأ من اجتماع الأجزاء . و « الكلي » يطلق على أشياء كثيرة؛ لكن كل شيء منها يحقق الكلي ، فكلمة « إنسان » نقول عنها « كلي »؛ جزئياتها محمد وزيد وبكر وعمر وخالد ، فنقول : زيد إنسان ، وهو قول صحيح ، ونقول عمر إنسان وذلك قول صحيح . والله سبحانه وتعالى لا هو « كلي » لأنه واحد ، ولا هو « كل » لأنه أحد .

إن القضية الأساسية في الدين هي { وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو } والقرآن لا ينفي ويقول :

{ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ } إلا حين توجد غفلة تعطي الألوهية لغير الله ، أو تعطي الألوهية لله ولشركاء معه ، إن القرآن ينفي ذلك ويقول : { لاَّ إله إِلاَّ هُوَ الرحمن الرحيم } وليس هناك شيء غير الله إلا نعمة منه سبحانه أو مُنَعم عليه .

إن ما دون الله إما نعمة وإما منعم عليه بالنعمة ، وهذه كلها نفح الرحمن ، ونفح الرحيم . ومادام كل شيء ما عدا الله إما نعمة وإما منعم عليه فلا توصف النعمة بأنها إله ، ولا يقال في المنعم عليه : إنه إله ، لأن المُنعم عليه معناه أن غيره أفاض عليه نعمه ، لأن النعمة موهوبة ، والمُنعم عليه موهوب إليه ، فإذا كانت هبة أو موهوبة إليه فلا يصح أن تكون إلها ، لكن الذين يُفتنون إنما يفتنون في الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو المسبب لكل الأسباب . وبعد ذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى خدمة هذه القضية فيدعونا أن ننظر في الكون ونتأمل في النعمة الموجودة لنا ، وبعد ذلك فأنت يا من أنعم الله عليه بهذه النعمة إن وجدت أحدا يدعيها لنفسه فأعطها واتركها له وانسب النعم إلى موجدها وهو الله وإياك أن تشرك في نعمة الله أحداً غيره ، لأن الله يقول : في الحديث القدسي : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه » .

ويلفتنا الحق إلى الكون فيقول : { إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف اليل والنهار . . . {

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)

إن الله سبحانه برحمته خلق الإنسان منعماً عليه ، وخلق كل ما في الكون نعمة له ، ويلفتنا إلى الدليل على هذه القضية بالكون نفسه . ويحدد مظاهر في الكون لم يدع أحد أنه خلقها وأوجدها ، فإذا ما جاء الناس الذين لا يؤمنون بالإله الواحد يزحزحون الألوهية إلى سواه نقول لهم : هذا الكون العجيب الذي يتمثل في الأرض ويتمثل في السماء ، ويتمثل في اختلاف الليل والنهار ، ويتمثل في الفلك التي تجري في البحر ، ويتمثل في ما أنزل الله من السماء من ماء ، ويتمثل في السحاب المسخر بين السماء والأرض؛ كل هذه الآيات أي الأمور العجيبة . . تلفت إلى أن موجدها أعظم منها .

إنه سبحانه يريد أن ينبه العقل إلى أن يستقبل نعمة الوجود في ذاته وفي الكون المسخر له ليستنبط من هذه الآيات العجيبة صدق الله في قوله : { . . وإلهكم إله وَاحِدٌ } ، لأنه ليس من المعقول أن يخلق غير الله كل ذلك الخلق ثم يسكت عنه! ، فضلا عن أن أحداً لم يدع أنه خلقها ، وما دام لم يدع أحدٌ ذلك ، وأنت أيها الإنسان لم تخلقها ، ورغم الكفر والعناد لم يدع أحد هذه

القضية قط ، إذن سيظل الملك لله وحده إلى أن يقول أحدٌ : أنا لي الملك ، ولم يوجد إلى الآن من يجرؤ على هذه الكلمة ، وهذا دليل على أن الله واحد أحد . إن الحق سبحانه يقول : { لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [غافر : 57] لماذا؟ . لأن الناس من الأرض قد خُلقوا ، وبما في الأرض عاشوا ، فالأصل هو أن خلق السماوات والأرض أَكبر من خلق الناس؛ فالناس أبناء الأرض ، واقتياتهم منها وبقاء حياتهم عليها . ومن المعقول أن الحق سبحانه قد خلق ما يخلق منه الإنسان قبل أن يخلق الإنسان ، وحتى يعيش ذلك الإنسان أمده الله بجنس ما خُلِق منه . واذكروا جيدا أننا قلنا إن الله حين يعرض قضية الخلق للإنسان؛ فهو سبحانه يعرضها عرضا فيه مناعة ضد أي قضية أخرى تناقضها . ولذلك يقول لنا : إن خلق السماوات والأرض وخلقكم هو أمر غيبي ، وما دام أمراً غيبياً فلا رائي له ولا مشاهد له إلا الذي خلقه ، فخذوا علم الخلق منه ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51]

فيجب أن نحذر هؤلاء المضللين الذين يحاولون إضلالنا بقضايا ليست حقيقية ، فالحق قد علم أزلا بأنه سيوجد قوم يقولون : إن السماء والأرض خلقتا بطريقة كذا ، والإنسان خلق بأسلوب كذا ، وعندما نسمع هؤلاء نقول : هؤلاء هم المضللون ، وقد نبهنا الله أزلا إليهم .

إذن ، فوجود المضللين هو عين الدليل على صدق الله ، هؤلاء الذين قالوا : الأرض كانت جزءا من الشمس وانفصلت عنها ، والإنسان أصله قرد ، لأنه لو لم يوجد مضللون لقلنا : « أين يا رب ما قلت عنهم إنهم مضللون؟ » .

وحينما يعرض الله سبحانه وتعالى أنه خلقنا من الأرض؛ وجعل اقتياتنا منها ، فإن العلم يأتي حتى من الكافرين بالله ليؤيد هذه القضية . فحينما حللوا الإنسان؛ وجدوه مكونا من ستة عشر عنصرا ، وحللوا الطين الذي يأتي منه الزرع والخصوبة فوجدوه ستة عشر عنصرا أيضا تتطابق مع عناصر الإنسان ، أولها الأكسجين وآخرها المنجنيز . وعلى ذلك فالحق عندما يقول : أنا خلقت الإنسان من طين . نقول له : صدقت يا رب فقد جعلت اقتياتنا مما يخرج من الطين .

إذن فمسألة خلق السماوات والأرض يجب أن يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها الإنسان يجب أن تفطن إلى ما خُلق لك لتستدل على خالقك ، ولتؤمن ولتشهد أنه إله واحد ، وإن حاول أحد إضلالك وقال لك : هناك إله آخر ، فقل : لا إله إلا هو سبحانه .

وحين يتكلم الحق عن الإنسان فهو سبحانه يتكلم عن مكين في الكون ، وهذا المكين في الكون يحتاج إلى شيئين : إلى زمان ، وإلى مكان . والمكان للإنسان هو الأرض التي يسير عليها والسماء التي تظلله ، والزمان هو ما ينشأ من الليل وما ينشأ من النهار ، ولذلك يريد الحق سبحانه أن

يعطينا العبرة في اختلاف الليل والنهار . ومعنى اختلاف الليل والنهار أن كلا منهما يأتي خلف الآخر ، والنهار يأتي خلف الليل ، والليل يأتي خلف النهار . { وَهُوَ الذي جَعَلَ اليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً } [الفرقان : 62]

فاختلاف الليل والنهار يعني ألا يكون النهار سرمداً أي دائما لا ينقطع ، ولا يكون الليل كذلك سرمداً ، ولذلك فإن هناك آيات أخرى يمتن فيها الحق علينا بهذه النعمة فيقول : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ } [القصص : 71-72]

إذن فأنت أيها المتحرك في الكون ينطبق عليك ما ينطبق على كل متحرك ، لابد لك من سكون بقدر حركتك ، ولذلك انقسم الزمان إلى ليل تسكن فيه ، وإلى نهار تتحرك فيه ، ولذلك يقول الحق : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اليل لِبَاساً والنوم سُبَاتاً وَجَعَلَ النهار نُشُوراً } [الفرقان : 47]

ويعلم سبحانه أزلا أنه لا يمكن أن يكون الليل أي وقت الراحة سباتا لكل الناس ، بل لابد من أناس يقومون بأمور تقتضي اليقظة بالليل ، ولهؤلاء يقول سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم باليل والنهار } [الروم : 23]

إنه يعطي فرصة لهؤلاء الذين تظل عيونهم ساهرة طوال الليل ليستريحوا بالنهار إذن فمن عظمة الحق أنه جعل الزمان خلفة ، فلو كان الليل سرمدا والنهار سرمدا لفسدت الحياة ، ولذلك نجد أن الحق أقسم بقوله :

{ والضحى * واليل إِذَا سجى } [الضحى : 1-2]

فالضحى محل الحركة والكدح ، والليل محل السكون ، ولابد أن يوجد الاثنان معا . والحق سبحانه يقول : { إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف اليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر } وكلمة « فلك » يستوي فيها المفرد والجمع ، كقوله عن سفينة نوح : { واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا } . يعني يصنع سفينة واحدة أما الفلك التي تجري فهي كل الفلك . وكيف يكون جريان الفلك في الماء آية؟ . إن الإنسان يدرك أن الماء لو لم يكن على هذه السيولة ، لما استطاعت المراكب أو الفلك الإبحار فوقه ، بل لابد أن يكون الماء سائلا حتى تستطيع أن تجري فوقها الفلك ، وقبل اختراع آلات البخار كانت هذه الفلك تجري في البحر بقوة الرياح ، لماذا؟ . لأن المائية تنقسم قسمين :

* مائية أنهار .

* ومائية بحار .

ومياه الأنهار تجري دائما من أعلى إلى أسفل ناحية المصب ، ولذلك فمن المعقول أن نسلم

جريان السفينة فيها إلى مجرى الماء ، ولكن إذا كنا نريد أن نسيرها عكس جريان الماء؛ فلا بد من الريح ليساعدنا على ذلك ، ونحن نأخذ كلمة الريح على أنها الهواء . ولكن الريح هي القوة؛ لأن الله سبحانه يقول : { وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [الأنفال : 46]

يعني قوتكم ، أي أن النزاع إنما ينتج عنه تبديد القوة ، وكانت الريح قوة ظاهرة ، وعندما توصل الإنسان إلى اختراع آلة البخار وتم تشغيل السفن به ، استغنى الإنسان عن تشغيل السفن بالريح . وهكذا نعرف أن كلمة « الريح » تؤخذ على أنها الرياح ، وتؤخذ أيضا على أنها مطلق القوة ، وتؤخذ ثالثا على معنى الرائحة .

والقرآن يوضح لنا ذلك ، فعند استخدام معنى الريح كمطلق القوة نجد القرآن يقول : { إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ } [الشورى : 33]

أي أن الله حين يشاء يعطل القوة المحركة لأي شيء فهو سبحانه يفعل . أما عن معنى الريح كرائحة فنحن نجده في قوله الحق : { وَلَمَّا فَصَلَتِ العير قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّيَ لأَجِدُ رِيحَ يُوسُف } [يوسف : 94]

إن يعقوب والد يوسف عليهما السلام كان يملك حاسة شم قوية ، فعندما خرجت القافلة من مصر ، قال والده : إني أشم رائحة يوسف . وفي الريف نحن نسمع من يقول : « سأنتقم من فلان ولا اجعل له ريحة في الأرض » ، ويقصد أنه لن يجعل له أثراً في الأرض ، ولماذا استخدم هنا كلمة الرائحة؟ . لقد ثبت حديثا فقط أن الرائحة هي أبقى الآثار بالنسبة إلى الكائن الحي ، بدليل أن الذين عندهم حاسة الشم قوية من الكائنات كالكلاب البوليسية يستدلون برائحة الجاني على مكان وجوده ، كأن الجاني يترك أثرا لرائحته في مكان الجريمة ، وكل ما هو مطلوب أن يوجد من له حاسة شم قوية ليستدل عليه .

والحق سبحانه وتعالى أعطانا العقل ، ولكنه أبقى لبعض منا ولغير العاقل ما لا تستطيع أغلبيتنا أن تصل إليه ، وأصبح الكلب الذي هو حيوان بهيم أعجم يستدل على أشياء لا نستطيع نحن أن نستدل عليها ، لأنه لا يزال في عالم الحس فقط ، بينما الإنسان أخذ جانباً من عالم الحس . وجانبا من العقل .

وقوله الحق : { وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ السمآء مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا } فهل يعني هذا القول أن الماء في السماء؟ . لا . إن الماء أصله في الأرض ، لكن ماء الأرض الثابت لا ينفع لرينا ولا لري زرعنا إنه ملح أجاج مُرٌّ ، والذي يوجد على الأرض منه هو مخزون فقط ، ولذلك وضع الله له المواد الكيماوية التي تجعله لا يفسد ولا تتغير صفاته وطبيعته ، ثم تتسع رقعة الماء على قدر اليابس ثلاث مرات ، لماذا؟ . لأن الله يريد أن تتسع صفحة الماء اتساعا يجعل للبخر مصادر كبيرة واسعة هذا البخر هو عملية التقطير الإلهي .

إن إنزال الماء من السماء هو الذي نراه على هيئة المطر ، لكن تسبق نزوله مراحل متعددة هي بخر وتكثيف وتلقيح الرياح للسحاب وغيرها . وتلك المراحل المتعددة اهتدينا إليها مؤخرا ، بدليل أننا حاولنا تقليد هذه الدورة ، بأن نبخر الماء المالح ونكثفه لنستخرج ماء مقطرا ، لكن ذلك له تكاليفه المالية العالية ، فكوب واحد من الماء المقطر يستغرق وقتا ويستلزم جهدا وتكاليف بينما المعمل الإلهي يدر لنا ماءً غدقاً لا حصر لكمياته ، إن هذا المعمل يعمل ونحن لا ندري .

إن الدورة المائية تبدأ بصعود البخار من الماء ، وبعد ذلك يصادف منطقة باردة فينزل ماء عذبا . ومن دقة الخالق الحكيم سبحانه أن جعل منسوب الماء العذب دائما أعلى من منسوب الماء الصالح ، فلو كان منسوب المالح أعلى من العذب فسيطغى عليه ويفسده ، ولا نجد ماء نشربه ، لكن الخالق الحكيم جعل منسوب المياه العذبة في الأنهار أعلى من ماء البحار والمحيطات حتى ينساب الماء من النهر إلى البحر؛ وذلك لا يسبب ضررا .

فالحق سبحانه وتعالى يعلمنا أنه أنزل من السماء ماء ، كيف ينزل هذا الماء؟ . هذا ما عرفناه مؤخرا ، وبالماء العذب يُحيي الله الأرض بعد موتها ، وما هو الموت؟ إن الموت هو ذهاب الحركة ، كذلك الأرض عندما تجف فلا تبقى لها حركة ، ونحن لا نستطيع بحواسنا أن ندرك حركة الأرض أثناء نمو النبات ، لكن الله عز وجل يؤكد ذلك في قوله { وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ } [الحج : 5]

فالأرض عندما ينزل عليها المطر تنتفخ قشرتها ، وتطفو تلك القشرة على سطح الأرض ، ثم ماذا يحدث؟ . { وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } [الحج : 5]

وهذا هو معنى قوله تعالى : { فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا } . ثم تمضي الآية { وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ } أي نشر فيها كل ما يدب على الأرض ، و { وَتَصْرِيفِ الرياح } ومعنى التصريف هو التحويل والتغيير ، أي توجيه الرياح إلى نواح مختلفة سواء إلى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب ، وهذا الاختلاف لم يجعل للهواء مساراً رتيباً ، وعندما نتأمل عملية الاستطراق في الهواء نجد أنها تعطي اعتدالا مزاجيا للهواء ، فمرة يأتي من ناحية حارة؛ ليهب على المناطق الباردة ، ومرة يأتي من المناطق الباردة؛ فيهب على المناطق الحارة ، وهذا التصريف نعمة من نعم الله ، فلو كانت الرياح ثابتة لصارت مرهقة للبشر .

ونحن نسمع عن أسماء الرياح مثل الصبا والدابور ، وريح الشمال ، وريح الجنوب ، والنكباء ، والزعزع ، والصرصر ، وساعة تسمع كلمة { الرياح } بصيغة الجمع ، فلنعم أنها للخير ، وإن جاءت « ريح » بصيغة المفرد فلنعلم أنها عقيم ضارة . مثل قوله الحق : { بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } ، لكن هذه القاعدة كسرتها آية واحدة في قوله تعالى : { وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ } [يونس : 22

[
لماذا؟ . لأن الريح لو اختلفت على السفينة لكانت كارثة؛ فكان لابد أن تأتي الرياح إلى السفينة من اتجاه واحد ، ولذلك لم يترك الله كلمة « ريح » مطلقة ، وإنما وصفها بأنها ريح طيبة . وفي قول آخر يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس : 22]
إنه سبحانه يلفتنا إلى قدرته ، حتى لا يعتقد أحد أن الله خلق الخلق وخلق لهم قانونا ثم تخلى عن حكمهم ، لا ، إنه سبحانه هو ما يزال قيوم السماوات والأرض وله مطلق القدرة { والسحاب المسخر بَيْنَ السمآء والأرض } . والتسخير معناه حمل الشيء على حركة مطلوبة منه لا اختيار له فيها ، والله يسخر السحاب لأنه يريده أن يمطر هنا ، فيأتي مسخر الرياح فيسوقه إلى حيث يريد الله ، وأنت قد تنتفع بمطر ينزل من سحابة في غير مكانك ، ونحن ننتفع في مصر بماء النيل برغم أن المطر ينزل في جنوب السودان ، وفي هضاب الحبشة ، ولو اقتصرنا على الماء الذي ينزل من سماء مصر لكنا قد هلكنا عطشا ، وهذا يؤكد معنى قوله تعالى : { إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء } [الأعراف : 57]
إن السحاب يسير مسخراً إلى غاية مطلوبة منه ولا إرادة له فيها . ويختم الحق الآية بقوله : { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } أي أنها عجائب لقوم يعقلون . وحين يقول الحق : { لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } فكأنه ينبه المَلَكَة المفكرة العاقلة في الإنسان . وحين يخاطبك مخاطب؛ وينبه فيك الملكة العاقلة؛ فأعلم أن ما يخبر به ينتهي عقلك إليه بمجرد أن تفكر ، وإلاّ لو لم يكن الأمر كذلك؛ ما كانت هناك ضرورة أن يذكر لك كلمة العقل .
والقرآن الكريم دائما يقول : « يتفكرون » ، و « يعقلون » و « يتدبرون » و « يتذكرون » وكل ذلك معناه أنهم لو فكروا ، ولو عقلوا ، ولو تدبروا ، ولو تذكروا؛ لانتهوا إلى الحقيقة التي يريدها الله . والحق سبحانه وتعالى ينبه المسلم دائما لأن يستقبل الأمور بعقله وبفكره وبتدبره وبتذكره ، لأنه سبحانه يعلم أن الإنسان إذا فكر أو عقل أو تذكر أو تدبر فسوف ينتهي إلى ذات القضية .
ومن بعد ذلك يقول الحق : { وَمِنَ الناس مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله . . . {

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165)

الند هو الشبيه والنظير ، والكافر هو من يجعل لله شبيهاً ونظيراً ، والمشركون لا يخلون الله عن الألوهية ، إنما يشركون معه غيره أنداداً ، وهم يحبون هؤلاء الأنداد كحبهم لله ، أو يُحبونهم كحُبكم أنتم لله ، فكما يُحب المؤمن ربه ، يحب الكافر إلهه الذي اتخذه معبوداً . { والذين آمَنُواْ

أَشَدُّ حُبّاً للَّهِ } لماذا؟ . لأن هذا هو الحب الذي لا يختلف عليه أحد ، ولكن حب هؤلاء المشركين للآلهة المتعددة المزيفة يختلف؛ فعندما يمس المشرك الضر يضرع إلى الله وليس إلى الآلهة المزيفة ، مصداقا لقوله تعالى : { وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً } [يونس : 12]

إن المشرك يكتشف بفطرته كذبه على نفسه في مسألة اتخاذه أندادا لله ، ولذلك إذا عزت عليه الأسباب ، ووقع في مأزق فهو لا يخدع نفسه ويقول : يا صنم أنجدني : وإنما يقول : « يا رب أنقذني » . أما المؤمن فهو لا يغير حُبه لله أبداً ، المؤمن يحب ربه في السراء والضراء ، وعلى ذلك يكون الذين آمنوا أشد حباً لله ، لأنهم لا ينسونه ، لا في الرخاء ولا في الشدة لكن الكافرين لا يعرفون الله الحق إلا في الشدائد ، فإذا مرت المسألة فإنهم يسلكون كما يصف القرآن سلوك كل كافر منهم : { مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ } [يونس : 12] { وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار } [الزمر : 8]

إنهم ينسون الله ، ويعودون إلى تقديس الأنداد المزيفة ، وهم بذلك يظلمون أنفسهم . { ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب } ، ويفاجأ هؤلاء المشركون بأمر عجيب لم يكن في حسبانهم ، هم آمنوا بأنداد ويأتون يوم القيامة ليروا تلك الأنداد وهي وقود للنار تعذبهم ، ولو لم تأت معهم حجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها لقالوا : « إن الحجارة ستجدنا من هذا العذاب » . وها هو ذا الحق سبحانه يبين لهم : أن الحجارة ليست معكم في العذاب فقط ، بل هي وقود النار التي تعذبون بها ، ومصداقا لقوله تعالى : { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ } [الأنبياء : 98]

وكذلك قوله الحق عن النار : { وَقُودُهَا الناس والحجارة } [البقرة : 24]

وبذلك ينقطع عن الكافرين المشركين كل أمل في أن تنقذهم آلهتهم المزيفة . { إِذْ يَرَوْنَ العذاب } أي يرون العذاب حق اليقين ، وقد سبق أن أُخبروا به ، لكنهم لم يؤمنوا باليوم الآخر؛ لكن لو صدقوا بيوم القيامة وآمنوا لكفاهم أن يروا العذاب عين اليقين ، ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : { أَنَّ القوة للَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ الله شَدِيدُ العذاب } أي أنهم ساعة يرون العذاب حق اليقين سيدركون عندها أن القوة لله وأنه شديد العقاب .

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى ماذا سيكون حالهم عندما يرون العذاب ، فيقول : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب }

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166)

إن كل من زين الكفر والعصيان لغيره سيتبرأ من كل من زَيَّنَ لهم معصية الله والشرك به ، حتى الشيطان؛ العُمدة في إغوائهم سيتبرأ منهم ، وسيقول ساعتها : { إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق

وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ } [إبراهيم : 22]

فلن يستطيع الشيطان أن ينقذ أحدا من المشركين ، ولن يصرخ فيأتي له المشركون لإنقاذه ، وإن صرخ المشركون؛ فلن يأتي لهم الشيطان لينقذهم ، وسيتبرأ كل منهم من الآخر ، وسيتبرأ الكافرون من كل من زين لهم الشرك بالله ، أو سيقول الكافرون لمن زينوا لهم الشرك بالله : « نحن أبرياء منكم ولا علاقة لنا بكم » . وجاءت الآية بالذين اتبعوا أولا لأنهم المفتون فيهم ، ثم جاءت بالذين اتبعوا من بعد ذلك ، إنهم يرون العذاب وتتقطع بهم الأسباب ، وأصبحت كل نفس بما كسبت رهينة ، والشيطان نفسه يعترف بأنه لم يكن صاحب سلطان إلا بأن داهم ، فمن استجاب له ، جيء به إلى هذا المصير ، والسلطان إما أن يكون سلطان حجة ، وإما سلطان قهر ، ولم يكن للشيطان سلطان قهر على الكافرين ، ولم يكن له إلا عمل واحد بلا سلطان ، وهو أن دعاهم إلى الشرك بالله؛ فاستجابوا له . فماذا يحدث عندما تتقطع بهم الأسباب؟ إن الحق سبحانه يقول : { وَقَالَ الذين اتبعوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا . . . }

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)

إن تبرؤ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتُّبِعُوا لن ينفعهم ، وتمنيهم أن تكون لهم كرة أي عودة ليتبرأوا منهم لن يجدي ، ويريهم الله أعمالهم التي سبقت حسرات عليهم . ولا تكون الحسرة إلا إذا أصيب الإنسان بمصيبة لا منأى من النجاة منها ، { وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النار } أي لن ينفعهم ندمهم على ما سبق من أعمالهم السيئة ، ولن يجدي هذا الندم في إخراجهم من النار . ويقول الحق من بعد ذلك : { ياأيها الناس كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . . . }

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168)

إن من رحمة الله عز وجل على عباده أنه لم يقصر الخطاب على الذين آمنوا؛ وإنما وسع الدائرة لتشمل المؤمنين وغيرهم؛ فقال : { ياأيها الناس } فكأنه خلق ما في الأرض جميعا للناس جميعا ، وهذا ما قلنا عنه : إنه عطاء الربوبية لكل البشر ، من آمن منهم ومن لم يؤمن ، فهو سبحانه خلق كل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، ومادام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود فهو يوجه الخطاب لهم جميعا؛ مؤمنهم وكافرهم؛ وكأن الخطاب يقول للكافرين : حتى ولو لم تؤمنوا بالله ، فخذوا من

المؤمنين الأشياء الحلال واستعملوها لأنها تفيدكم في دنياكم؛ وإن لم تؤمنوا بالله ، لأن من مصلحتكم أن تأكلوا الحلال الطيب ، فالله لم يحرم إلا كل ضار ، ولم يحلل إلا كل طيب .

هنا موقف يقفه كثير من الذين أسرفوا على أنفسهم ، ويحبون أن تكون قضية الدين وقضية التحريم وقضية التحليل ، قضايا كاذبة؛ لأنه لا ينجيهم أمام أنفسهم إلا أن يجدوا أشياء يكذبون بها الدين ، لأنهم لم يستطيعوا أن يحملوا أنفسهم على مطلوبات الله ، فلما لم يستطيعوا ذلك لم يجدوا منفذا لهم إلا أن يقولوا : إن قضايا الدين كاذبة بما فيها التحليل والتحريم . إنهم يقولون : مادام الله قد حرم شيئا فلماذا خلقه في الكون؟ .

كأنهم يعتقدون أن كل مخلوق في الأرض قد خُلق ليؤكل ، وما علموا أن لكل مخلوق في الأرض مهمة ، فهم الآن يمسكون الحيات والثعابين ليستخلصوا منها السموم؛ حتى يقتلوا بها الميكروبات التي تقتل الإنسان ، وكانوا قبل اكتشاف فائدة السم في الثعبان يتساءلون « وما فائدة خلق مثل هذه الثعابين؟ » . فلما أحوجهم الله وألجأهم إلى أن يستفيدوا بما في الثعابين من سم؛ ليجعلوه علاجاً أدركوا حكمة الله من خلق هذه الأنواع ، لقد خلقها لا لنأكلها ، وإنما لنعالج بها .

فأنت إذا رأيت شيئا محرما لا تقل لماذا خلقه الله ، لأنك لا تعرف ما هي مهمته ، فليست مهمة كل مخلوق أن يأكله الإنسان ، إنما لكل مخلوق مهمة قد لا تشعر بأدائها في الكون . وهذه مسألة نستعملها نحن في ذوات نفوسنا ، على سبيل المثال؛ عندما يأتي الصيف ونخشى على ملابسنا الصوفية من الحشرات؛ فنأتي لها بما يقتل الحشرات ، وهو « النفتالين » ، ونحذر أبناءنا من عدم الاقتراب منه وأكله . إن « النفتالين » لا يؤكل ، ولكنه مفيد في قتل الحشرات الضارة .

كذلك « الفينيك » نشتريه ونضعه في زجاجة في المنزل لنطهر به أي مكان ملوث ، ونحذر الأطفال منه لأنه ضار لهم ، ولكنه نافع في تطهير المنزل من الحشرات ، وكذلك المخلوقات التي لا نعرف حكمة خلقها ، لقد خلقها الله لمهمة خاصة بها ، فلا تنقل شيئا من مهمته إلى مهمة أخرى .

وإذا كان الإنسان لم يدرك حتى الآن فائدة بعض المخلوقات ، فما أكثر ما يجهل ، وهو يكتشف كل يوم سرا من أسرار مخلوقات الله .

وعلى سبيل المثال ، كانوا ينظرون إلى نوع من السمك لا يتجاوز حجمه عقلة الإصبع؛ ولا يكبر أبدا ، واحتاروا في فائدته ، وعندما ذهبنا للسعودية ورأينا الأماكن التي نأخذ منها الماء الذي قد يفسد ، ووجدنا هذا النوع من السمك بكثرة ، فسألناهم عن حقيقة هذا السمك ، فقالوا : إنه لا يكبر ويظل على هذا الحجم ، ومهمته تنقية المياه في الأماكن التي لا يقوم الإنسان بتنقيتها .

وجربنا حقيقة ما قالوا؛ فألقينا بعضا من مخلفات الطعام؛ فوجدنا هذه الأسماك تخرج من حيث لا

ندري وتلقف هذه البقايا؛ ولا تتركها حتى تنهيها .
هكذا يخلق الحي القيوم مخلوقات لتحفظ مخلوقات أخرى ، هو سبحانه يقول للإنسان : لا تأكل هذا وكل ذاك؛ لحكمة قد لا نعرفها .
مثال آخر ، الطائر المعروف بأبي قردان صديق الفلاح ، كانت وظيفته في الحياة أن يأكل الحشرات والديدان عند ري الأرض ، ومنذ أن اختفى هذا الطائر بيتأثر المبيدات؛ استفحل خطر الديدان على الزرع وبخاصة دودة القطن . إنها معادلة إلهية مركبة تركيبا دقيقا . وكذلك الذباب ، يتساءل بعض الناس « ما حكمة وجوده في الحياة؟ » وهم لا يعرفون أن الذباب يؤدي للإنسان دورا هاما هو أكل القاذورات وما بها من أمراض ، ولو تحصن الناس بالنظافة لما جاءهم الذباب .
إذن ، فكل شيء في الوجود مرتب ترتيبا دقيقا ، إنه ترتيب خالق عليم حكيم ، مادام الحكيم هو الذي خلق؛ فلا يعترض أحد ويقول لماذا خلق كذا وكذا؟ ، لأن لكل مخلوق دوراً يؤديه في الكون .

ولذلك ينبه الخالق الناس مؤمنهم وكافرهم بأن يأكلوا الحلال الطيب من الأرض ، وهو يقول للكافر؛ إنك إن تعقلت الأمور؛ لوجدت أن كل ما أمرتك به هو لصالحك ، وحتى لو لم تؤمن فأنا أدلك على ما ينفع ، فلا تأكل إلا الحلال الطيب ، انظر إلى المؤمنين بماذا سمح لهم من طعام وكل مثلهم .
وقد أثبت الواقع والتاريخ؛ أن الكافرين يلجأون إلى منهج الله في بعض الأقضية؛ ليحلوا مشاكل حياتهم ، لا بدين الله كدين ، ولكن بأوامر الله كنظام ، فلو كان عند الكافرين بالله حكمة حتى فيما يتعلق بشئون دنياهم؛ لأخذوا ما أمر الله به المؤمنين واتبعوه .
والمثال على ذلك؛ عندما يحرم الحق سبحانه وتعالى لحم الميتة ، أي التي ماتت ولم تذبح ، إن لحمها ضار بالصحة ، لأن أوعية الدم في الحيوان وفي كل كائن حي هي وعاءان! إما أوردة وإما شرايين ، والدم قبل أن يذهب إلى الكلى أو الرئة يكون دما فاسدا ، ونحن عندما نذبح الحيوان يسيل منه الدم الفاسد وغير الفاسد ويخرج ، ويصير اللحم خالصا ، لكن الحيوان الذي لم يذبح؛ لم يذك ، يعني لم يُطَهّر من فساد الدم ، وهو ضار للإنسان .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول : { ياأيها الناس } فكأنه يدعو غير المؤمنين : لو عقلتم ، لوجب أن تحتاطوا إلى حياتكم بألا تأكلوا إلا حلالا أحله الله للمؤمنين . { وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان } . أي لا تسيروا وراء الشيطان ، فالخطوة هي المسافة بين القدمين عند المشي ، أي بين النقلة والنقلة ، ولا تجعلوا الشيطان قائدكم؛ لأن الشيطان عداوته لكم مسبقة ، ويجب أن تحتاطوا بسوء الظن فيه؛ فهو الذي عصى ربه؛ ولا يصح أن يطاع في أي أمر ، { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } وعداوة الشيطان للإنسان قديمة من أيام آدم .

ويقول الحق عن أوامر الشيطان : { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسواء والفحشآء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ }

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169)

والسوء هو كل ذنب لا حد فيه ، مثل الغيبة أو النميمة ، والفحشاء هي كل ذنب فيه حد وفيه عقوبة . والشيطان يأمركم أن تقولوا على الله ما تجهلون .

ويقول الحق من بعد ذلك : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170)

وهذه الآية تعالج قضية خطيرة في المجتمع الإسلامي ، قضية تقليد الناس لعادات آبائهم .

والتقليد هو نشأة طبيعية في الإنسان ، لأن الإنسان حين يخرج للوجود مُمداً بطاقة الحياة؛ فهذه الطاقة تريد أن تتحرك؛ وحركتها تأتي دائما وفق ما ترى من حركة السابق لها ، فالطفل الصغير لا يعرف أن يده تتناول أشياء إلا إذا رأى في البيئة المحيطة به إنسانا يفعل ذلك ، وحين يريد الطفل أن يتحرك ، فهو يقلد حركة الذين حوله ، ولذلك تجد الأطفال دائما يقلدون آباءهم في معظم حركاتهم ، وحين يوجد الأطفال مع أجيال متعاقبة تمثل أعماراً مختلفة ، فإن الطفل الصغير يقلد في حركته البدائية خليطاً من حركات هذه الأجيال ، فهو يقلد جده ، ويقلد جدته ، ويقلد أباه وأمه ، وإخوته؛ فتنشأ حركات مختلطة تمثل الأجيال كلها .

ولذلك فاندماج الطفل في أسرة مكونة من آباء وأجداد ، تمثل في الإنسان طبيعة الحياة المتصلة بمنهج الحركة في الأرض وبمنهج السماء؛ لأن الطفل حين يعيش مع أبيه فقط ، قد يجده مشغولا في حركة الحياة التي ربما شدته عن قيم الحياة أو عن منهج السماء؛ لكنه حين يرى أبا لأبيه؛ هو جده قد فزع من حركة الحياة ، واتجه إلى منهج القيم؛ لأنه قريب عهد فيما يظن بلقاء الله ، فإن كان لا يصلي في شبابه فهو يصلي الآن ، وإن كان لا يفعل الطاعات سابقا؛ أصبح يفعلها الآن ، وهكذا يرى الطفل حركة الحياة الجامحة في الدنيا والتلهف عليها من أبيه ، ويجد الإقبال على القيم والعبادات من جده ، ولذلك تجده ربما عاون جده على الطاعة؛ فساعة يسمع الطفل المؤذن يقول : « الله أكبر » ، فهو يعرف أن جده يريد أن يصلي؛ فيذهب هو ويأتي بالسجادة ويفرشها لجده؛ ويقف مقلداً جده ، وإن كانت بنتا ، فنحن نجدها تقلد أمها أو جدتها وتضع الغطاء على رأسها لتصلي ، إذن ، فاندماج الأجيال يعطي الخير من الحركتين ، حركة مادية الحياة

وحركة قيم منهج السماء ، ولذلك يمتن الحق علينا قائلا : { وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً } [النحل : 72]

إذن ، فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود .

وحين يدعو الله الناس أن يتبعوا ما ينزله على الرسل فهو ينهاهم أن يتبعوا تقليد الآباء في كل حركاتهم ، لأنه قد تكون حركة الآباء قد اختلت بالغفلة عن المنهج أو بنسيان المنهج ، لذلك يدعونا ويأمرنا سبحانه : أن ننخلع عن هذه الأشياء ونتبع ما أنزل الله ، ولا نهبط إلى مستوى الأرض ، لأن عادات ومنهج الأرض قد تتغير ، ولكن منهج السماء دائما لا يتغير ، فاتبعوا ما أنزل الله .

والناس حين يحتجون يقولون : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . وتلك قضية تبريرية في الوجود ، ولو كان ذلك حقاً وصدقاً ، ومطابقا للواقع ، لما كرر الله الرسالات بعد أن علم آدم كل المنهج الذي يريد؛ لأننا لو كنا نتبع ما ألفينا عليه آباءنا .

لكان أبناء آدم سيتبعون ما كان يفعله آدم ، وأبناء أبناء آدم يتبعون آباءهم ، وهكذا يظل منهج السماء موجوداً متوارثاً فلا تغيير فيه .

إذن فما الذي اقتضى أن يتغير منهج السماء؟

إن هذا دليل على أن الناس قد غيروا المنهج ، ولذلك فقولهم : { نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } هي قضية مكذوبة ، لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم؛ لظل منهج الله في الأرض مضيئا غير متأثر بغفلة الناس ولا متأثرا بانحرافات أهل الأرض عن منهج السماء . وهو تبرير يكشف أن ما وجدوا عليه آباءهم يوافق أهواءهم .

وقوله الحق : { اتبعوا } أي اجعلوا ما أنزل عليكم من السماء متبوعا وكونوا تابعين لهذا المنهج؛ لا تابعين لسواه؛ لأن ما سوى منهج السماء هو منهج من صناعة أهل الأرض ، وهو منهج غير مأمون ، وقولهم : { مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } أي ما وجدنا عليه آباءنا ، وما تفتحت عليه عيوننا فوجدناه حركة تُحتذى وتُقتدى .

والحق يبين لهم أن هذا كلام خاطئ ، وكلام تبريري وأنتم غير صادقين فيه ، وعدم الصدق يتضح في أنكم لو كنتم متبعين لمنهج السماء؛ لما تغير المنهج ، هذا أولا ، أما ثانيا ، فأنتم في كثير من الأشياء تختلفون عن آبائكم ، فحين تكون للأبناء شخصية وذاتية فإننا نجد الأبناء حريصين على الاختلاف ، ونجد أجيالا متفسخة ، فالأب يريد شيئا والابن يريد شيئا آخر ، لذلك لا يصح أن يقولوا : { بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } ؛ لأنه لو صح ذلك لما اختلف منهج الله على الأرض لكن المنهج اختلف لدخول أهواء البشر ، ومع ذلك نرى بعضاً من الخلاف في سلوك الأبناء عن الآباء ، ونقبل ذلك ونقول : هذا بحكم تغيير واختلاف الأجيال ، أي أن الأبناء أصبحت لهم

ذاتية . ولذلك فالقول باتباع الأبناء للآباء كذب لا يمثل الواقع .
والحق سبحانه وتعالى يرد على هذه القضية لأنها قضية تبريرية لا دليل لها من صدق ، ولا برهان لها من واقع . ويقول سبحانه : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } أي أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون؟ .
إذن ، الرد جاء من ناحيتين ، من ناحية التعقل ، ومن ناحية الاهتداء ، وكل من التعقل والاهتداء منفي عن الآباء في هذه الآية ، فأنتم تتبعونهم اتباعا بلا تفكير ، اتباعا أعمى .
والإنسان لا يطيع طاعة عمياء إلا لمن يتيقن صدق بصيرته النافذة المطلقة ، وهذه لا يمكن أن تتأتى من بشر إلى بشر ، فالطاعة المطلقة لا تصح أن تكون لشيء إلا لمنهج السماء ، وحين تكون طاعة عمياء لمن تثق ببصره الشافي الكافي الحكيم؛ فهي طاعة مبصرة وبصيرة في آن واحد .

لأنك تحمي نفسك من خطأ بصرك ، وخطأ بصيرتك ، وتلتزم في التبعية بمن تعتقد أن بصره وبصيرته لا يخطئان أبداً ، عندها لا تكون طاعة عمياء .
إذن . فالحق سبحانه وتعالى ينبههم إلى أنه لا يصح أن تقولوا : إنكم تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم؛ لأنه يجوز أن يكون آباؤكم لا يعقلون ، ويجوز أن يكونوا غير مهتدين . لو كان آباؤكم لهم عقل أو لهم اهتداء ، عند ذلك يكون اتباعكم لهم أمرا سليما ، لا لأنكم اتبعتم آباءكم ، ولكن لأنكم اتبعتم المعقول والهدى .
وهكذا نجد أن قضية التقليد هي أمر مزعوم ، لأنك لا تقلد مساويك أبداً ، ولكنك تتبع من تعتقد أنه أحكم منك ، ومادام مساويا لك فلا يصح أن تقلده في كل حركة . بل يجب أن تعرض الحركة على ذهنك ، ولذلك فتكليف الله لعباده لم ينشأ إلا بعد اكتمال العقل بالبلوغ . فهو سبحانه لا يأخذ العقل على غرة قبل أن ينضج؛ بل لا يكلف الله عبداً إلا إذا نضج عقله؛ ولا يكلفه إن لم يوجد له عقلاً ، ولا يكلفه إن لم تكن قوته وراء عقله؛ فإن كان الإنسان سليم القوة والعقل فإن تكليفه يكون تاما ، فسبحانه لا يكلف إلا صاحب العقل الناضج والذي لديه قدره تمكنه من تنفيذ ما اهتدى إليه عقله ، أي غير مُكره .
فالذي يكلف الإنسان بمقتضى هذه الأشياء هو عالم أن العقل إن وجد ناضجا بلا إكراه فلا بد أن يهتدي إلى قضية الحق .
إن الحق سبحانه لم يكلف الإنسان إلا بعد أن تكتمل كل ملكات نفسه ، لأن آخر ملكة تتكون في الإنسان هي مَلَكَة الغريزة ، أي أن يكون صالحا للإنجاب ، وصالحا لأن تمتد به الحياة . وقلنا من قبل : إن الثمرة التي نأكلها لا تصبح ثمرة شهية ناضجة إلا بعد أن تؤدي مهمتها الأولى؛ فمهمتها ليست في أن يأكلها الإنسان فقط . إنما أن توجد منها بذرة صالحة لامتداد الحياة ،

وعندما توجد البذرة يكون أكل الثمرة صالحا ، كذلك الإنسان؛ لا يكون صالحاً لامتداد الحياة إلا بعد البلوغ أو في سن البلوغ ، وسبحانه وتعالى جعل لهذه الغريزة سعاراً؛ لأن الحياة التي ستأتي من خلالها لها تبعات أولاد ومشقات ، فلو لم يربطها الله بهذه اللذة لانصرف عنها كثير من الناس ، لكنه سبحانه يربطها باللذة حتى يوجد امتداد الحياة بدافع عنيف وقوي من الإنسان .

فالحق سبحانه لا يفاجئ الإنسان بتكليف إلا بعد أن يُعِده إعدادا كاملا ، لأنه لو كلفه قبل أن ينضج غريزيا ، وقبل أن تصبح له قدرة على استبقاء النوع ، لقال الإنسان : إن الله كلفني قبل أن يُوجد فيَّ ذلك ، عندئذ لا يكون التعاقد الإيماني صحيحاً .

ولذلك يؤخر الحق تكليفه لعباده حتى يكتمل لهم نضج العقل ونضج الغريزة معا ، وحتى يدخل الإنسان في التكليف بكل مقوماته ، وبكل غرائزه ، وانفعالاته؛ حتى إذا تعاقد إيمانيا؛ فإن عليه أن يلتزم بتعاقده .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يربي في الإنسان ذاتيته من فور أن يصبح صالحا لاستبقاء النوع في غيره ، ومادامت قد أصبحت له ذاتية متكاملة ، فالحق يريد أن يُنهي عنه التبعية لغيره ، عند ذلك لا يقولن أحد : « أفعل مثل فعل أبي » . لكن هناك من قالوا : { نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } ، لماذا يتبعون آباءهم في المنهج الباطل ، ولا يتبعونهم في باقي أمور الدنيا ، وفي الملابس ، وفي الأكل ، وفي كل مناحي الحياة؟ .

إذن فلا شيء قد جعلهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم إلا لأنهم وجدوا فيه ما يوافق هواهم ، بدليل أنهم انسلخوا عن تبعيتهم لآبائهم في أشياء رأوها في سلوك الآباء وخالفوهم فيها ، ومادامو قد خالفوهم في أشياء كثيرة؛ فلماذا يتبعونهم في الدين الزائف؟ .

إن الله يريد أن يخلص الإنسان من إسار هذا الاتباع ، ويلفت العباد . تعقلوا يا من أصبحت لكم ذاتية ، وليعلم كل منكم أنه بنضج العقل يجب أن يصل إلى الهداية إلى الخالق الواحد الأحد ، فإن كنت قد التحمت بأبيك في أول الأمر لأنه يعولك ويمدك ، فهذا الأب هو مجرد سبب أراده الله لك ، ولكن الله هو خالقك ، وهو الذي أنزل المنهج الذي يجب أن تلتحم به لتصير حياتك إلى نماء وخير .

وهو سبحانه يقول : { واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً } [لقمان : 33]

إن الحق سبحانه وتعالى يفصل لنا هذا الأمر بدقة ، فإذا كان الآباء لا يعقلون؛ فماذا عن موقف الأبناء؟ . إن على الأبناء أن يصلحوا أنفسهم بمنهج الحق .

وقد وردت في سورة المائدة آية أخرى بالمعنى نفسه ولكن بخلاف في اللفظ ، فهنا في سورة البقرة يقول الحق : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله } . وفي آية سورة المائدة يقول الحق : { وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلى مَآ أَنزَلَ الله وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } [المائدة : 104]

وبين الآيتين اتفاق واختلاف ، فقوله الحق هنا : { اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله } وهي تعني أن نمعن النظر وأن نطبق منهج الله . وآية سورة المائدة { تَعَالَوْاْ إلى مَآ أَنزَلَ الله وَإِلَى الرسول } هذا هو الخلاف الأول .

والخلاف الثاني في الآيتين هو في جوابهم على كلام الحق ، ففي هذه السورة سورة البقرة قالوا : { بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } وهذا القول فيه مؤاخذة لهم . لكنهم في سورة المائدة قالوا : { حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ } ، وهذه تعني أنهم اكتفوا بما عندهم؛ ونفوا اتباع منهج السماء ، وهذا الموقف أقوى وأشد نفيا ، لذلك نجد أن الحق لم يخاطبهم في هذه الآية ب { اتبعوا } بل قال لهم : { تَعَالَوْاْ } أي ارتفعوا من حضيض ما عندكم إلى الإيمان بمنهج السماء .

ومادمتم قد قلتم : حسبنا بملء الفم؛ فهذا يعني أنكم اكتفيتم بما أنتم عليه . وكلمة { حَسْبُنَا } فيها بحث لطيف؛ لأن من يقول هذه الكلمة قد حسب كلامه واكتفى ، وكلمة الحساب تدل على الدقة ، والحساب يفيد العدد والأرقام . فقولهم : { حَسْبُنَا } تعني أنهم حسبوا الأمر واكتفوا به ونجد كل ورود لهذه الكلمة في القرآن يفيد أنها مرة تأتي لحساب الرقم المادي ، ومرة تأتي لحساب الإدراك الظني . فالحق يقول : { أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2]

ومعناها : هل ظن الناس أن يتركوا دون اختبار لإيمانهم؟ . هذا حساب ليس بالرقم ، وإنما حساب بالفكر ، والحساب بالفكر يمكن أن يخطئ ، ولذلك نسميه الظن .

والحق سبحانه يقول : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ } [المؤمنون : 115]

إذن ، فكلمة « حساب » تأتي مرة بمعنى الشيء المحسوب والمعدود ، ومرة تأتي في المعنويات ، ونعرفها بالفعل ، فإذا قلت : حَسَبَ يَحسِب؛ فالمعنى عَدَّ . وإذا قلت : حَسِبَ يَحسَب؛ فهي للظن .

وفيه ماضٍ وفيه مضارع ، إن كنت تريد العد الرقمي الذي لا يختلف فيه أحد تقول : « حَسَبَ بفتح السين في الماضي وبكسرها في المضارع يَحسِب » . وإن أردت بها حسبان الظن الذي يحدث فيه خلل تقول : « حَسِبَ » بالكسر ، والمضارع « يَحْسَبُ » بالفتح .

وعندما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن حساب الآخرة ، فمعنى ذلك أنه شيء محسوب ، لكن إذا بولغ في المحسوب يكون حسبانا ، وكما نقول : « غفر غفراً » و « شكر شكراً » ، يمكن أن نقول : « غفر غفراناً » و « شكر شكراناً » . كذلك « حسب حسباناً » ، والحسبان هو

الحساب الدقيق جداً الذي لا يخطئ أبداً . ولذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى بكلمة « حسبان » في الأمور الدقيقة التي خلقت بقدر ونظام دقيق؛ إن اختل فيها شيء يحدث خلل في الكون ، فيقول : { الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان * الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 15]

أي أن الكون يسير بنظام دقيق جداً؛ لا يختل أبداً ، لأنه لو حدث أدنى خلل في أداء الشمس والقمر لوظيفتيهما؛ فنظام الكون يفسد . لذلك لم يقل الحق : « الشمس والقمر بحساب » ، وإنما قال : { بحسبان } وبعد ذلك فيه فرق بين « الحسبان » و « المحسوب بالحسبان »؛ والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : { فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ اليل سَكَناً والشمس والقمر حُسْبَاناً } [الأنعام : 96]

لم يقل : بحسبان ، لأنها هي في ذاتها حساب وليست محسوبة ، أي أن حسابها آلي .

وتأتي الكلمة بصورة أخرى في سورة الكهف في قوله تعالى : { وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السمآء } [الكهف : 40]

المعنى هنا شيء للعقاب على قدر الظلم .

تماما هذه هي مادة الحساب . .

وقولهم : { حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ } في ظاهرها أبلغ من قولهم : { نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ } لكن كل من اللفظين مناسب للسياق الذي جاء فيه ف { اتبعوا } يناسبها { نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا } وقوله تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ } يناسبها قولهم : { حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ } ؛ يعني كافينا ما عندنا ولا نريد شيئا غيره .

ومن هنا نفهم لماذا جاء الحق في آية البقرة بقوله : { اتبعوا } ، وفي آية المائدة : { تَعَالَوْاْ } ، وجاء جوابهم في سورة البقرة : { بَلْ نَتَّبِعُ } ، وفي سورة المائدة : { حَسْبُنَا } .

وهناك خلاف ثالث في الآيتين : ففي آية البقرة قال : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً } .

وفي آية المائدة قال؛ { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً } . الخلاف في { لاَ يَعْقِلُونَ } و { لاَ يَعْلَمُونَ } .

وما الفرق بين « يعقلون » و « يعلمون »؟ . إن « يعقلون » تعني ما ينشأ عن فكرهم وتدبرهم للأمور ، لكن هناك أناس لا يعرفون كيف يعقلون ، ولذلك يأخذون القضايا مسلماً بها كعلم من غيرهم الذي عقل .

إذن فالذي يعلم أقل منزلة من الذي يعقل ، لأن الذي عقل هو إنسان قد استنبط ، وأما الذي علم فقد أخذ علم غيره . وعلى سبيل المثال ، فالأمي الذي أخذ حكما من الأحكام هو قد علمه من غيره ، لكنه لم يتعقله ، إذن فنفي العلم عن شخص أبلغ من نفي التعقل؛ لأن معنى «

لا يعلم » أي أنه ليس لديه شيء من علم غيره أو علمه .

وعندما يقول الحق سبحانه : { لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً } فمعنى ذلك أنه من المحتمل أن يعلموا ، لكن عندما يقول : { لاَ يَعْلَمُونَ } فمعناه أنهم لا يعقلون ولا يعلمون ، وهذا يناسب ردهم . فعندما قالوا : { بَلْ نَتَّبِعُ } فكان وصفهم ب { لاَ يَعْقِلُونَ } . وعندما قالوا : { حَسْبُنَا } وصفهم بأنهم { لاَ يَعْلَمُونَ } كالحيوانات تماما .

ونخلص مما سبق أن هناك ثلاث ملحوظات على الآيتين :

في الآية الأولى قال : { اتبعوا } ، وكان الرد منهم { نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا } والرد على الرد { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً } .

وفي الآية الثانية قال : { تَعَالَوْاْ } ، وكان الرد منهم { حَسْبُنَا } ، فكان الرد عليهم { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً } .

وهكذا نرى أن كلا من الآيتين منسجمة ، ولا يقولن أحد : إن آية جاءت بأسلوب ، والأخرى بأسلوب آخر ، فكل آية جاءت على أسلوبها يتطلبها فهي الأبلغ ، فكل آية في القرآن منسجمة كلماتها مع جملها ومع سياقها .

وقوله تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ } مبنية للمفعول ليتضمن كل قول جاء على لسان أي رسول من الله من بدء الرسالات ، فهي ليست قضية اليوم فقط إنما هي قضية قيلت من قبل ذلك . إن المعنى هو : إذا قيل لهم من أي رسول ، اتبعوا ما أنزل الله قالوا : { بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } .

ويختم الحق الآية في سورة البقرة بقوله : { وَلاَ يَهْتَدُونَ } . وكذلك كان ختام آية المائدة : { وَلاَ يَهْتَدُونَ } ؛ لنعلم أن هدى السماء لا يختلف بين عقل وعلم ، فالأولى جاءت بعد قوله تعالى : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } والثانية جاءت في ختام قوله تعالى : { أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ } وذلك للدلالة على أن هدى السماء لا يختلف بين من يعقلون ومن يعلمون .

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)

والذي ينعق هو الذي يُصَوِّتُ ويصرح للبهائم ، وهو الراعي ، إذن ، فكلمة ينعق أعطتنا صورة راع يرعى بهائم . وكان هذا الصياح من الراعي ليلفت الماشية المرعية لتسير خلفه ، وهو لا يقول لها ما يريده أن تفعله ، وإنما ينبهها بالصوت إلى ما يريد ، ويسير أمامها لتسير خلفه إلى المرعى أو إلى نبع الماء ، فالنداء لفتة ودعاء فقط ، لكن ما يراد من الدعاء يصير أمرا حركيا تراه الماشية . فكأن الماشية المرعية لا تفهم من الراعي إلا النداء والدعاء ، إنما دعاء ونداء لماذا؟ فهي لا

تعرف الهدف منه ، إلا بأن يسلك الراعي أمامها بما يرشدها . وهكذا نفهم أن هناك « راعيا » ، و « ماشية » ، و « صوتا من الراعي » وهو مجرد دعاء ونداء .

مقابل هؤلاء الثلاثة في قضيتنا هو الرسول حين يدعو فيكون هو « الراعي » ويدعو من؟ ، يدعو « الرعية » الذين هم الناس .

وبماذا يدعو الرعية؟ . أيناديها فقط لتأتيه ، أم يناديها لتأتيه ويأمرها بأشياء؟ . إنه يأمرها باتباع منهج السماء .

وهذا هو الفارق بين الراعي في الماشية والراعي في الآدميين .

فعندما يأتي الرسول ويقول : « يا قوم إني لكم رسول ، وإني لكم نذير » فهذا هو الدعاء ، ومضمون ذلك الدعاء هو « اعبدوا الله » .

« انظروا في السماوات والأرض » ، « افعلوا كذا من أوامر وانتهوا عن تلك النواهي » ، هذا ما يريده الرسول .

إذن فالرسول يشترك مع الراعي في الدعاء والنداء ، وهم اشتركوا مع المَرْعِيّ في أنهم لم يفهموا إلا الدعاء والنداء فقط ، وفي الاستجابة هم { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ } ، فالمدعو به لم يسمعوه ، وكأنهم اشتركوا مع الحيوان في أنهم لا يستمعون إلا للدعاء والنداء ، إنما المدعو به ومضمون النداء هم لا يعقلونه ولا يفهمونه . وبكم لا ينطقون بمطلوب الدعوة وهو « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ، وليس عندهم عقل يدير حركة العيون لينظروا في ملكوت السماوات والأرض ليظهر لهم وجه الحق في هذه المسألة .

إذن فمثل الذين كفروا بالرسول كمثل الماشية مع الراعي ، فهم لا يسمعون إلا مجرد الدعاء ، كما أن الماشية تسمع الراعي ولا تعقل ، مع الفارق؛ لأن الدواب ليس مطلوبا منها أن ترد على من يناديها . ولا تسمع غير ذلك من المدعو به لذا كان الكافرون شر الدواب .

وقوله الحق : { صُمٌّ } أي مصابون بالصمم؛ وهو آفة تمنع الأذن من أداء مهمتها . و { بُكْمٌ } أي مصابون بآفة تصيب اللسان؛ فتمنعه من أداء مهمته ، إلا أن السبب في الصمم سبب إيجابي ، لأن هناك شيئا قد سد منفذ السمع فلا تسمع ، وبسبب الصمم فهم بكم ، والبكم هو عجز اللسان عن الكلام ، لأن الإنسان إن لم يسمع فهو لن يتكلم .

ولذلك فإن الإنسان إذا وجد في بيئة عربية فهو يتكلم اللغة العربية ، وإذا نشأ الإنسان في بيئة إنجليزية فهو يتكلم لغة إنجليزية . وهب أنك قد نشأت في بيئة تتكلم العربية ثم لم تسمع كلمة من كلماتها هل تتكلم بها؟ لا . إذن فاللسان ينطق بما تسمعه الأذن ، فإذا لم تسمع الأذن لا يتكلم اللسان . والصمم يسبق البكم ، ولذلك فالبكم هو آفة سلبية ، وتجد أن اللسان يتحرك ويُصوّت أصواتاً لا مدلول لها ولا مفهوم . فهل نفهم من قوله تعالى عنهم : { صُمٌّ } أنهم

مصابون بالصمم؟ . لا . إن الحق يقول : لقد جعلت الأذن لتسمع السماع المفيد؛ فكأنها معطلة لا تسمع شيئا . وكذلك اللسان أوجدته ليتكلم الكلام المفيد ، بحيث من لا يتكلم به كأنه أبكم ، والعقل أوجدته ليفكر به؛ فإذا لم يفكر تفكيرا سليما منطقياً ، فكأن صاحبه لا عقل له .

فالأصم حقيقة خير من الذي يملك حاسة السمع ولا يفهم بها ، لأن الأصم له عذره ، والأبكم كذلك ، والمجنون أيضا له عذره ، فليت هؤلاء الكفار كانوا كذلك ، لقد صموا آذانهم عن سماع الدعوة ، وهم بكم عن النطق بما ينجيهم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهم عمي عن النظر في آيات الكون ، فلو أن عندهم بصر لنظروا في الكون كما قال الله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف اليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب } [آل عمران : 190]

فلو أنهم نظروا في خلق السماوات والأرض؛ لاهتدوا بفطرتهم إلى أن لهذا الوجود المتقن المحكم صانعا قد صنعه ، لكنهم لا يعقلون ، لأن عملية العقل تنشأ بعد أن تسمع ، وبعد اكتمال الحواس ، ولذلك فالإنسان في تكوينه الأول حركي حسيّ ، يرى ويسمع ويتذوق ثم يتكون عنده من بعد ذلك القضايا العقلية .

ويقول الحق بعد ذلك : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172)

وهذا خطاب من الله للذين آمنوا بأن يأكلوا من الطيبات ، وقد سبق في الآية 168 خطاب مماثل في الموضوع نفسه؛ ولكن للناس جميعا وهو قوله تعالى : { ياأيها الناس كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض حَلاَلاً طَيِّباً } . وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الناس جميعا ، فهو يلفتهم إلى قضية الإيمان ، ولكن حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان ، فالله لا يكلف بحكم إلا من آمن به ، أما من لم يؤمن به ، فلا يكلفه بأي حكم ، لأن الإيمان التزام . ومادمت قد التزمت بأنه إله حكيم؛ فخذ منه أحكام دينك .

وعدل الله اقتضى ألا يكلف إلا من يؤمن ، وهذا على خلاف مألوف البشر ، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمن يرضى بقيادتهم ومن لم يرض ، وإذا كان للقائد من البشر قوة ، فإنه يستخدمها لإرغام من يوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول .

وخطاب الله للمؤمنين هنا جاء بقوله : { كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } ، ذلك أن المؤمن يتقين تماما بأن الله هو الخالق وهو الذي يرزق . ويذيل الآية الكريمة بقوله : { واشكروا للَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } ، فشكر العبد المؤمن للرب الخالق واجب ، مادام العبد المؤمن يختص الله بالعبادة .

ويقول الحق بعد ذلك : { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله . . . }

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)

ونجد أن استخدام « الموت » يأتي في كلمات منوعة ، ففيه : « مَيِّت » و « مَيْتَة » ، و « ميّتة » ومثال ذلك ما يقوله الحق : { فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ } [فاطر : 9]

و « الميّت » بتشديد الياء هو من ينتهي أمره إلى الموت وإن كان حياً ، فكل واحد يقال له أنت ميّت ، أي مصيره إلى الموت ، ولذلك يخاطب الله رسوله : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ } [الزمر : 30]

إذن فكلمة « مَيّت » معناها أنك ستموت ، رغم أنك الآن حي .

لكن عندما نقول : « مَيْت » ، بتسكين الياء ، فمعناها مات بالفعل ، وفي الشعر العربي جاء : وما الميْت إلا من إلى القبر يُحمل ... والحق سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم } ، ولو قال : « الميِّتة » بتشديد الياء ، لقلنا : إن كل شيء سيموت يصير محرما ، لكن كلام الله هنا « الميْتة » بالياء الساكنة وهي الميتة بالفعل ، وهي التي خرجت روحها حتفا؛ لأنه فيه خروج الروح إزهاقا بمعنى أن تذبحه فيموت؛ لكن هناك مخلوقات تموت حتف أنفها ، وساعة تموت الحيوانات حتف أنفها تُحتبس فيها خلاصة الأغذية التي تناولتها وهي الموجودة بالدم؛ وهذا الدم فيه أشياء ضارة كثيرة ، ففي الدم مواد ضارة فاسدة استخلصتها أجهزة الجسم وهو حي ، وكانت في طريقها إلى الخروج منه ، فإذا ما ذبحناه؛ سال كل الدم الفاسد والسليم ، ولأن درء المفسدة مقدمة على جلب المصلحة ، فإننا نضحي بالدم السليم مع الدم الفاسد . وهذا الدم يختزنه الجسم عندما يموت ، وتظل بداخله الأشياء الضارة فيصبح اللحم مملوءاً بالمواد الضارة التي تصيب الإنسان بالأمراض . ونظرة بسيطة إلى دجاجتين ، إحداهما مذبوحة أريق دمها ، والأخرى منخنقة أي لم يرق دمها ، فإننا نجد اختلافا ظاهرا في اللون ، حتى لو قمنا بطهي هذه وتلك فسنجد اختلافا في الطعم ، سنجد طعم الدجاجة المذبوحة مقبولا ، وسنجد طعم الدجاجة الميتة غير مقبول ، وكان الذين لا يؤمنون بإله أو بمنهج يقومون بذبح الحيوانات قبل أكلها ، لماذا؟ لقد هدتهم تجاربهم إلى أن هذه عملية فيها مصلحة ، وإن لم يعرفوا طريقة الذبح الإسلامية .

وحين يحرم الله { الميتة } فليس هناك أحد منا مطالب أن يجيب عن الله؛ لماذا حرم الميتة؟ ، لأنه يكفينا أن الله قال : إنها حرام ، وما دام الذي رزقك قال لك : لا تأكل هذه؛ فقد أخرجها من رزقيه النفعية المباشرة ، ولو لم يكن فيها ضرر نعلمه ، هو سبحانه قد قال : لا تأكلها ، فلا تأكلها ، لأنه هو الذي رزق ، وهو الذي خلقك ، وهو الذي يأمرك بألا تأكلها ، فليس من حقك بعد ذلك أن تسأل لماذا حرمها علي؟ .

وهب أننا لم نهتد إلى حكمة التحريم ، ولم نعرف الأذى الذي يصيب الإنسان من أكل الميتة؟ هل كان الناس يقفون عند الأمر حتى تبدو علته ، أم كانوا ينفذون أوامر الله بلا تفكير؟ لقد استمع المؤمنون لأوامر الحق ونفذوها دون تردد .

إذن ، فما دام الله يخاطبنا ، فبمقتضى حيثية الإيمان يجب أن نتقبل عنه الحكم وعلة قبول الحكم هي صدوره من الذي حكم . أما أن نعرف علة الحكم ، فهذه عملية إيناس للعقل ، وتطمين على أن الله لم يكلفنا بأمر إلا وفيه نفع لنا ، والمؤمن لا يصح أن يجعل إيمانه رهنا بمعرفة العلة .
إن الحق يقول : { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة } والآية صريحة في أن كل ميتة حرام ، ومادامت ميتة فقد كان فيها حياة وروح ثم خرجت ، لكننا نأكل السمك وهو ميت ، وذلك تخصيص من السنة لعموم القرآن ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « أحل لكم ميتتان : السمك والجراد ، ودمان : الكبد والطحال » .
لماذا هذا الاستثناء في التحليل؟ لأن للعرف في تحديد ألفاظ الشارع مدخلاً ، فإذا حلفت ألا تأكل لحماً وأكلت سمكا فهل تحنث؟ . لا تحنث ، ويمينك صادقة؛ رغم أن الله وصف السمك بأنه لحم طري ، إلا أن العرف ساعة يُطلق اللحم لم يدخل فيه السمك .
إذن ، فالعرف له اعتبار ، لذلك فالزمخشري صاحب الكشاف يقول في هذه المسألة : « لو حلفت ألا تأكل اللحم وأكلت السمك فإجماع العلماء على أنك لم تحنث في يمينك » . وضرب مثلا آخر فقال : لو حلفت بأن تركب دابة ، والكافر قد أسماه الله دابة فقال : { إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله الذين كَفَرُواْ } فهل يجوز ركوب الكافر؟ . لا يجوز فكان مقتضى الآية أنه يصح لك أن تركبه وعلق على ذلك قائلا : صحيح أن الدابة هي كل ما يدب على الأرض ، إلا أن العرف خصها بذوات الأربع .
لهذا كان للعرف مدخل في مسائل التحليل والتحريم . فإذا قال قائل : إن الله حرم الميتة ، والسمك والجراد ميتة فلماذا نأكلها؟ . نرد عليه : إن العرف جرى على أن السمك والجراد ليسا لحماً ، بدليل قولهم : « إذا كثر الجراد أرخص اللحم » ، وذلك يعني أن الجراد ليس من اللحم .
أما بالنسبة للسمك ، فالسمك لم يكن كالميتة التي حرمها الله لأن الميتة المحرمة هي كل ما يذبح ويسيل دمه ، والسمك لا نفس سائلة له أي لا دم له . والجراد أيضا لا دم فيه ، إذن ، فتحليل أكله وهو ميت إنما جاء بسبب عدم وجود نفس سائلة يترتب عليها انتقال ما يضر من داخله إلى الإنسان ، وكذلك الكبد والطحال أيضا ليسا بدم؛ فالدم له سيولة ، والكبد والطحال لحم متجمد متماسك ، خلاصة دم تكّون منه عضو الكبد وعضو الطحال .
إذن ، السنة لها لدور بيان في التحليل والتحريم ، وقوله الحق : { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم }

يعني أنه سبحانه قد حرمها لأجل بقاء الدم في الميتة وعدم سيلانه ، ومن باب أولى؛ كان تحريم الدم أمراً واجباً .

وحرم الحق « لحم الخنزير » وقلنا إن علة الإقبال عليه الحكم هو أمر الله به ، فإذا أثبت الزمن صدق القضية الإيمانية في التحليل؛ فذلك موضوع يؤكد عملية الإيمان ، لكن لو انتظرنا وأجلنا تنفيذ حكم الله حتى نتأكد من علة التحريم؛ لكنا نؤمن بالعلماء والاكتشافات العلمية قبل أن نؤمن بالله . لأننا إن انتظرنا حتى يقول العلماء كلمتهم؛ فقد اعتبرنا العلماء آمن علينا من الله . وهل يوجد مخلوق آمن على مخلوق من الخالق؟ .

إن ذلك مستحيل . إذن فالمؤمن من يأخذ كل حكم صادر من الله ، وهو متيقن أن الله لا يأمره إلا بشيء نافع له ، وفي الحقيقة فالشيء الضار غير ضار في ذاته ، فقد ينفع في أشياء أخرى . ونضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى فأنت ساعة تعاقب ابنك بأمر من الأمور ، فتحرمه من المصروف أو تحرمه من أكلة شهية ، فإن ذلك العقاب ليس ضاراً في ذاته ، إنما إغراقك إياه بما يحب ويطلب ، مع سيره في طريق لا ترتضيه ، هو دعوة للابن أن يستمر في فعل ما لا ترتضيه . إن عدم تربية الابن بالثواب والعقاب هو أمر ضار .

ولذلك نقول للذين يريدون أن يوجدوا علة لكل مُحَرَّم : أنتم لم تفطنوا إلى تحريم التأديب ، فهناك تحريم لأمر لأنه ضار ، وهناك تحريم لأمر آخر لأنك تريد أن تحرمه تأديباً له ، وأنت لا يصح منك أن تجعل عملية التأديب في القيم دون عملية الإصلاح في المادة البدنية . والحق سبحانه وتعالى أرحم بخلقه من الأب بابنه ، وهو قد حرم بعضاً من طيبات الحياة على بني إسرائيل للتأديب ، فقال عز وجل : { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } [النساء : 160]

فالحق حرم عليهم الطيبات كتأديب لهم على ظلمهم لأنفسهم . إذن ، ساعة ترى تحريماً فلا تنظر إلى تحريم الشيء الضار ، لكن انظر أيضا إلى أن هناك تحريماً من أجل التأديب ، لأن إباحة بعض من الطيبات لهؤلاء مع كونهم مخالفين للمنهج هو إغراء لهم بأن يكونوا مخالفين دائماً ، ظالمين لأنفسهم .

فالحق قد منع ما يضر الإنسان في بدنه ، ومنع أيضا بعضا من الطيبات على بعض المخالفين كتأديب لهم . وبالنسبة لتحريم الخنزير ، فقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يكشف لخلقه سر التحريم ، فأثبت العلماء أن هناك أمراضاً في الخنزير لم تكن معروفة قبل ذلك ، وتبين لهم خطورتها مثل الدودة الشريطية ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لهم سراً واحداً هو الدورة الشريطية ، فربما هنا أسرار أخرى أخطر من الدودة الشريطية .

ويحرم الحق أيضا { وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله } والإهلال هو رفع الصوت ، ولذلك يقال : هلل أي

رفع صوته بلا إله إلا الله ، ويسمى الهلال هلالاً؛ لأننا ساعة نراه نهلل ونقول : « الله أكبر ، ربي وربك الله » وساعة يولد الولد ، ويخرج من بطن أمه يتنبه إلى حياته وإلى ذاتية وجوده بعد أن كان ملتحما بذاتية أمه فهو يصرخ ، إنه يبدأ حياته بالصراخ ، ولذلك فالذين ينتظرون مولد الطفل عندما يستمعون لصرخته يطمئنون .

ولذلك يقول الشاعر :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

كأن الوليد يقبل على شيء فيه نكد ، ولا يلتفت إلى ما في اتساع الدنيا ورغد العيش فيها . وإلا فما يبكيه وإنها لأوسع ما كان فيه وأرغد؟ . فكأن صرخة الوليد هي صرخة الانتقال من رحم الأم إلى مواجهة الحياة .

كانت حياة الطفل في بطن أمة رتيبة وغذاؤه من الحبل السري ، لكنه ساعة ينفصل من أمه تنقطع صلته بجهاز تحضير الغذاء في رحم الأم ، وفقد المدد الغذائي في لحظة خروجه من بطن أمه ولم يأته مدد الرضاعة بعد؛ فالرضاعة من مدد الدنيا ، ولا يأخذها إلا إذا أخذ أقل نسبة من الهواء ليدير الرئة ، ولذلك يحرص الأطباء في أن ينزل الوليد من جهة رأسه دائماً ، لأنه لو نزل من ناحية رجليه ورأسه مازال بالداخل ، فإن أنفاسه تكون محبوسة في بطن أمه ، ويكاد يموت ، ولذلك يكشفون الآن على الأم ليعرفوا وضع الجنين ، ويقوم الطبيب بإجراء الجراحة القيصرية حرصا على حياة الوليد ، وأول شيء يقوم به الطبيب بعد ميلاد الطفل هو أن يسلك منافذ الهواء إلى أنفه ، وبعد ذلك يعالج بقية الأعضاء .

إنها صرخة الغريزة ، تماماً مثل ما تسهو أُمه عنه وجاء موعد رضعته فهو يصرخ وهكذا نعرف أن الإهلال هو رفع الصوت ، وقوله الحق : { وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله } يعني هو رفع الصوت لحظة الذبح ، والذبح نوعان : ذبح لنفعك لتأكل ويأكل غيرك ، وذبح قربى لله . وما أهل به لله ، هو ذبح قربى لله ، أما { وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله } فهو الذبح لمنفعة الإنسان فقط ، وتقرباً إلى أصنامهم وأوثانهم وما يعبدونه من دون الله .

ومادام الله هو الذي أعطى الحيوانات وسخرها لنا من أجل أن نأكلها؛ فعلينا أن نذكر المنعم ، وأن تكون القربى لله وحده هي القصد الأول . ولذلك فالمؤمنون يتقربون ويأكلون ، أما الكفار فيأكلون ولا يتقربون لله وإنما يذبحون ويتقربون إلى آلهتهم .

والحق سبحانه وتعالى حينما شرع ، فتشريعه يضع الاحتمالات ، وليس كالمشرعين من البشر الذين تضطرهم أحداث الحياة بعد التشريع إلى أن يغيروا ما شرعوا؛ لأنه حدثت أقضية بعد تطبيق التشريع لم تكن في بالهم ساعة شرعوا ، وذلك لقصور علمهم عما يحدث في الكون من القضايا التي تضطرهم وتلجئهم إلى أن يعدلوا القانون . فتعديل أي قانون بشري معناه حدوث

أقضية لا يوجد لها تكييف في القانون عند التطبيق؛ فيلجأ المشرعون إلى تعديل القانون ، ليضعوا فيه ما يتسع لهذه الأقضية .

ولكن الحق سبحانه وتعالى ساعة قنن . . فهو يقنن تقنينا يحمل في طياته كل ما يمكن أن يستجد من أقضية دون حاجة إلى تعديل ، ولأن الإسلام جاء منهاجاً خاتما ولا منهج للسماء بعده ، لذلك كان متضمنا كافة الاحتمالات . لقد كان من المعقول تعديل التقنينات عندما كانت الرسل تتوالى ، لكن عندما ختم الله رسالات السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كان لابد أن تكون التشريعات التي أنزلها الله على رسوله تحمل في ذاتها ضمانات تكفل ذلك .

إذن ، فالضرورات التي اقتضت المشروع الوضعي أن يعدل قانوناً غفل عن جزئياته ساعة وضعه الأول ، مثل هذه الأمور لا توجد في تشريعات السماء ، لأن الله يعلم الأقضية التي تجئ .

وهب أن الضرورة التي تستلزم التعديل لم تكن موجودة ، وبعد ذلك جدت ضرورات ، أكان الحق يميت خلقه لأنه قال : لا تأكلوا الميتة؟ عندئذ كنا سنقول : ما هذه الحكاية؟ صحيح الميتة ستضر ، وإنما المخمصة والمجاعة ستميت ، فلماذا لا نتحمل أكل ما يضر بدلاً من أن نمتنع عن الأكل فنموت من الجوع؟

إذن فهي عدالة الحق التي قالت : { فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ } فالاضطرار له شرط هو : { غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ } . وغير باغ يعني غير متجاوز الحد ، فيأخذ على قدر حاجته الضرورية ، مثلاً ، لا يقول : إن الله أحل الميتة لمثل ما أنا عليه من الاضطرار ويملأ بطنه منها ، لا ، إن عليه أن يأخذ على قدر استبقاء الحياة . ولا يظن أن ذلك يصبح حلالاً ، بل يقول : إن هذا حرام أبيح للاضطرار .

وأيضا لابد أن نلحظ قيمة الحقوق المتعلقة بالآخرين ، هب أن إنساناً يملك فنجان ماء لا يكفيه إلا ليروي حلقه ، وبعد ذلك جاء شخص آخر مضطر وقوي وضربه ليأخذ منه هذا الفنجان .

نقول لهذا المعتدي : لا تعتد لأن للملكية سبقاً ، فإن اتسعت لكما كمية الماء معاً فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تتسع ، فصاحب الملكية أولى بالماء ، ولا يقولن هذا الآخر : « أنا مضطر لأن آخذها منه » . إن اضطراره سيدفع عنه المضرة ويوقعها في غيره .

إذن ، فالمقاييس عند الضرورة تظل كما هي ، فلابد من احترام الحق والسبق ، ولا يصح أن نتجاوز بالضرورة قدرها ، هذا معنى قوله : { فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ } ، وقوله الحق : { فلا إِثْمَ عَلَيْهِ } يدل على أن المسألة فيها إثم أباحها الله عز وجل للضرورة؛ وذلك حتى لا نحلها تحليلاً دائماً ، فإذا مازالت الضرورة عدنا إلى أصل الحكم .

ويختم الحق الآية بقوله : { إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ونتساءل : ما علاقة { غَفُورٌ رَّحِيمٌ } بهذه الآية؛ إن المغفرة والرحمة تقتضيان ذنوباً ، وما سبق كله هو قول الحق وتشريعه ، وتحريم الميتة إلا عند

الضرورة هو كلام الحق ، والمضطر حين يأخذ منها على قدر الضرورة فإنما هو إباحة من الحق ، فلا ذنب إذن يقتضي تذييل الآية بقوله : { إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؟ .

ونقول : إذا كان الله يغفر مع الذنب ، أفلا يغفر مع الضرورة التي شرع لها الحكم ، إن المنطق يقول : إن الله يغفر الذنب الذي يحدث بلا مناسبة تستدعيه ، أفلا يغفر للمضطر الذي أجبرته الظروف على أكل الميتة؟ . إن الله غفور في الأصل أفلا يغفر لمن أعطاه رخصة؟ إذن فهو غفور رحيم ، ولن يكتب على المضطر ذنباً من جراء اضطراره . إن رحمة الله التي تغفر للعاصي الذي اجترأ على الحق بلا مناسبة ، هو سبحانه الذي كتب المغفرة لمن اضطر وكسر قاعدة التحريم عند الاضطرار .

ويقول الحق بعد ذلك : { إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ الله مِنَ الكتاب وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أولئك مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النار . . . }

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174)

إن الحق سبحانه وتعالى ينزل بوساطة رسله على خلقه ليحكم المنهج حركة الحياة للناس وعلى الناس ، إنه يحكم للناس أي لمصالحهم ، ويحكم على الناس إن فوتوا المصالح ، لأن الذي يُفَوِّت مصلحة لسواه عنده ، لابد أن يلحظ أن غيره سيفوّت عليه مصلحة عنده .

إذن ، فمن الإنصاف في التشريع أن تجعل له وعليه ، فكل « تكليف عليه » يقابله « تكليف له » ، لأنه إن كان له حق ، فحقه واجب على سواه ، ومادام حقه واجباً على ما سواه ، فلزم أن يكون حق غيره واجباً عليه؛ وإلا فمن أين يأخذ صاحب الحق حقه؟

والحق سبحانه وتعالى حين ينزل المنهج يبلغه الرسل ويحمله أولو العلم؛ ليبلغوه للناس ، فالذين يكتمون ما أنزل الله إنما يصادمون منهج السماء . ومصادمة منهج السماء من خلق الله لا تتأتى إلا من إنسان يريد أن ينتفع بباطل الحياة؛ ليأكل حق الناس . فحين يكتمون ما أنزل الله ، فقد أصبحوا عوائق لمنهج الله الذي جاء ليسيطر على حركة الحياة .

وما نفعهم في ذلك؟ . لابد أن يوجد نفع لهم ، هذا النفع لهم هو الثمن القليل ، مثل « الرشا » ، أو الأشياء التي كانوا يأخذونها من أتباعهم ليجعلوا أحكام الله على مقتضى شهوات الناس .

فالله يبين لهم : أن الشيء لا يُثمن إلا بتثمين من يعلم حقيقته ، وأنتم تُثَمّنون منهج الله ، ولا يصح أن يُثَمِّن منهج الله إلا الله . ولذلك يجب أن يكون الثمن الذي وضعه الله لتطبيق المنهج ثمنا مربحا مقنعا لكم ، فإن أخذتم ثمنا على كتمان منهج الله وأرضيتم الناس بتقنين يوافق أهواءهم وشهواتهم ، فقد خسرتم في الصفقة؛ لأن ذلك الثمن مهما علا بالتقدير البشري ، فهو ثمن قليل

وعمره قصير .

والأثمان عادة تبدأ من أول شيء يتعقل بحياة الإنسان هو قوام حياته من مأكل ومشرب ، لذلك قال الله سبحانه وتعالى : { أولئك مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النار } وإذا كانوا يأكلون في بطونهم ناراً فكيف يكون استيعاب النار لكل تلك البطون؟

لأن المؤمن كما قال الرسول يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء ، أي أن الكافر لا يأكل إلا تلذذاً بالطعام؛ فهو يريد أن يتلذذ به دائما حتى يضيق بطنه بما يدخل فيه . لكن المؤمن يأخذ من الطعام بقدر قوام الحياة ، فسيد الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الشريف : « حسب ابن آدم لقيمات يقمن أوده » .

إذن فالأكل عند المؤمن هو لمقومات الحياة وكوقود للحركة ، ولكن الكافر يأخذ الأكل كأنه متعة ذاتية . والحق يقول : { أولئك مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النار } يعني كما أرادوا امتلاء بطونهم شهوة ولذة ، فكذلك يجعل الله العذاب لهم من جنس ما فعلوه بالثمن القليل الذي أخذوه ، فهم أخذوا ليملأوا بطونهم من خبيث ما أخذوا وسيملأ الله بطونهم ناراً ، جزاء وفاقا لما فعلوا ، وهذا لون من العقاب المادي يتبعه لون آخر من العقاب هو { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله } أي أن الحق ينصرف عنهم يوم لا أنس للخلق إلا بوجه الحق .

ونحن حين نقرأ كلمة « لا يكلم فلان فلاناً » نستشعر منها الغضب؛ لأن الكلام في البشر هو وسيلة الأنس ، فإذا ما امتنع إنسان عن كلام إنسان ، فكأنه يبغضه ويكرهه . إذن { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله } معناها أنه يبغضهم ، وحسبك بصدود الله عن خلقه عقابا وعذابا . لقد والاهم بالنعمة وبعد ذلك يصد عنهم . ويقول قائل : كيف نقرأ هنا أن الحق لا يكلمهم ، وهو سبحانه القائل : { قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ } [المؤمنون : 106-108]

نقول : صحيح أنه سبحانه يقول لهم : { وَلاَ تُكَلِّمُونِ } ولكن الكلام حين ينفي من الله فالمقصود به هو كلام الحنان وكلام الرحمة وكلام الإيناس واللطف ، أما كلام العقوبة فهو اللعنة . إذن { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله } أي لا يكلمهم الحق وصلا للأنس . ولذلك حين يؤنس الله بعض خلقه يطيل معهم الكلام . ومثال ذلك عندما جاء موسى لميقات ربه ، ماذا قال الله له؟ قال عز وجل : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى } [طه : 17]

فهل يعني هذا السؤال أن الله يستفهم من موسى عما بيده؟ . إنه سؤال الإيناس في الكلام حتى يخلع موسى من دوامة المهابة .

وضربنا مثلا لذلك ولله المثل الأعلى حينما يذهب شخص إلى بيت صديقه ليزوره ، فيأتي ولده الصغير ومعه لعبة ، فيقول الضيف للطفل : ما الذي معك؟ إن الضيف يرى اللعبة في يد الطفل

، لكن كلامه مع الطفل هو للإيناس . وعندما جاء كلام الله بالإيناس لموسى قال له : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى } [طه : 17]

كان يكفي موسى أن يقول : عصا ، وتنتهي إجابته عن السؤال ، ولو قال موسى : عصا ، لكان ذلك منه عدم استيعاب لتقدير إيناس الله له بالكلام ، لكن سيدنا موسى عليه السلام انتهز سؤال الله له ليطيل الأنس بالله فيقول : { قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18]

تأمل التطويل في إجابة موسى . إنّ كلمة { هِيَ } زائدة ، و { أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا } زائدة أي غير محتاج إليها في إفادة المعنى ، و { وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي } تطويل أكثر « و { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } رغبة منه في إطالة الحديث أكثر .

إذن فكلام الله والنظر إليه سبحانه افضل النعم التي ينعم الله بها على المؤمنين يوم القيامة .

فإذا كان الله سيمنع عن الكافرين وسائل التكريم المادي فلا يكلمهم ، فهذه مسألة صعبة . { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القيامة وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } وبعد أن يحرمهم من الكلام والاستئناس بحضرته؛ ولا يطهرهم من الخبائث التي ارتكبوها؛ ولا يجعلهم أهلا لقربه ، بعد ذلك يعذبهم عذاباً شديداً؛ كأن فيه عذابا سابقا؛ ثم يأتي العذاب الأشد ، لأنهم لابد أن يلاقوا عذابا مضاعفاً ، لأنهم كتموا منهج الله عن خلق الله ، فتسببوا في إضلال الخلق ، فعليهم وزر ضلالهم وأوزار فوق أوزارهم لأنهم أضلوا سواهم .

ومسألة كلام الله للناس أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » .

ما سر حرمان هؤلاء من كلام الله وتزكيته والنظر إليهم؟ إن الشيخ الزاني يرتكب إثماً ، لا ضرورة له لأنه لا يعاني من سعار المراهقة . والملك الذي يكذب ، إنما يكذب على قوم هم رعيته ، والكذب خوف من الحق ، فمِمّنْ يخاف الملك إذا كان الناس تحت حكمه؟ . وعائل الأسرة عندما يصيبه الكبر وهو فقير ، سيسبب له هذا الكبر الكثير من المتاعب ويضيق عليه سبل الرخاء وسبل العيش ويجعله في شقاء من العيلة ، فإن أراد أحد مساعدته فسيكون الكبر والاستعلاء على الناس حائلاً بينه وبين مساعدته ، وهذا هو معنى « لا يكلمهم ولا يزكيهم » ، فما معنى « ولا ينظر إليهم »؟ إن النظر شراك العطف ، ولذلك يقطع الحق عنهم باب الرحمة والعطف من الأصل ، وهو النظر إليهم ، ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أي مؤلم ، وعندما تسمع صيغة « فعيل » فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم «

أليم » على أنه مؤلم .

ثم يقول الحق : { أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . . . }

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175)

يذكر الله لنا حيثية الحكم عليهم؛ ولماذا لا يكلمهم؛ ولماذا لا يزكيهم ، ولماذا يكون لهم في الآخرة عذاب أليم؟ إنّهم قد بدلوا الضلالة بالهدى؛ والعذاب بالمغفرة . وعندما ترى فظاعة العقاب فلا تستهوله ، ولكن انظر إلى فظاعة الجرم . إن الناس حين يفصلون الجريمة عن العقاب فهم يعطفون على المجرم؛ لأنهم لا يرون المجرم إلا حالة عقابه ومحاكمته ونسوا جريمته ، ولذلك فساعة ترى عقوبة ما وتستفظعها؛ فعليك استحضار الجرم الذي أوجب تلك العقوبة . ولذلك نجد الناس غالباً ما يعطفون على كل المجرمين الذين يحاكمون وتصدر عليهم عقوبات صارمة ، لأن الجريمة مر عليها وقت طويل ، ولم نرها ، وآثارها وتبعاتها انتهت . ولم يبق إلا المجرم؛ فيعطفون عليه ، ولذلك فمن الخطأ أن تطول الإجراءات في المحاكمات ، بل لابد من محاكمة المجرم من فور وقوع الجريمة وهي ساخنة؛ حتى لا يعطف عليه الجمهور ، لأن تعطيف قلب الجمهور عليه يجعل العقوبة قاسية .

{ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى } ونعرف أن « الباء » تدخل على المتروك ، فالضلالة هنا أُخِذَتْ وترك الهدى ، واستبدلوا العذاب بالمغفرة ، ومادامو قد أخذوا الضلالة بدلا من الهدى ، والعذاب بدلا من المغفرة ، فالعدالة أن يأخذوا العذاب الأليم .

وبعد ذلك يقول الحق : { فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النار } هذا تبشيع للعقاب حتى يُنَّفر منه الناس . ويريد منا الله أن نتعجب ، كيف يجوز للضال أن يترك الهدى ويأخذ الضلال ، وبعد ذلك تكون النتيجة أن يأخذ العذاب ويترك المغفرة . فما الذي يعطيه الأمل في أن يصبر على النار؟ ، هل عنده صبر إلى هذا الحد يجعله يقبل على الذنب الذي يدفعه إلى النار؟ . وما الذي جعله يصبر على هذا العذاب؟ أعنده قوة تُصَبِّره على النار؟ وما هذه القوة؟ .

وكأن الحق يقول : أنت غير مدرك لما ينتظرك من الجزاء وإلا ما الذي يصبرك على هذه النار؟ إنك تتمادى في طغيانك وضلالك ، وتنسى أن النار ستكون من نصيبك؛ فإذا كنت متيقناً أن النار من نصيبك؛ فكيف أخذت أماناً من صبرك على النار . فالنار أمر لا يصبر عليه إنسان أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك : { ذَلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الكتاب بالحق . . . }

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)

وذلك إشارة إلى ما تقدم ، وما تقدم هو الضلالة التي أخذوها وتركوا الهدى ، والعذاب الذي أخذوه بدلاً من المغفرة ، ونار يعذبون فيها ، وقد صبروا عليها ، إنها ثلاثة أشياء ملتقية؛ العذاب ، والضلالة ، والنار .

فالضلال هو السبب الأصيل في العذاب ، فإذا قال الله : عاقبتهم بكذا لأنهم ضلوا ، فذلك صحيح ، وإذا قال : فعلت فيهم ذلك لأنهم استحقوا العذاب ، فهو صادق ، والعذاب كحكم عام يكون بالنار .

إذن ، عندما يقول الحق : بالنار أو بالعذاب أو بالضلال فمرجعها جميعا واحد ، يقال عنه : « ذلك » . { ذَلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الكتاب بالحق } والذي يغير الكتاب ويكتمه إنما يكره الحق . { وَإِنَّ الذين اختلفوا فِي الكتاب لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } . إنها هوة واسعة يسقطون فيها ، فالشقاق في القيم المنهجية السماوية هو هوة كبيرة ، فلو كان الخلاف في أمور مادية لأمكن للبشر أن يتحملوها فيما بينهم ، ولكانت مسألة سهلة . ولكن الخلاف في أمر قيمي لا يقدر البشر على أن يصلحوه فيما بينهم ، من هنا فإن شقة الخلاف واسعة ، ولا يقوى على حلها إلا الله ، ولذلك قال سبحانه : { إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون } [الزمر : 3]

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)

وعندما جاء الأمر من الحق سبحانه وتعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة واتجاه المسلمين في صلواتهم إليها بعد أن كانوا يصلون ووجهتهم إلى بيت المقدس ، عند ذلك حدثت بلبلة ، وصار لكل أتباع ملة قبلة خاصة : فالمسلون يتجهون إلى الكعبة ، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس ، والنصارى يتجهون إلى الشرق .

وهذه الآية تؤكد أن الخلاف ليس في مسألة اتجاه الصلاة ، وقبل تحويل القبلة كان كل من يصلي يتجه إلى مُتجه ، وتغيير المتجه ليس فيه مشقة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم : لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل البر؛ لأن هذا الأمر لا مشقة فيه؛ فلا مشقة في توجه المسلمين إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين إلى بيت المقدس ، إنما المسألة هي امتثال لأمر الآمر ، فالبر إذن ليس في الأمور السهلة التي لا مشقة فيها ، وإنما في الخير الواسع الكثير ، ويشمل الإيمان ويشمل التقوى ، ويشمل الصدق ، ويشمل الطاعة ، ويشمل الإحسان ، وكل وجوه الخير تدخل في كلمة « البر » . فالبر معناه كبير واسع ، ومادام معناه متسعا هكذا فكل ناحية منه تحتاج إلى مشقة .

وانظروا إلى مطلوب البر ، ومتعلقات البر التي تتطلب منكم المشقة ، ولا تختلفوا في المسألة السهلة اليسيرة التي لا يوجد فيها أدنى تعب مثل مسألة تغيير اتجاه القبلة ، فإن كنتم تعتقدون أن ذلك هو البر نقول لكم : لا ، البر له مسئوليات تختلف ، إن مُتعلق البر هو أن يُختبر صدق الإيمان ، ويظهر الإيثار لمطلوب الله على الراحة ، ويتطلب من المؤمن أن يقبل على الطاعة وإن شقت عليه ، ويتطلب أن يمتنع المسلم عن المعاصي؛ وأن يعرف أن للمعاصي لذة عاجلة ، لكن عقابها كبير ، كل ذلك هو من مطلوبات البر والإيمان ، فلا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس ، أو إلى المشرق هو المشكلة؛ لأن وجوهكم ستتولى إلى جهة ما وإن لم تؤمروا .

والبر كما نعلم هو الخير الواسع الذي يشمل كل وجوه الجمال في الكون يقول الحق : { ولكن البر مَنْ آمَنَ } .

ولماذا جعل الله الحديث عن البر حديثا عن ذات مجسدة؛ برغم أن البر معنى؟ . إن الحق يجسد المعنى وهو البر في ذات العبد الذي آمن لأنه سبحانه حينما يريد أن يؤكد معنى من المعاني يجعل الذات مجسدة فيه . وعلى سبيل المثال ولله المثل الأعلى عندما نقول : « فلان عادل » ، أي نحن نصفه بما يحقق للسامع أنه رجل يعرف العدل . ولكن عندما نقول : « فلان عدل » فكأنه هو العدل ذاته ، وكذلك عندما نقول : « فلان صادق » فمعنى ذلك أنه صاحب ذات اتصفت بالصدق ، ومن الممكن للذات أن تنفصل عن الصدق يوما ، ولكن حين نقول : « فلان صدق » فمعنى ذلك أن الصدق قد امتزج به فلا ينحل عنه أبدا ، أو أن الحق يريد أن يقول لنا : لكن صاحب البر هو من آمن بالله ، أو يقول : « ولكن البر هو بر من آمن بالله » ، أو أن الإخبار بالذات « من آمن » عن الصفة « البر » دليل على امتزاج الذات في الصفة امتزاجا لا تتخلى عنه أبدا فكأن البر قد تجسد فيهم .

وكل هذه الأقوال يتسع لها النص القرآني الكريم .

والحق يقول : { ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله } هذه بداية الإيمان ، ويأتي بعد ذلك بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان ب { اليوم الآخر } ، إن بداية القوس هي الإيمان بالله وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر . وهنا نتساءل : وكيف يأتي الإيمان باليوم الآخر؟ نقول : يأتي الإيمان باليوم الآخر بأن تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله ، فلا تقل : أنا جعلتهما في صف واحد ، بل الإيمان بالله أولا ، وبعد ذلك الإيمان بما أخبرني به الله ، وقد أخبر سبحانه : أن هناك يوما آخر ، فصدقت ما أخبر به . وتأتي مسألة الإيمان بالملائكة فيقول الحق : { والملائكة } فكيف نؤمن بخلق من خلق الله لا نراه؟ .

إننا مادمنا قد آمنا بالقمة ، وهي الإيمان بالله ، والله أخبرنا بأن هناك ملائكة ، وحتى لو كان وجود الملائكة غيبيا فنحن نؤمن بها؛ لأن الذي أخبر بها هو الله ، وكذلك نؤمن بالجن برغم أننا

لا نراه ، وكل ما يتعلق بالغيبيات هو إخبار ممن آمنت به ، لذلك تؤمن بها .
والمسائل الإيمانية كلها غيبية ، ولا تقول في الأمر الحسي : « إنني آمنت به » ، إنما تقول : « آمنت » في الأمر الغيبي؛ لأنه أمر غيبي لا تأنس به الحواس والإدراكات ، وتريد أن تجعله عقيدة ، والعقيدة هي أمر يُعقد فلا ينحل أبدا ، ولأنه أمر غيبي فربما ينفلت منا؛ لأنه لو كان أمرا مشهديا لما غفل عنه الإنسان أبدا؛ لأن مشهديته ستجعلك تتذكره ، إنما هو أمر غيبي ، ويسمى عقيدة ، أي أمراً معقوداً لا يُحل أبدا .
والقمة العقدية هي أن تؤمن بالله ، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها ، فإن رأيت في متعلقات الإيمان أمورا محسة فاعلم أن الجهة في الإيمان منفكة؛ لأنه سيأتي ذكر الملائكة واليوم الآخر وكلاهما غيب ، وبعد ذلك سيذكر الكتاب والنبيين ، وهما محسوسان .
صحيح أن الكتاب أمر محس والنبيين كذلك ، لكننا لم نحس أن الله أنزل الكتاب ، وأن الله بعث النبيين . ونحن لم نكن على قيد الحياة وقت نزول الكتاب ولا وقت بعث النبي ، وجاء إيماننا لأننا صدقنا أن الله أنزل وحياً على محمد صلى الله عليه وسلم هذا الوحيث نزل بالكتاب ، وأن الله اختار محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون مبلغا لهذا الوحي ، وكل هذه أمور غيبية لم نرها .

والغيبيات هي أرضية الحركة الإيمانية؛ أو أساس الإيمان .
وبعد ذلك تنتقل الآية من الحديث عن الأمر العقدي ، لتبين لنا أن البر مكون من أمور عقدية هي أساس لأمور حركية ، والأمور الحركية هي المقصودة من كل تدين . فالحق سبحانه لا يعنيه أن يؤمن به أحد ، ولا يعنيه أن تؤمن بملائكته ، وكتبه ورسله ، لكن الأمر الذي يريده الله هو أن تنتظم حركة الحياة في الأرض بمنهج الله ، ولذلك ينتقل الحديث إلى الأمر المادي فيقول : { وَآتَى المال على حُبِّهِ } كأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك « آتاه » . وعندما تقول : « آتيت » فهي تعني أعطيت ، وهي تختلف عن « أتيت » التي تعني « جئت » .
وما هو المال؟ إن المال هو كل ما يتمول إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أن يأتي بكل متمول وأسميناه بالنقد . وأصبحت له الغلبة؛ لأننا نشتري بالنقد كل شيء ، لكن المعنى الأصلي للمال هو كل ما يتمول ، وكيف يجئ المال لك أو لي أو لأي إنسان؟ . أَخَرَجَ أحد منا من بطن أمه وهو يملك شيئا؟ . لا .
إن ما يملكه الإنسان يأتي إما من متحرك في الحياة قبلك إن كان والدك أو جدك وإما من حركتك أنت .
إذن لا يقال : « آتى المال » إلا إذا ثبتت له حركة ذاتية يصير بها متمولا ، أو ورث عن متمول ، والمتمول هو الذي يتحرك في الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون

لأبنائه ، وإن اتسعت أكثر فستكون لأحفاده .

والحق يقول : { وَآتَى المال على حُبِّهِ } وكلمة الحب مصدر ، والمصدر أحيانا يضاف إلى فاعله ، وأحيانا يضاف إلى المفعول الواقع عليه ، مثلا كلمة « ضرب » نحن نقول : ضرب زيد عُمَرَ ، وهكذا نجد ضاربا هو « زيد » ومضروبا هو « عمَر » .

وإذا قيل : « أعجبني ضَرْبُ زيدٍ » . إن قلت : « لعمر » عرفنا الضارب والمضروب ، وإن سكت عند قولك : أعجبني ضرب زيد « فهي تحتمل معنيين ، الضرب الصادر من زيد ، أو الضرب الواقع على زيد . فساعة تأتي بالمصدر ويضاف إلى شيء فيصح أن يضاف إلى فاعله وأن يضاف إلى مفعوله .

{ وَآتَى المال على حُبِّهِ } يمكن أن نفهمه على أكثر من معنى : يمكننا أن نفهمها على أنه يعطي المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتي المال لأنه يحب أن يعطي مما يحبه من المال عملا بقول الله تعالى { لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ } . . وهي تحتمل المعنيين . ويمكن أن تُصَعِّد المعنى فيصير » وآتى المال على حب الإيتاء أي الإعطاء « أي يُحب الإعطاء وترتاح نفسه للإعطاء ، ومن الممكن تصعيدها تصعيدا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى : وآتى المال على حب الله الذي شرع له ذلك ، وكل هذه المعاني محتملة .

والحق يقول : { وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً } [الإنسان : 8]

ويقول سبحانه أيضا : { لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ } [آل عمران : 92]

وتعطينا كل هذه الآيات وضوح الفرق بين الملكية ، وبين حب المملوك ، فمن الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها ، ولكن ليس كل ما تملكه تحبه ، فعندما تؤتي المال فمن المحتمل أن تكون قد نزعته من ملكيتك وأنت لا تحبه . وبذلك أخرجته من ملكيتك فقط ، وإما أن تكون محبا للشيء الذي تعطيه لغيرك ، وبذلك تكون قد أخرجته من ملكيتك ، ومن حبك له . وإما أن يكون المال الذي في يدك مجرد أداة لك ولغيرك وليس له مكانة في قلبك ولذلك يقول الشاعر :

لا أبالي توفير مالي لدهري ... منفقا فيه في رخاء وبأس

إن يكن في يدي وليس بقلبي ... فهو ملكي وليس يملك نفسي

إن قوله الحق : { وَآتَى المال على حُبِّهِ } تعطينا إما منزلة إخراجه من الملك وإما منزلة إخراجه من القلب الذي يحبه . ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله ، لكنهم لا ينفقون لله إلا مما يكرهون . ويقول الله في حقهم { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ } .

ولكن لمن يكون ذلك المال الذي ينطبق عليه القول : { وَآتَى المال على حُبِّهِ } ؟ .

إنه ، ل { ذَوِي القربى } ألا ترون إنساناً له حركة في الحياة قد اتسعت لنفسه ، ثم نرى قرباه

الذين لا يقدرون على الحركة محتاجين ، كيف تكون حالة نفسيته إذن؟ . لابد أن تكون نفسية متعبة؛ لأن المفروض في الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قرباه ، ونذكر في هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميراً للمسلمين ، ودخل عليه الحاجب وهو يقول : يا أمير المؤمنين رجل بالباب يدعي أنه « أخوك » ، فقال معاوية : أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخوتي؟ أدخله .

فلما دخل الرجل قال له معاوية : أي إخوتي أنت؟

قال : أخوك من آدم .

فماذا قال معاوية : ؟ .

قال : رحمٌ مقطوعة ، والله لأكونن أول من وَصلها . وأكرمه .

فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يصل قرباه من الناس كافة ، ألا يستطيع أن يصل خاصة أقاربه؟ . كيف يستطيب المؤمن إذن نعيم الحياة وهو يجد أقاربه محتاجين ، حتى لو نظرنا بعيدا عن الدين والإنسانية ، ألا تستحق المسألة أن يجود الإنسان بما عنده على أهله؟ .

وفي دائرة الإيمان حين يجعل الله حركة الحياة في التكافل دوائر ، فهو سبحانه يريد أن يوزع خير المجتمع على المجتمع؛ لأنه سبحانه حينما أراد استبقاء النوع شرع لنا طهر الالتقاء بين الرجل والمرأة بعقد علني وشهود ، لماذا؟ .

لأن الثمرة من الزواج هي الأبناء التي ستأتي بقطاع جديد من البشر في الكون ، وهذا القطاع لابد أن يكون محسوبا على الرجل أمام الناس ، وإن لم يرع الرجل في أبنائه حق الله يلمه الناس على ذلك لأنهم أبناؤه .

ولذلك عندما نرى شخصا يخفي زواجه ، كأن يتزوج زواجا عرفيا مثلا نقول له : أنت تريد أن تأتي بثمرة منك ثم تنكرها ، فيأتي أبناء غير محسوبين عليك . ولذلك فلنكن على ثقة من أن كل مشرد في الأرض نراه هو نتيجة لخطيئة إما معلنة ، وإما لا يقدر على إعلانها رجل لم يتحمل مسئولية علاقته بالمرأة ، ولا يهمل رجل ولدا منسوبا له إلا إذا تشكك في نسبه إليه ، وهذا ما يجعله ينكر نسبه .

إذن فعملية الطهر التي أرادها الله سبحانه وتعالى في الالتقاءات بين الرجل والمرأة ، إنما أرادها سبحانه لأنه يشرع لبناء أجيال جديدة ، ينشأ منها مجتمع المستقبل ، وقبل أن يوجد هؤلاء الأبناء لابد أن يكون لهم رصيد وأساس يتحملهم ، فجعل الله لنا الأولاد والأحفاد ، ويوصي الله الأبناء على الوالدين قبل ذلك ، ثم تتسع الدائرة للقرابة القريبة .

وهات واحدا واصنع له هذه الدائرة ، وهات آخر واصنع له الدائرة نفسها ، وثالثاً واصنع له دائرته ، واصنع إحصاء للقادرين وحدد دوائرهم العائلية ، ستجد كل إنسان في الكون يدخل في دائرة من هذه الدوائر ، فإن رأيت عوجا فاعلم أن مركز الدائرة قد تخلى عن محيط الدائرة .

والله سبحانه وتعالى يقول : { وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى } ، تأمل إذن الحث على البر تجد أن أول ما جاء فيه هو إيتاء ذوي القربى؛ لأن لهم مكانة خاصة؛ وعندما يؤتي كل منا قرباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته فلن يوجد محتاج وإذا وُجِدَ المحتاج فسيكون نزراً يسيراً ، وتتسع له الزكاة الواجبة .

أو كما قال بعض العلماء : المقصود بذوي القربى هم قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون ذلك؛ لأن في القرآن آية تقول : { قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى } [الشورى : 23]

ولماذا قربى رسول الله؟

لأنهم ليس لهم حق في الزكاة؛ حتى يبرأ المبلغ عن الله من أي نفع يعود عليه ، أو يعود على آله ، لذلك منع الله عنهم أي حق في الزكاة . وكأن الله يريد أن يقول لنا : لا يصح أن تجعلوا الناس الذين رفعهم الله وكرمهم عن أخذ الزكاة التي يأخذها أي فقير منكم ممنوعين من أخذ كل شيء ، فلابد أن تتخذوهم أقارب لكم بحيث لا تجعلونهم محتاجين .

وعلى فرض أن الآية تريد قُرباناً نقول : { النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ } ، فقرباه وآله أولى من قربانا وأهلنا .

وبعد ذلك جاء الله بقوله : { واليتامى } ، ونعرف أن اليتيم هو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال .

واليتيم في الإنسان غير اليتيم في الحيوان؛ فاليتيم في الحيوان هو من فقد أمه ، ولكن اليتيم في الإنسان هو من فقد أباه . واليتيم لا يكون له وصي إلا إذا كان عنده شيء من مال ، عندئذ يكون هناك وصي لإدارة أمور اليتيم . ولذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى ، ولم يقل : « لذوي اليتامى » . فربما كان هناك يتيم ضاع لا يتقدم أحد للوصاية عليه ، وليس عنده ما يستحق الوصاية؛ لذلك فعلينا أن نؤتي اليتيم من مال الله حتى ندخل في صفات البر ، أو نعطي للوصي على اليتيم لينفق عليه إن كان له وصي .

وكذلك نؤتي المال للمساكين ، والمسكين مأخوذة من السكون ، وهو الإنسان الذي لا قدرة له على الحركة ، كأن استخذاءه وذله في الحياة منعاه من الحركة .

واختلف الفقهاء حول من هو الفقير ، ومن هو المسكين ، قال بعضهم : إن الفقير هو من لا يملك شيئا ، والمسكين يملك ما لا يكفيه ، أي يملك شيئا دون ما يحتاجه ، وقال البعض الآخر : إن الفقير هو الذي يملك ما هو دون حاجته ، والمسكين من لا يملك .

وعلى كل حال فقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يجعل للفقير نصيبا من البر وللمسكين أيضا نصيبا كالآخر ، والخلاف بين العلماء لا يؤدي إلى منع أحدهما من المال ، لأن كلا منهما

المسكين والفقير يستحق من مال الله . وعلى ذلك فالخلاف لا طائل من ورائه .
وكذلك نؤتي المال لابن السبيل ، والسبيل هو الطريق ، وابن السبيل هو ابن الطريق ، وعادة ما يُنسب الإنسان إلى مكانه أو إلى بلده ، فإذا قيل ابن السبيل ، فذلك يعني أنه ليس له مكان يأوي إليه إلا الطريق ، فهو رجل منقطع ، وقد يكون ابن سبيل ذا مال في مكانه ، إلا أن الطريق قطعه عن ماله وباعد بينه وبين ما يملك أو يكون ذا مال وسرق منه ماله ، فهو منقطع .
ولماذا جعل الله نصيبا من البر لابن السبيل؟ . لقد جعل الله نصيبا من المال لابن السبيل حتى يفهم المؤمن أن تكافله الإيماني متعد إلى بيئة وجوده ، فحين يوجد في مكان وينتقل إلى مكان آخر يكون في بيئة إيمانية متكافلة .
ونؤتي المال أيضا للسائلين أي الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال ، أعط من يسألك ولو كان على فرس؛ لأنك لا تعرف لماذا يسأل ، إن بعضاً من الناس يبررون الشُّح فيقولون : إن كثيرا من السائلين هم قوم محترفون للسؤال ، ونقول لهم : مادام قد سأل انتهت المسألة ، وعمدتنا في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس » .
وما دام قد عرض نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد .
قد تظن أنه يحمل حقيبة ممتلئة بالخبز ، أو يخفي المال بعيداً . وأقول : قد يكون عنده خبز لكنّه لا يكفي أولاده ، وقد يخفي المال الذي لا يكفيه ، ولن تخسر شيئاً من إعطائه ، فلأن تخطئ في العطاء ، خير من أن تصيب في المنع .

ونؤتي المال أيضاً لمن هم { وَفِي الرقاب } وكلمة « رقبة » تُطلق في الأصل اللغوي على أصل العنق ، وليس على العنق نفسه . وتطلق كلمة الرقبة على الذات كلها ، أي الإنسان في حد ذاته ، لماذا؟ لأن حياة الإنسان يمكن أن تملكها من الرقبة ، فتستطيع أن تمسك إنساناً من رقبته وتتحكم فيه وتضغط عليه ضغطاً تمنع تنفسه إلى أن يموت ، لذلك تطلق الرقبة ويراد بها الشخص ذاته : وفي ذلك يقول القرآن : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة * فَكُّ رَقَبَةٍ } [البلد : 12-13]
أي فك الأسير ، إذن { وَفِي الرقاب } تعني فك أسر العبد ، ويمكن لصاحب البر أن يشتري العبيد ويعتقهم ، أو يسهم في فك رقابهم فذلك لون من ألوان تصفية الرق ، وفي تصفية الرق هناك شيء اسمه التدبير ، وشيء اسمه المكاتبة .
هب أن عبداً يخدمك وبعد ذلك ترى أنه أخلص في خدمتك ، فثمناً لإخلاصه في خدمتك مدة طويلة قررت أن تُدَبّره بعد موتك ، أي تعطيه حريته فيصبح حراً بعد موتك ، فكأنك علقت عبوديته على مدى حياتك ، وبعد انتهاء حياتك يصبح مدبراً أي حراً ، ولا يدخل في تركتك ، ولا يُوَرث .

وقد تكاتبه على مال فتقول له : يا عبد أنا أكاتبك على مائة جنيه ، وأطلق حركتك لتتصرف أنت وتضرب في الحياة وتكسب وتأتي لي بالمائة جنيه ، ثم أطلق سراحك ، وفي هذه الحالة فإن على أهل البر أن يعاونوا هذا المكاتب ليؤدي مال الكتابة حتى يفك رقبته من الأسر .

ومن البر أيضا إقامة الصلاة ، كأن المعنى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة » ونعرف أن معنى إقامة الصلاة هي أداء الصلاة في أوقاتها على الوجه المطلوب شرعاً .

ومن البر أن نؤتي الزكاة ، فكأن كل ما سبق { وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسآئلين وَفِي الرقاب } لا علاقة لها بالزكاة ، إن كل ذلك هو بّر آخر غير المطلوب للزكاة ، لأن الزكاة لو كانت تدخل فيما سبق لما كان الله كرَّرها في الآية .

هذه أوجه البر التي ذكرتها الآية من إيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكل ذلك لمن أراد أن يدخل في مقام الإحسان ، فمقام الإحسان كما نعرف هو أن تلزم نفسك بشيء لم يفرضه الله عليك ، إنما تحس أنت بفرح الله بك ورضاه عنك فيقبله الله منك .

ولذلك عندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل في المال حق غير الزكاة؟ ذكر هذه الآية : { لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسآئلين وَفِي الرقاب وَأَقَامَ الصلاة وَآتَى الزكاة والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أولئك الذين صَدَقُواْ وأولئك هُمُ المتقون } [البقرة : 177] إذن فتلك أوجه البر المطلوبة ، والزكاة أيضا مطلوبة .

ففي مصرف الزكاة لا يوجد ذوو القربى ولا اليتامى . صحيح أن في مصارف الزكاة إعطاء المسكين وابن السبيل ، لكن في البر هناك أشياء غير موجودة في الزكاة ، فكأنك إن أردت أن تفتح لنفسك باب البر مع الله ، فوسع دائرة الإنفاق ، وستجد أن البر قد أخذ حيزاً كبيراً من الإنفاق؛ لأن المنفق مستخلف عن الله . فالله هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود ، ومادام هو المستدعي إلى الوجود فهو سبحانه مكلف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذي استدعاه الله للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله ، ولذلك يقول الله عز وجل : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً } [البقرة : 245]

إذا كان هو سبحانه الذي أعطى المال ، فكيف يقول : أقرضني؟ . نعم ، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال ، إن المال الذي لك هو هبة من الله ، ولكن إن احتاجه أخ مسلم فهو لا يقول لك « أعطه من عندك أو اقرضه من عندك » ، إنما يقول لك : « أقرضني أنا ،

لأني أنا الذي أوجدته في الكون ورزقه مطلوب مني » ، فكأنك حين تعطيه تقرض الله ، وهذا معنى قوله : { مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً } . إنه سبحانه وتعالى متفضل بالنعمة ثم يسألك أن تقرضه هو .

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى هب أنك محتاج وفي ضائقة مالية ، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم أقرضوني ما معكم من مال؛ وسأرده لكم عندما تمر الضائقة . كأنك لم ترجع في هبتك وما أعطيته لهم من مال ، إنما اقترضته منهم ، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى .

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة رضي الله عنها عندما دخل عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآها ممسكة بدرهم ، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه ، فسألها أبوها : ما تصنعين يا فاطمة؟ قالت : أجلو درهما . قال : لماذا؟ قالت : لأني نويت أن أتصدق به ، قال : ومادمت تتصدقين به فلماذا تجلينه؟ قالت : لأني أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد المحتاج .

ومن البر أيضا أن يفي الإنسان بالعهد ، فالحق يقول : { والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ } . وما معنى العهد؟ . إن هناك عهداً ، وهناك عقد .

والعهد يوجد من طرفين تعاهدا على كذا ، لكن قد يستطيع أحدهما العطاء ولا يستطيع الآخر الرد . والعقد يوجد بين طرفين أيضاً ، أحدهما يعطي ويأخذ ، والآخر يعطي ويأخذ .

ومن البر أن تكون من { والصابرين فِي البأسآء والضراء } . ولنا أن نلحظ أن الحق جاء ب { والموفون بِعَهْدِهِمْ } مرفوعة لأنها معطوفة على خبر لكن البر ، فلماذا جاء { والصابرين } منصوبة؟ فماذا يعني كسر الإعراب؟ إن الأذن العربية اعتادت على النطق السليم الفصيح فإذا كان الكلام من بليغ نقول : لم يكسر الإعراب هنا إلا لينبهني إلى أن شيئاً يجب أن يفهم ، لأن الذي يتكلم بليغ ومادام بليغاً وقال قبلها : { والموفون } ثم قال : { والصابرين } فلابد أن يكون هناك سبب ، ما هو السبب؟ .

إن كل ما سبق مطيةُ الوصول إليه هو الصبر ، إيتاء المال على حبه ذوي القربى و . . و . . ولذلك أراد الله أن ينبه إلى مزية الصبر فكسر عنده الإعراب ، وكسر الإعراب يقتضي أن نأتي له بفعل يناسبه فجاء قوله تعالى : { والصابرين } وكأن معناها : وأخص الصابرين ، ومدح الصابرين .

إذن كسر الإعراب هنا غرضه تنبيه الآذان إلى أن شيئاً جديداً استحق أن يُخالف عنده الإعراب . لأن الصبر هو مطية كل هذه الأفعال ، فالذي يقدر في الصبر على نفسه بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وإيتاء المال على حبه هو الذي فاز وظفر ، إذن كل ذلك امتحان للصبر . ومن هنا

خص الله { والصابرين } بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح ، أو على الاختصاص . ولماذا خص الله الصابرين بالمدح؟ .

لأن التكليفات كلها تعطي مشقات على النفس ، ولا يستطيع تحمل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر . ومادام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون . ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة .

والمهم أن الآية جاءت بالصابرين بعد { والموفون } حتى تكون النقلة ملحوظة ومتيقنة ، بأن الإعراب فيما سبق { والصابرين } تقديري معطوف أي هو معطوف على خبر { ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله } . . فجاءت { والموفون } مرفوعة لنفهم أنها معطوفة على خبر { ولكن } ، ثم جاء ما بعدها { والصابرين } منصوبة ، حتى نلحظ الفرق بين المعنيين ، ولو جاءت مرفوعة مثل ما قبلها فربما مرت علينا ولم نلحظها . { والصابرين فِي البأسآء والضراء } البأساء هو البؤس والفقر ، وهذا في الأحوال ، نقول : فلان حاله بائس . { والضراء } هي الألم والوجع والمرض ، وهي تصيب البدن والجسد . { وَحِينَ البأس } أي حين الحرب عندما يلتقي المقاتل بالعدو ويصبر ويصمد ليقاتل .

إذن صفة الصبر تناولت ثلاثة أمور : في البأساء ، أي في الفقر ، وفي المرض ، وفي الحرب مع العدو ، صابر في كل هذه الأمور .

ولذلك جاء في الحديث الشريف : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كَفّرَ الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها »

ويقول الحق عن الذين دخلوا إلى رحاب البر : { أولئك الذين صَدَقُواْ } ف { مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وَآتَى المال على حُبّهِ ذَوِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسآئلين وَفِي الرقاب وَأَقَامَ الصلاة وَآتَى الزكاة والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أولئك الذين صَدَقُواْ } .

ماذا تعني صدقوا؟ الصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع الفعلي . وأولئك صدقوا في إعلان إيمانهم ، وواقع حركتهم في الحياة ، وصدق قولهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

إذن فصدق إيمانك متوقف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك . فإن آمنت وأسلمت وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك ، نقول : أنت غير صادق ، ولكن إذا وجدت صفات الإيمان في إنسان نقول له : لقد صدقت في إيمانك ، لأن حركة حياتك انسجمت مع واقعك الإيماني . وما أكثر الناس الذين يقولون ولا يفعلون ، وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام .

وما نتيجة صدق المؤمنين؟ يجيبنا الحق بوصفهم : { وأولئك هُمُ المتقون } . وساعة تسمع كلمة {

المتقون } أو « اتقوا » . فذلك يعني أنهم جعلوا وقاية بينهم وبين شيء ، ولا يُطلب منك أن تجعل وقاية بينك وبين شيء إلا إن كنت لا تتحمل هذا الشيء .

ومثل ذلك قوله تعالى : { يأيها الذين آمَنُواْ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً } [التحريم : 6]

أي اجعلوا بينكم وبين النار حاجزاً . وقلنا : إن من العجب أن كلمة « اتقوا » تأتي إلى الشيء الذي هو « اتقوا النار » وتأتي إلى « اتقوا الله » ، كيف يكون التقوى في متناقضين؟

نعم : لأن معنى اتقوا النار ، أي اجعلوا بينكم وبينها وقاية ، وهل النار فاعلة بذاتها أم بتسليط الله لها على العاصي؟ إنها فاعلة بتسليط الله لها على العاصي . إذن اتقوا الله معناها اتقوا متعلق صفات الجلال من الله ، لأن الله صفات جمال وصفات جلال فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، لأنكم لا تتحملون غضب الله ، ولا قهر الله ، ولا بطش الله ، فاجعلوا بينكم وبين صفات جلاله وقاية ، ومن آثار صفات جلاله النار . فالمسألة متساوية و لا تناقض فيها .

وبعد ذلك يقول الحق : { يأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178)

وساعة ينادي الله { يأيها الذين آمَنُواْ } فهذا النداء هو حيثية الحكم الذي سيأتي ، ومعنى هذا القول : أنا لم أكلفكم اقتحاما على إرادتكم؛ أو على اختياركم ، وإنما كلفتكم لأنكم دخلتم إلى من باب الإيمان بي ، ومادمتم قد آمنتم بي فاسمعوا مني التكليف .

فالله لم يكلف من لم يؤمن به ، ومادام الله لا يكلف إلا من آمن به فإيمانك به جعلك شريكا في العقد ، فإن كتب عليك شيئا فأنت شريك في الكتابة ، لأنك لو لم تؤمن لما كتب ، فكأن الصفقة انعقدت ، ومادامت الصفقة قد انعقدت فأنت شريك في التكليف ، ولذلك يقول الله : { كُتب } بضم الكاف . ولم يقل « كَتب » بفتح الكاف . وتلحظ الفرق جليا في الأشياء التي للإنسان دخل فيها ، فهو سبحانه يقول : { كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي } [المجادلة : 21]

إنه سبحانه هنا الذي كتب ، لأنه لا شريك له . عندما تقرأ { كُتِبَ عَلَيْكُمُ } فافهم أن فيها إلزاما ومشقة ، وهي على عكس « كتب لكم » مثل قوله تعالى : { قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا } [التوبة : 51]

إن « كتب لنا » تشعرنا أن الشيء لمصلحتنا . وفي ظاهر الأمر يبدو أن القصاص مكتوب عليك ، وساعة يكتب عليك القصاص وأنت قاتل فيكون ولي المقتول مكتوباً له القصاص ، إذن كل « عليك » مقابلها « لك » ، وأنت عرضة أن تكون قاتلا أو مقتولا . فإن كنت مقتولا فالله كتب

لك . وإن كنت قاتلا فقد كتب الله عليك . لأن الذي « لي » لابد أن يكون « على » غيري ، والذي « عليّ » لابد أن يكون « لغيري » . فالتشريع لا يشرع لفرد واحد وإنما يشرع للناس أجمعين . عندما يقول : { كتب عليكم القصاص } ، ثم يقول في الآية التي بعدها : { وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ } ، فهو سبحانه قد جاء ب « لكم » ، و « عليكم » . « عليكم » للقاتل ، و « لكم » لولي المقتول . فالتشريع عادلا لأنه لم يأت لأحد على حساب أحد ، والعقود دائما تراعي مصلحة الطرفين . { ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى الحر بِالْحُرِّ } .

ومن هو الحر؟ الحر ضد العبد وهو غير مملوك الرقبة ، والحر من كل شيء هو أكرم ما فيه ، ويقال : حر المال يعني أكرم ما في المال . و « الحر » في الإنسان هو من لا يحكم رقبته أحد . و « الحر » من البقول هو ما يؤكل غير ناضج ، أي غير مطبوخ على النار ، كالفستق واللوز .

والحق سبحانه يقول : { الحر بِالْحُرِّ } ، وظاهر النص أن الحر لا يقتل بالعبد ، لأنه سبحانه يقول : { الحر بِالْحُرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى } ، لكن ماذا يحدث لو أن عبداً قتل حراً ، أو قتلت امرأة رجلاً؛ هل نقتلهما أم لا؟

إن الحق يضع لمسألة الثأر الضوابط ، وهو سبحانه لم يُشَرِّعْ أن الحر لا يُقتل إلا بالحر ، وإنما مقصد الآية أن الحر يقتل إن قتل حراً ، والعبد يقتل إن قتل عبداً ، والأنثى مقابل الأنثى ، هذا هو إتمام المعادلة ، فجزاء القاتل من جنس ما قتل ، لا أن يتعداه القتل إلى من هو أفضل منه .

إن الحق سبحانه وتعالى يواجه بذلك التشريع في القصاص قضية كانت قائمة بين القبائل ، حيث كان هناك قتل للانتقام والثأر .

ففي الزمن الجاهلي كانت إذا نشأت معركة بين قبيلتين ، فمن الطبيعي أن يوجد قتلى وضحايا لهذا الاقتتال ، فإذا قتل عبد من قبيلة أصرت القبيلة التي تملك هذا العبد أن تُصَعِّد الثأر فتأخذ به حراً ، وكذلك إذا قتلت في تلك الحرب أنثى ، فإن قبيلتها تُصعد الثأر فتأخذ بها ذكراً .

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يحسم قضية الثأر حسماً تدريجيا ، لذلك جاء بهذا الأمر { الحر بِالْحُرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى } . إذن ، فالحق هنا يواجه قضية تصعيدية في الأخذ بالثأر ، ويضع منهجاً يحسم هذه المغالاة في الثأر .

وفي صعيد مصر ، مازلنا نعاني من الغفلة في تطبيق شريعة الله ، فحين يقتل رجل من قوم فهم لا يثأرون من القاتل ، وإنما يذهبون إلى أكبر رأس في عائلة القاتل ليقتلوه . فالذين يأخذون الثأر يريدون النكاية الأشد ، وقد يجعلون فداء المقتول عشرة من العائلة الأخرى ، وقد يمثلون بجثثهم ليتشفوا ، وكل ذلك غير ملائم للقصاص . وفي أيام الجاهلية كانوا يغالون في الثأر ، والحق سبحانه وتعالى يبلغ البشرية جمعاء بأن هذه المغالاة في الثأر تجعل نيران العداوة لا تخمد أبداً .

لذلك فالحق يريد أمر الثأر إلى حده الأدنى ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تصعد القبيلة

الأخرى الأمر فتأخذ بالعبد حراً .
إذن ، فالحق يشرع أمراً يخص تلك الحروب الجماعية القديمة ، وما كان يحدث فيها من قتل جماعي ، وما ينتج عنها بعد ذلك من مغالاة في الثأر ، وهذا هو التشريع التدريجي ، وقضى سبحانه أن يرد أمر الثأر إلى الحد الأدنى منه ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تصعد القبيلة الأخرى الثأر بأن تقتل حراً . والحق يشرع بعد ذلك أن القاتل في الأحوال العادية يتم القصاص منه بالقتل له أو بالدية .
فقد جاءت آية أخرى يقول فيها الحق : { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أنزَلَ الله فأولئك هُمُ الظالمون } [المائدة : 45]
وهكذا يصبح القصاص في قتل النفس يتم بنفس أخرى ، فلا تفرقة بين العبد أو الحر أو الأنثى ، بل مطلق نفس بمطلق نفس .

وهاهو ذا الحق سبحانه وتعالى يواجه بتقنين تشريع القصاص قضية يريد أن يميت فيها لدد الثأر وحنق الحقد . فساعة تسمع كلمة قصاص وقتل ، فمعنى ذلك أن النفس مشحونة بالبغضاء والكراهية ، ويريد أن يصفي الضغن والحقد الثأري من نفوس المؤمنين . إن الحق جل وعلا يعط لولي الدم الحق في أن يقتل أو أن يعفو ، وحين يعطي الله لولي الدم الحق في أن يقتل ، فإن أمر حياة القاتل يصبح بيد ولي الدم ، فإن عفا ولي الدم لا يكون العفو بتقنين ، وإنما بسماحة نفس ، وهكذا يمتص الحق الغضب والغيظ .
وبعد ذلك يرقق الله قلب ولي الدم فيقول : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ } .
وإذا تأملنا قوله : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ } فلنلاحظ النقلة من غليان الدم إلى العفو . ثم المبالغة في التحنن ، كأنه يقول : لا تنس الأخوة الإيمانية { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف } .
وساعة يقول الحق كلمة « أخ » فانظر هل هذا الأخ اشترك في الأب؟ مثل قوله تعالى : { وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ } . ثم يرتقى بالنسب الإيماني إلى مرتبة الأخوة الإيمانية ، فيقول : { إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ } يعني إياكم أن تجعلوا التقاء النسب المادي دون التقائكم في القيم العقائدية .
والأصل في الأخ أن يشترك في الأب مثل : { وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ } ، فإن كانوا إخوة من غير الأب يسمهم إخواناً ، فإن ارتقوا في الإيمان يسمهم إخوة . وعندما وصفهم بأنهم إخوان قال : { واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } . لقد كانت بينهم حروب وبغضاء وشقاق ، لم يصفهم بأنهم إخوة؛ لأنهم لازالوا في الشحناء ، فوصفهم

بأنهم إخوان ، وبعد أن يختمر الإيمان في نفوسهم يصبحون إخوة .
ولننظر في غزوة بدر ، هاهو ذا مصعب بن عمير ، كان فتى قريش المدلل والمنعَّم الذي كانت تفوح منه رائحة العطر وملابسه من حرير؛ كان ذلك قبل إسلامه ، وتغير كل ذلك عندما دخل في الإسلام ، فقد أخرجه الإيمان من هذا النَّعيم إلى بؤس المؤمنين الأولين لدرجة أنه كان يلبس جلد حيوان ويراه رسول الله في هذا الضنك فيقول : « انظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم » .
وعندما جاءت معركة بدر التقى مع أخيه « أبي عزيز » الذي ظل على دين قريش ، والتقى الاثنان في المعركة ، مصعب في معسكر المؤمنين ، وأبو عزيز في جيش المشركين . وأثناء المعركة رأى أخاه أبا عزيز أسيراً مع أبي اليسر وهو من الأنصار؛ فالتفت مصعب إلى أبي اليسر ، وقال : يا أبا اليسر أشدد على أسيرك فإن أمه غنية وستفديه بمال كثير .
فالتفت إليه أبو عزيز وقال : يا أخي أهذه وصاتك بأخيك؟ قال مصعب : لا لست أخي وإنما أخي هذا . وأشار إلى أبي اليسر .

لقد انتهى نسب الدم وأصبح نسب الإيمان هو الأصل ، وأصبح مصعب أخاً لأبي اليسر في الإيمان ، وانقطعت صلته بشقيقه في النسب لأنه ظل مشركاً .
وقوله تعالى : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } كأنه يحث ولي الدم على أن يعفو ولا ينسى أخوة الإيمان . صحيح أنه ولى للمقتول؛ لأنه من لحمته ونسبه ، ولكن الله أراد أن يجعل أخوة الإيمان فوق أخوة الدم . { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف } .
وقد أورد الحق الأخوة هنا لترقيق المشاعر ، لينبه أهل القاتل والقتيل معاً أن القتل لا يعني أن الأخوة الإيمانية انتهت ، لا . إن على المؤمنين أن يضعوا في اعتبارهم أن أخوة الإيمان قد تفتر رابطتها . وحين يتذكر أولياء الدم أخوة الإيمان ، فإن العفو يصبح قريباً من نفوسهم . ولنا أن نلاحظ أن الحق يرفعنا إلى مراتب التسامي ، فيذكرنا أن عفو واحد من أولياء الدم يقتضي أن تسود قضية العفو ، فلا يقتل القاتل .
وبعد ذلك لننظر إلى دقة الحق في تصفية غضب القلوب حين يضع الدية مكان القصاص بالقتل . إن الدية التي سيأخذها أولياء الدم من القاتل قد تكون مؤجلة الأداء ، فقد يقدر القاتل أو أهله على الأداء العاجل ، لذلك فعلى الذي يتحمل الدية أن يؤديها ، وعلى أهل القتيل أن يتقبلوا ذلك بالمعروف ، وأن تؤدي الدية من أهل القاتل أو من القاتل نفسه بإحسان .
وقوله الحق : { عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ } ، تدل على أن أولياء المقتول إن عفا واحد منهم فهو عفو بشيء واحد ، وليس له أن يقتص بعد ذلك ، وتنتهي المسألة ويحقن الدم ، ولم يرد الله أن يضع نصا بتحريم القصاص ، ولكن أراد أن يعطي ولي الدم الحق في أن يَقْتُل ، وحين يصبح له الحق في أن يقتل؛ فقد أصبحت المسألة في يده ، فإن عفا ، تصبح حياة القاتل ثمرة من ثمرات

إحسانه ، وإن عاش القاتل ، لا يترك هذا في نفس صاحب الدم بغضاء ، بل إن القاتل سيتحبب إليه لأنه احسن إليه ووهبه حياته .

لكن لو ظل النص على قصاص أهل القتيل من القاتل فقط ولم يتعده إلى العفو لظلت العقدة في القلب .

والثارات الموجودة في المجتمعات المعاصرة سببها أننا لم نُمكن ولي الدم من القاتل ، بدليل أنه إذا ما قدر قاتل على نفسه وذهب إلى أهل القتيل ودخل عليهم بيتهم ، وبالغ في طلب العفو منهم ، وأخذ كفنه معه وقال لهم : جئتكم لتقتصوا مني ، وهذا كفني معي فاصنعوا بي ما شئتم ، لم يحدث قط أن أهل قتيل غدروا بقاتل ، بل المألوف والمعتاد أن يعفوا عنه ، لماذا؟

لأنهم تمكنوا منه وأصبحت حياته بين أيديهم ، وفي العادة تنقلب العداوة إلى مودة . فيظل القاتل مدينا بحياته للذين عفوا عنه . والذين يعرفون ذلك من أبناء القاتل يرون أن حياة أبيهم هبة وهبها لهم أولياء القتيل وأقرباؤه ، يرون أن عفو أهل القتيل هو الذي نَجّا حياة قريبهم ، وهكذا تتسع الدائرة ، وتنقلب المسألة من عداوة إلى ود .

{ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت : 34]

ولو لم يشرع الله القصاص لأصبحت المسألة فوضى . لكنه يشرعه ، ثم يتلطف ليجعل أمر إنهاء القصاص فضلا من ولي الدم ويحببه لنا ويقول : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ } .

وهل من المعقول أن تكون الدية إحساناً؟ لتتذكر أن القائل هنا هو الله ، وكلامه قرآن ، والدقة في القرآن بلا حدود . إن الحق ينبه إلى أن أولياء الدم إذا ما قبلوا الدية؛ فمعنى ذلك أن أهل القتيل قد أسقطوا القصاص عن القاتل؛ وأنهم وهبوه حق الحياة ، لذلك فإن هذا الأمر يجب أن يُرد بتحية أو مكرمة أحسن منه .

كان الحق لا يريد من أولياء الدم أن يرهقوا القاتل أو أهله في الاقتضاء ، كما يريد أن يؤدي القاتل أو أهله الدية بأسلوب يرتفع إلى مرتبة العفو الذي ناله القاتل . وفي ذلك الأمر تخفيف عما جاء بالتوراة؛ ففي التوراة لم تكن هناك دية يفتدى القاتل بها نفسه ، بل كان القصاص في التوراة بأسلوب واحد هو قتل إنسان مقابل إنسان آخر . وفي الإنجيل لا دية ولا قتل : لأن هناك مبدأ أراد أن يتسامى به أتباع عيسى عليه السلام على اليهود الذين انغمسوا في المادية .

لقد جاء عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل لعله يستل من قلوبهم المادية ، فجاء بمبدأ : « من صفعك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » .

ولكن الإسلام قد جاء ديناً عاماً جامعاً شاملاً ، فيثير في النفس التسامي ، ويضع الحقوق في نصابها ، فأبقى القصاص ، وترك للفضل مجالاً . لذلك يقول الحق عن الدية : { ذلك تَخْفِيفٌ مِّن

رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } . وما وجه الاعتداء بعد تقرير الدية والعفو؟

كان بعض من أهل القبائل إذا قُتل منهم واحد يشيعون أنهم عفوا وصفحوا وقبلوا الدية حتى إذا خرج القاتل من مخبئه مطمئناً ، عندئذ يقتلونه . والحق يقرر أن هذا الأمر هو اعتداء ، ومن يعتدي بعد أن يُسقط حق القتل ويأخذ الدية فله عذاب أليم . وحكم الله هنا في العذاب الأليم ، ونفهمه على أن المعتدي بقتل من أعلن العفو عنه لا يقبل منه دية ويستحق القتل عقاباً ، ولا يرفع الله عنه عذاب الدنيا أو الآخرة .

إن الحق يرفع العقاب والعذاب عن القاتل إذا قبل القصاص ونفذ فيه ، أو إذا عفي عنه إلى الدية وأداها . ولكن الحق لا يقبل سوى استخدام الفرص التي أعطاها الحق للخلق ليرتفعوا في علاقاتهم . إن الحق لا يقبل أن يتستر أهل قتيل وراء العفو ، ليقتلوا القاتل بعد أن أعلنوا العفو عنه فذلك عبث بما أراده الحق منهجاً بين العباد .

ولذلك يقول الحق : { وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ . . . }

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)

وهنا نلاحظ أن النسق القرآني يأتي مرة فيقول : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ } . ويأتي هنا ليقول النسق القرآني : { وَلَكُمْ فِي القصاص } .

التشريع الدقيق المحكم يأتي بواجبات وبحقوق؛ فلا واجب بغير حق ، ولا حق بغير واجب ، وحتى نعرف سمو التشريع مطلوب من كل مؤمن أن ينظر إلى ما يجب عليه من تكاليف ، ويقرنه بما له من حقوق ، ولسوف يكتشف المؤمن أنه في ضوء منهج الله قد نال مطلق العدالة .

إن المشرع هو الله ، وهو رب الناس جميعاً ، ولذلك فلا يوجد واحد من المؤمنين أولى بالله من المؤمنين الآخرين . إن التكليف الإيماني يمنع الظلم ، ويعيد الحق ، ويحمي ويصون للإنسان المال والعرض . ومن عادة الإنسان أن يجادل في حقوقه ويريدها كاملة ، ويحاول أن يقلل من واجباته ، ولكن الإنسان المؤمن هو الذي يعطي الواجب تماما فينال حقوقه تامة ، ولذلك يقول الحق :

{ وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة : 179]

إن القصاص مكتوب على القاتل والمقتول وولي الدم . فإذا علم القاتل أن الله قد قرر القصاص فإن هذا يفرض عليه أن يسلم نفسه ، وعلى أهله ألا يخفوه بعيداً عن أعين الناس؛ لأن القاتل عليه أن يتحمل مسئولية ما فعل ، وحين يجد القاتل نفسه محوطاً بمجتمع مؤمن يرفض القتل فإنه يرتدع ولا يقتل ، إذن ففي القصاص حياة؛ لأن الذي يرغب في أن يقتل يمكنه أن يرتدع عندما يعرف أن هناك من سيقتص منه ، وأن هناك من لا يقبل المداراة عليه .

ونأتي بعد ذلك للذين يتشدقون ويقولون : إن القصاص وحشية وإهدار لآدمية الإنسان ،

ونسألهم : لماذا أخذتكم الغيرة لأن إنساناً يقتص منه بحق وقد قتل غيره بالباطل؟ ما الذي يحزنك عليه .

إن العقوبة حين شرعها الله لم يشرعها لتقع ، وإنما شرعها لتمنع . ونحن حين نقتص من القاتل نحمي سائر أفراد المجتمع من أن يوجد بينهم قاتل لا يحترم حياة الآخرين ، وفي الوقت نفسه نحمي هذا الفوضوي من نفسه؛ لأنه سيفكر ألف مرة قبل أن يرتكب جريمة .

إذن فالقصاص من القاتل عبرة لغيره ، وحماية لسائر أفراد المجتمع ولذلك يقول الحق سبحانه : { وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ } . إن الحق يريد أن يحذرنا أن تأخذنا الأريحية الكاذبة ، والإنسانية الرعناء ، والعطف الأحمق ، فنقول : نمنع القصاص .

كيف نغضب لمعاقبة قاتل بحق ، ولا نتحرك لمقتل برئ؟ إن الحق حين يشرع القصاص كأنه يقول : إياك أن تقتل أحداً لأنك ستُقتل إن قتلته ، وفي ذلك عصمة لنفوس الناس من القتل . إن في تشريع القصاص استبقاء لحياتكم؛ لأنكم حين تعرفون أنكم عندما تقتلون بريئا وستقتلون بفعلكم فسوف تمتنعون عن القتل ، فكأنكم حقنتم دماءكم . وذلك هو التشريع العالي العادل .

وفي القصاص حياة؛ لأن كل واحد عليه القصاص ، وكل واحد له القصاص ، إنه التشريع الذي يخاطب أصحاب العقول وأولي الألباب الذين يعرفون الجوهر المراد من الأشياء والأحكام ، أو غير أولي الألباب فهم الذين يجادلون في الأمور دون أن يعرفوا الجوهر منها ، فلولا القصاص لما ارتدع أحد ، ولولا القصاص لغرقت البشرية في الوحشية .

إن الحكمة من تقنين العقوبة ألا تقع الجريمة وبذلك يمكن أن تتوارى الجريمة مع العقوبة ويتوازن الحق مع الواجب .

إن المتدبر لأمر الكون يجد أن التوازن في هذه الدنيا على سبيل المثال في السنوات الماضية يأتي من وجود قوتين عظميين كلتاهما تخشى الأخرى وكلتاهما تختلف مع الأخرى ، وفي هذا الاختلاف حياة لغيرهما من الشعوب ، لأنهما لو اتفقتا على الباطل لتهدمت أركان دولتهما ، وكان في ذلك دمار العالم ، واستعباد لبقية الشعوب .

وإذا كان كل نظام من نظم العالم يحمل للآخر الحقد والكراهية والبغضاء ويريد أن يسيطر بنظامه لكنه يخشى قوة النظام الآخر ، لهذا نجد في ذلك الخوف المتبادل حماية لحياة الآخرين ، وفرصة للمؤمنين أن يأخذوا بأسباب الرقي العلمي ليقدموا للدنيا أسلوباً لائقاً بحياة الإنسان على الأرض في ضوء منهج الله . وعندما حدث اندثار لقوة من القوتين هي الاتحاد السوفيتي ، فإن الولايات المتحدة تبحث الآن عن نقيض لها؛ لأنها تعلم أن الحياة دون نقيض في مستوى قوتها ، قد يجرىء الصغار عليها .

إن الخوف من العقوبة هو الذي يصنع التوازن بين معسكرات العالم ، والخوف من العقوبة هو

الذي يصنع التوازن في الأفراد أيضا .

إن عدل الرحمن هو الذي فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا .

فها هو ذا الحق في جريمة الزنى على سبيل المثال يؤكد ضرورة أن يشاهد العقاب طائفة من الناس ليرتدعوا . إن التشديد مطلوب في التحري الدقيق في أمر حدوث الزنى؛ لأن عدم دقة التحري يصيب الناس بالقلق ويسبب ارتباكاً وشكاً في الأنساب ، والتشديد جاء أيضا في العقوبة في قول الحق : { الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين } [النور : 2]

إن الذي يجترئ على حقوق الناس يجترئ أيضا على حقوق الله ، ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس . وفي إنزال العقاب بالمعتدي خضوع لمنهج الله ، وفي رؤية هذا العقاب من قبل الآخرين هو نشر لفكرة أن المعتدي ينال عقاباً ، ولذلك شرع الحق العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن في النفس البشرية .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليعالج قضية اجتماعية أخرى . إن الحق بعد أن عالج قضية إرهاق الحياة ينتقل بنا إلى قضية أخرى من أقضية الحياة ، إنها قضية الموت الطبيعي . كأن الحق بعد أن أوضح لنا علاج قضية الموت بالجريمة يريد أن يوضح لنا بعضاً من متعلقات الموت حتفا من غير سبب مزهق للروح . إن الحق يعالج في الآية القادمة بعضاً من الأمور المتعلقة بالموت ليحقق التوازن الاقتصادي في المجتمع كما حقق بالآية السابقة التوازن العقابي والجنائي في المجتمع . يقول الحق : {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية . . . }

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180)

والحق كما أوضحت من قبل لا يقتحم على العباد أمورهم ولكنه يعرض عليهم أمر الإيمان به ، فإن آمنوا فهذا الإيمان يقتضي الموافقة على منهجه ، ولذلك فالمؤمن يشترك بعقيدته في الإيمان بما كتب الله عليه . إن المؤمن هو من ارتضى الله إلهاً ومشرعاً ، فحين يكتب الله على المؤمن أمراً ، فالمؤمن قد اشترك في كتابة هذا الأمر بمجرد إعلانه للإيمان . أما الكافر بالحق فلم يقتحم الله عليه اختياره للكفر ، ولذلك لم يكتب عليه الحق إلا أمراً واحداً هو العذاب في الآخرة .

فالله لا يكلف إلا من آمن به وأحبه وآمن بكل صفات الجلال والكمال فيه . ولذلك فالتكليف الإيماني شرف خص به الله المحبين المؤمنين به ، ولو فطن الكفار إلى أن الله أهملهم لأنهم لم يؤمنوا به لسارعوا إلى الإيمان ، ولرأوا اعتزاز كل مؤمن بتكليف الله له . إن المؤمن يرى التكليف خضوعا لمشيئة الله . والخضوع لمشيئة الله يعني الحب . ومادام الحب قد قام بين العبد والرب فإن

الحق يريد أن يديم هذا الحب ، لذلك كانت التكاليف هي مواصلة للحب بين العبد والرب . إن العبد يحب الرب بالإيمان ، والرب يحب العبد بالتكليف ، والتكليف مرتبة أعلى من إيمان العبد ، فإيمان العبد بالله لا ينفع الله ، ولكن تكاليف الله للعبد ينتفع بها العبد . إن المؤمن عليه أن يفطن إلى عزة التكليف من الله ، فليس التكليف ذلا ينزله الحق بعباده المؤمنين ، إنما هو عزة يريدها الله لعباده المؤمنين ، هكذا قول الحق : { كُتِبَ عَلَيْكُمْ } إنها أمر مشترك بين العبد والرب . إن الكتابة هنا أمر مشترك بين الحق الذي أنزل التكليف وبين العبد الذي آمن بالتكليف .

والحق يورد هنا أمراً يخص الوصية فيقول سبحانه :

{ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية لِلْوَالِدَيْنِ والأقربين بالمعروف حَقّاً عَلَى المتقين } [البقرة : 180]

وهنا نجد شرطين : الشرط الأول : يبدأ ب { إِذَا } وهي للأمر المتحقق وهو حدوث الفعل . والموت أمر حتمي بالنسبة لكل عبد ، لذلك جاء الحق بهذا الأمر بشرط هو { إِذَا } ، فهي أداة لشرط وظرف لحدث . والموت هو أمر محقق إلا أن أحداً لا يعرف ميعاده .

والشرط الثاني يبدأ ب { إِن } وهي أداة شرط نقولها في الأمر الذي يحتمل الشك؛ فقد يترك الإنسان بعد الموت ثروة وقد لا يترك شيئا ، ولذلك فإن الحق يأمر العبد بالوصية خيراً له لماذا؟ لأن الحق يريد أن يشرع للاستطراق الجماعي ، فبعد أن يوصي الحق عباده بأن يضربوا في الحياة ضرباً يوسع رزقهم ليتسع لهم ، ويفيض عن حاجتهم ، فهذا الفائض هو الخير ، والخير في هذا المجال يختلف من إنسان لآخر ومن زمن لآخر .

فعندما كان يترك العبد عشرة جنيهات في الزمن القديم كان لهذا المبلغ قيمة ، أما عندما يترك عبد آخر ألف جنيه في هذه الأيام فقد تكون محسوبة عند البعض بأنها قليل من الخير ، إذن فالخير يقدر في كل أمر بزمانه ، ولذلك لم يربطه الله برقم .

إننا في مصر مثلاً كنا نصرف الجنيه الورقي بجنيه من الذهب ويفيض منه قرشان ونصف قرش؛ أما الآن فالجنيه الذهبي يساوي أكثر من مائتين وخمسين جنيها؛ لأن رصيد الجنيه المصري في الزمن القديم كان عاليا . أما الآن فالنقد المتداول قد فاق الرصيد الذهبي ، لذلك صار الجنيه الذهبي أغلى بكثير جداً من الجنيه الورقي .

ولآن الإله الحق يريد بالناس الخير لم يحدد قدر الخير أو قيمته ، وعندما يحضر الموت الإنسان الذي عنده فائض من الخير لابد أن يوصي من هذا الخير . ولنا أن نلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن انتظار لحظة الموت ليقول الإنسان وصيته ، أو ليبلغ أسرته بالديون التي عليه ، لأن الإنسان لحظة الموت قد لا يفكر في مثل هذه الأمور . ولذلك فعلينا أن نفهم أن الحق ينبهنا إلى أن يكتب الإنسان ما له وما عليه في أثناء حياته . فيقول ويكتب وصيته التي تنفذ

من بعد حياته . يقول المؤمن : إذا حضرني الموت فلوالدي كذا وللأقربين كذا .
أي أن المؤمن مأمور بأن يكتب وصيته وهو صحيح ، ولا ينتظر وقت حدوث الموت ليقول هذه الوصية . والحق يوصي بالخير لمن؟ { لِلْوَالِدَيْنِ والأقربين بالمعروف حَقّاً عَلَى المتقين } . والحق يعلم عن عباده أنهم يلتفتون إلى أبنائهم وقد يهملون الوالدين ، لأن الناس تنظر إلى الآباء والأمهات كمودعين للحياة ، على الرغم من أن الوالدين هما سبب إيجاد الأبناء في الحياة ، لذلك يوصي الحق عباده المؤمنين بأن يخصصوا نصيبا من الخير للآباء والأمهات وأيضا للأقارب . وهو سبحانه يريد أن يحمي ضعيفين هما : الوالدان والأقرباء .
وقد جاء هذا الحكم قبل تشريع الميراث كانوا يعطون كل ما يملكون لأولادهم ، فأراد الله أن يخرجهم من إعطاء أولادهم كل شيء وحرمان الوالدين والأقربين . وقد حدد الله من بعد ذلك نصيب الوالدين في الميراث ، أما الأقربون فقد ترك الحق لعباده تقرير أمرهم في الوصية . وقد يكون الوالدان من الكفار ، لذلك لا يرثان من الابن ، ولكن الحق يقول : { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير * وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [لقمان : 14-15]
إن الحق يذكر عباده بفضله عليهم ، وأيضاً بفضل الوالدين ، ولكن إن كان الوالدان مشركين بالله فلا طاعة لهما في هذا الشرك ، ولكن هناك الأمر بمصاحبتهما في الحياة بالمعروف واتباع طريق المؤمنين الحاملين للمنهج الحق .

لذلك فالإنسان المؤمن يستطيع أن يوصي بشيء من الخير في وصيته للأبوين حتى ولو كانا من الكافرين ، ونحن نعرف أن حدود الوصية هي ثلث ما يملكه الإنسان والباقي للميراث الشرعي .
أما إذا كانا من المؤمنين فنحن نتبع الحديث النبوي الكريم : « لا وصية لوارث » .
وفي الوصية يدخل إذن الأقرباء الضعفاء غير الوارثين ، هذا هو المقصود من الاستطراق الاجتماعي . والحق حين ينبه عباده إلى الوصية في أثناء الحياة بالأقربين الضعفاء ، يريد أن يدرك العباد أن عليهم مسئولية تجاه هؤلاء . ومن الخير أن يعمل الإنسان في الحياة ويضرب في الأرض ويسعى للرزق الحلال ويترك ورثته أغنياء بدلاً من أن يكونوا عالة على أحد .
« عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : » جاء النبي صلى الله عليه وسلم يعودني ، وأنا بمكة ، قال : يرحم الله بن عفراء ، قلت : يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال : لا قلت : فالشطر؟ قال : لا . قلت الثلث؟ قال : فالثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس « . وإذا رزق الله الإنسان بالعمل خيراً كثيراً فإياك أيها الإنسان أن تقصر هذا الخير على من يرثك .

لماذا؟ لأنك إن قصرت شيئاً على من يرثك فقد تصادف في حياتك من لا يرث وله شبهة القربى منك ، وهو في حاجة إلى من يساعده على أمر معاشه فإذا لم تساعده يحقد عليك وعلى كل نعمة وهبها الله لك ، ولكن حين يعلم هذا القريب أن النعمة التي وهبها الله لك قد يناله منها شيء ولو بالوصية وليس بالتقنين الإرثي هذا القريب يملأه الفرح بالنعمة التي وهبها الله لك .

ولذلك قال الحق :

{ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية لِلْوَالِدَيْنِ والأقربين بالمعروف حَقّاً عَلَى المتقين } [البقرة : 180]

إن الحق يريد أن يلفت العباد إلى الأقرباء غير الوارثين بعد أن أدخل الآباء والأمهات في الميراث . إن الإنسان حين يكون قريباً لميت ترك خيراً ، وخص الميت هذا القريب ببعض من الخير في الوصية ، هذا القريب تمتلئ بالخير نفسه فيتعلم ألا يحبس الخير عن الضعفاء ، وهكذا يستطرق الحب وتقوم وشائج المودة .

والحق يفترض وهو الأعلم بنفوس عباده أن الموصي قد لا يكون على حق والوارث قد يكون على حق ، لذلك احتاط التشريع لهذه الحالة؛ لأن الموصىَ له حين يأخذ حظه من الوصية سينقص من نصيب الوارث ، ولذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعصم الأطراف كلها ، إنه يحمي الذي وصى ، والموصي له ، والوارث ومن هنا يقول الحق : { فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الذين يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181)

ونحن نعرف أنه في زمن نزول القرآن كانت الوصية شفاهة ، ولم تكن الكتابة منتشرة ، ولذلك أتى الحق بالجانب المشترك في الموصي والموصي له والوارث وهو جانب القول؛ فقد كان القول هو الأداة الواضحة في ذلك الزمن القديم ، ولم تكن هناك وسائل معاصرة كالشهر العقاري لتوثيق الوصية ، لذلك كان تبديل وصية الميت إثما على الذي يُبدل فيها .

إن الموصي قد برئت ذمته ، أما ذمة الموصي له والوارث فهي التي تستحق أن تنتبه إلى أن الله يعلم خفايا الصدور وهو السميع العليم . ويريد الحق أن يصلح العلاقة بين الوارث والموصي له ، لذلك يقول الحق : { فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)

إن الحق يريد العدل للجميع فإذا كانت الوصية زائغة عن العدل وعن الصراط المستقيم وكان فيها حرمان للفقير وزيادة في ثراء الغني أو ترك للأقربين ، فهذا ضياع للاستطراق الذي أراده الله ، فإذا جاء من يسعى في سبيل الخير ليرد الوصية للصواب فلا إثم عليه في التغيير الذي يحدثه في الوصية ليبدلها على الوجه الصحيح لها الذي يرتضيه الله؛ لأن الله غفور رحيم .

وقد يخاف الإنسان من صاحب الوصية أن يكون جنفاً ، والجنف يفسر بأنه الحيف والجور ، وقد يخلق الله الإنسان بجنف أي على هيئة يكون جانب منه أوطى من الجانب الآخر ، ونحن نعرف من علماء التشريح أن كل نصف في الإنسان مختلف عن النصف الآخر وقد يكون ذلك واضحا في بعض الخلق ، وقد لا يكون واضحاً إلا للمدقق الفاحص .

والإنسان قد لا يكون له خيار في أن يكون أجنف ، ولكن الإثم يأتي باختيار الإنسان أي أن يعلم الإنسان الذنب ومع ذلك يرتكبه إذن فمن خاف من موص جنفاً أي حيفاً وظلماً من غير تعمد فهذا أمر لا خيار للموصي فيه ، فإصلاح ذلك الحيف والظلم فيه خير للموصي . أما إذا كان صاحب الوصية قد تعمد أن يكون آثما فإصلاح ذلك الإثم أمر واجب . وهذه هي دقة التشريع القرآني الذي يشحذ كل ملكات الإنسان لتتلقى العدل الكامل .

والحق عالج قضية التشريع للبشر في أمر القصاص باستثمار كل ملكات الخير في الإنسان حين قال : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف } . إنه ليس تشريعا جافاً كتشريع البشر . إنه تشريع من الخالق الرحيم العليم بخبايا البشر . ويستثير الحق في البشر كل نوازع الخير ، ويعالج كذلك قضية تبديل الوصية التي وصى بها الميت بنفسه ، فمن خالف الوصية التي أقيمت على عدالة فله عقاب .

أما الذي يتدخل لإصلاح أمر الوصية بما يحقق النجاة للميت من الجنف أي الحيف غير المقصود ولكنه يسبب ألماً ، أو يصلح من أمر وصية فيها إثم فهذا أمر يريده الله ولا إثم فيه ويحقق الله به المغفرة والرحمة . وهكذا يعلمنا الحق أن الذي يسمع أو يقرأ وصية فلا بد أن يقيسها على منطق الحق والعدل وتشريع الله ، فإن كان فيه مخالفة فلا بد أن يراجع صاحبها . ولنا أن نلحظ أن الحق قد عبر عن إحساس الإنسان بالخوف من وقوع الظلم بغير قصد أو بقصد حين قال : { فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيم } .

إن كلمة { خَافَ } عندما تأتي في هذا الموضع تدل على الوحدة الإيمانية في نفوس المسلمين .

إن المؤمن الذي يتصدى لإصلاح من هذا النوع قد يكون غير وارث ، ولا هو من الموصي لهم ، ولا هو الموصي ، إنما هو مجرد شاهد ، وهذه الشهادة تجعله يسعى إلى التكافل الإيماني؛ فكل قضية تمس المؤمن إنما تمس كل المؤمنين ، فإن حدث جنف فهذا يثير الخوف في المؤمن لأن نتيجته قد تصيب غيره من المؤمنين ولو بغير قصد ، وهكذا نرى الوحدة الإيمانية .

إن الإيمان يمزج المؤمنين بعضهم ببعض حتى يصيروا كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ولهذا فعندما يتدخل المؤمن الذي لا مصلحة مباشرة له في أمر الإرث أو الوصية ليصلح من هذا الأمر فإن الحق يثيبه بخير الجزاء .

والحق سبحانه قال : { فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيم } ، وهذا القول يلفتنا إلى أن الإنسان إذا ما عزم على اتخاذ أمر في مسألة الوصية فعليه أن يستشير من حوله ، وأن يستقبل كل مشورة من أهل العلم والحكمة ، وذلك حتى لا تنشأ الضغائن بعد أن يبرم أمر الوصية إبراماً نهائياً . أي بعد وفاته ، والحق قد وضع الاحتياطات اللازمة لإصلاح أمر الوصية إن جاء بها ما يورث المشاكل؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المؤمنون في وحدة إيمانية ، لذلك فلابد من معالجة الانحراف بالوقاية منه وقبل أن يقع . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعاً » .

والحديث الشريف يضرب المثل على ضرورة التآزر والتواصي بين المؤمنين حماية لهم . فهؤلاء قوم اقتسموا سفينة بالقرعة ، والاستهام هو قرعة لا هوى لها ، وسكن بعضهم أسفل السفينة حسب ما جاء من نتيجة الاستهام ، وسكن بعضهم أعلى السفينة . لكن الذين سكنوا أسفل السفينة أرادوا بعضاً من الماء ، واقترح بعضهم أن يخرقوا السفينة للحصول على الماء ، وبرروا ذلك بأن مثل هذا الأمر لن يؤذي من يسكنون في النصف الأعلى من السفينة ، ولو أنهم فعلوا ذلك ، ولم يمنعهم الذين يسكنون في النصف الأعلى من السفينة لغرقوا جميعاً ، لكن لو تدخل الذين يسكنون في النصف الأعلى من السفينة لمنعوا الغرق ، وكذلك حدود الله ، فعلى المؤمنين أن يتكاتفوا بالتواصي في تطبيقها ، فلا يقولن أحد : « إن ما يحدث من الآخرين لا شأن لي به » لأن أمر المسلمين يهم كل مسلم ، ولذلك جاءت آية قال فيها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه : « هناك آية تقرأونها على غير وجهها » أي تفهمونها على غير معناها .

والآية هي قول الحق : { واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً واعلموا أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب } [الأنفال : 25]

ويقول شيخنا « حسنين مخلوف » مفتي الديار المصرية الأسبق في شرح هذه الآية : أي احذروا ابتلاء الله في محن قد تنزل بكم ، تعم المسيء وغيرهم ، كالبلاء والقحط والغلاء ، وتسلط الجبابرة وغير ذلك ، والمراد تحذير من الذنوب التي هي أسباب الابتلاء ، كإقرار المنكرات والبدع

والرضا بها ، والمداهنة في الأمر بالمعروف ، وافتراق الكلمة في الحق ، وتعطيل الحدود ، وفشو المعاصي ، ونحو ذلك . وفيما رواه البخاري : عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « » ويل للعرب من شر قد اقترب . . « فقيل له : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : » نعم إذا كثر الخبث « » .

إذن فلا يعتقد مسلم أنه غير مسئول عن الفساد الذي يستشري في المجتمع ، بل عليه أن يُحذر وأن يُنبه . ولذلك نجد أن حكمة الحق قد فرضت الدية على العاقلة ، أي على أهل القاتل ، لأنهم قد يرون هذا القاتل وهو يمارس الفساد ابتداء ، فلم يردعه أحد منهم ، لكنهم لو ضربوا على يده من البداية لما جاءهم الغرم بدفع الدية ، لذلك فعندما تسمع قول الله عز وجل : { فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً } إياك أن تقول : لا شأن لي بهذا الأمر لا ، إن الأمر يخصك وعليك أن تحاول الإصلاح بين الموصي له ، وبين الورثة . وقوله الحق : { فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ } يعني إدخاله في دائرة الذين يبدلون القول والتي تناولناها بالخواطر قبل هذه الآية ، بل لك ثواب على تدخلك؛ فأنت لم تبدل حقا بباطل ، بل تزحزح باطلاً لتؤسس حقاً ، وبذلك تُرَطبُ قلب الوارث على ما نقص منه ، وتقيم ميزان العدل بالنصيحة ، وتُسخي نفسه ليقبل الوصية بعد تعديلها بما يرضي شريعة الله . إن الله يريد إقامة ميزان العدل وأن يتأكد الاستطراق الصفائي بين المؤمنين فلا تورث الوصية شروراً .

ويقول الحق بعد ذلك : { يأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183)

والحق سبحانه يبدأ هذه الآية الكريمة بترقيق الحكم الصادر بالتكليف القادم وهو الصيام فكأنه يقول : « يا من آمنتم بي وأحببتموني لقد كتبت عليكم الصيام » . وعندما يأتي الحكم ممن آمنت به فأنت تثق أنه يخصك بتكليف تأتي منه فائدة لك . واضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى هب أنك تُخاطب ابنك في أمر فيه مشقة ، لكن نتائجه مفيدة ، فأنت لا تقول له : « يا ابني افعل كذا » لكنك تقول له : « يا بُنَيَّ افعل كذا » وكأنك تقول له : « يا صغيري لا تأخذ العمل الذي أكلفك به بما فيه من مشقة بمقاييس عقلك غير الناضج ، ولكن خذ هذا التكليف بمقاييس عقل وتجربة والدك » .

والمؤمنون يأخذون خطاب الحق لهم { يأيها الذين آمَنُواْ } بمقياس المحبة لكل ما يأتي منه سبحانه من تكليف حتى وإن كان فيه مشقة ، والمؤمنون بقبولهم للإيمان إنما يكونون مع الحق في التعاقد الإيماني ، وهو سبحانه لم يكتب الصيام على من لا يؤمن به؛ لأنه لا يدخل في دائرة التعاقد الإيماني وسيلقي سعيرا . والصيام هو لون من الإمساك؛ لأن معنى « صام » هو « أمسك »

والحق يقول : { فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً } [مريم : 26]

وهذا إمساك عن الكلام . إذن فالصوم معناه الإمساك ، لكن الصوم التشريعي يعني الصوم عن شهوتي البطن والفرج من الفجر وحتى الغروب . ومبدأ الصوم لا يختلف من زمن إلى آخر ، فقد كان الصيام الركن التعبدي موجوداً في الديانات السابقة على الإسلام ، لكنه كان إما إمساكاً مطلقاً عن الطعام . وإما إمساكا عن ألوان معينة من الطعام كصيام النصارى ، فالصيام إذن هو منهج لتربية الإنسان في الأديان ، وإن اختلفت الأيام عدداً ، وإن اختلفت كيفية الصوم ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } . ونعرف أن معنى التقوى هو أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية ، وأن نتقي بطش الله ، ونتقي النار وهي من آثار صفات الجلال . وقوله الحق : { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } أي أن نهذب ونشذب سلوكنا فنبتعد عن المعاصي ، والمعاصي في النفس إنما تنشأ من شره ماديتها إلى أمر ما . والصيام كما نعلم يضعف شره المادية وحدتها وتسلطها في الجسد ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم للشباب المراهق وغيره : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وكأن الصوم يشذب شِرَّة المادية في الجسم الشاب . وإن تقليل الطعام يعني تقليل وقود المادة ، فيقل السعار الذي يدفع الإنسان لارتكاب المعاصي . والصيام في رمضان يعطي الإنسان الاستقامة لمدة شهر ، ويلحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر بها بعد رمضان .

والحق لا يطلب منك الاستقامة في رمضان فقط ، إنما هو سبحانه قد اصطفى رمضان كزمن تتدرب فيه على الاستقامة لتشيع من بعد ذلك في كل حياتك؛ لأن اصطفاء الله لزمان أو اصطفاء الله لمكان أو لإنسان ليس لتدليل الزمان ، ولا لتدليل المكان ، ولا لتدليل الإنسان ، وإنما يريد الله من اصطفائه لرسول أن يشيع أثر اصطفاء الرسول في كل الناس . ولذلك نجد تاريخ الرسل مليئا بالمشقة والتعب ، وهذا دليل على أن مشقة الرسالة يتحملها الرسول وتعبها يقع عليه هو . فالله لم يصطفه ليدلله ، وإنما اصطفاه ليجعله أسوة .

وكذلك يصطفي الله من الزمان أياما لا ليدللها على بقية الأزمنة ، ولكن لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يشيع اصطفاء هذا الزمان في كل الأزمنة ، كاصطفائه لأيام رمضان ، والحق سبحانه وتعالى يصطفي الأمكنة ليشيع اصطفاؤها في كل الأمكنة . وعندما نسمع من يقول : « زرت مكة والمدينة وذقت حلاوة الشفافية والإشراق والتنوير ، ونسيت كل شيء » . إن من يقول ذلك يظن أنه يمدح المكان ، وينسى أن المكان يفرح عندما يشيع اصطفاؤه في بقية الأمكنة؛ فأنت إذا ذهبت إلى مكة لتزور البيت الحرام ، وإذا ذهبت إلى المدينة لتزور رسول الله صلى الله عليه وسلم

، فلماذا لا تتذكر في كل الأمكنة أن الله موجود في كل الوجود ، وأن قيامك بأركان الإسلام وسلوك الإسلام هو تقرب من الله ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صحيح إن تعبدك وأنت في جوار بيت الله ، يتميز بالدقة وحسن النية . كأنك وأنت في جوار بيت الله وفي حضرة رسول الله تستحي أن تفعل معصية . وساعة تسمع « الله أكبر » تنهض للصلاة وتخشع ، ولا تؤذي أحداً ، إذن لماذا لا يشيع هذا السلوك منك في كل وقت وفي كل مكان؟ إنك تستطيع أن تستحضر النية التعبدية في أي مكان ، وستجد الصفاء النفسي العالي . إذن فحين يصطفي الله زماناً أو مكاناً أو يصطفي إنساناً إنما يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يشيع اصطفاء الإنسان في كل الناس ، واصطفاء المكان في كل الأمكنة واصطفاء الزمان في كل الأزمنة ، ولذلك أتعجب عندما أجد الناس تستقبل رمضان بالتسبيح وبآيات القرآن وبعد أن ينتهي رمضان ينسون ذلك . وأقول هل جاء رمضان ليحرس لنا الدين ، أم أن رمضان يجيء ليدربنا على أن نعيش بخلق الصفاء في كل الأزمنة؟

وقوله الحق : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِن قَبْلِكُمْ } يدلنا على أن المسلمين ليسوا بدعاً في مسألة الصوم ، بل سبقهم أناس من قبل إلى الصيام وإن اختلفت شكلية الصوم . وساعة يقول الحق : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام } فهذا تقرير للمبدأ ، مبدأ الصوم ، ويُفَصّلُ الحق سبحانه المبدأ من بعد ذلك فيقول : { أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ . . . }

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184)

وكلمة { أَيَّاماً } تدل على الزمن وتأتي مجملة ، وقوله الحق عن تلك الأيام : إنها { مَّعْدُودَاتٍ } يعني أنها أيام قليلة ومعروفة . ومن بعد ذلك يوضح الحق لنا مدة الصيام فيقول : { شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهدى والفرقان . . . }

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)

إذن ، فمدة الصيام هي شهر رمضان ، ولأنه سبحانه العليم بالضرورات التي تطرأ على هذا التكليف فهو يشرع لهذه الضرورات ، وتشريع الله لرخص الضرورة إعلام لنا بأنه لا يصح مطلقاً لأي إنسان أن يخرج عن إطار الضرورة التي شرعها الله ، فبعض من الذين يتفلسفون من

السطحيين يحبون أن يزينوا لأنفسهم الضرورات التي تبيح لهم الخروج عن شرع الله ، ويقول الواحد منهم : { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها } [البقرة : 286]

ونقول : إنك تفهم وتحدد الوُسعَ على قدر عقلك ثم تقيس التكليف عليه ، برغم أن الذي خلقك هو الذي يُكلف ويعلم أنك تَسَعُ التكليف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا بما في وسعك؛ بدليل أن المشرع سبحانه يعطي الرخصة عندما يكون التكليف ليس في الوسع . ولنر رحمة الحق وهو يقول : { وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } ، وكلمة { مَرِيضاً } كلمة عامة ، وأنت فيها حجة على نفسك وبأمر طبيب مسلم حاذق يقول لك : « إن صمت فأنت تتعب » والمرض مشقته مزمنة في بعض الأحيان ، ولذلك تلزم الفدية بإطعام مسكين .

وكذلك يرخص الله لك عندما تكون { على سَفَرٍ } . وكلمة { سَفَرٍ } هذه مأخوذة من المادة التي تفيد الظهور والانكشاف ، ومثل ذلك قولنا : « أسفر الصبح » . وكلمة « سفر » تفيد الانتقال من مكان تقيم فيه إلى مكان جديد ، وكأنك كلما مشيت خطوة تنكشف لك أشياء جديدة ، والمكان الذي تنتقل إليه هو جديد بالنسبة لك ، حتى ولو كنت قد اعتدت أن تسافر إليه؛ لأنه يصير في كل مرة جديداً لما ينشأ عنه من ظروف عدم استقرار في الزمن ، صحيح أن شيئاً من المباني والشوارع لم يتغير ، ولكن الذي يتغير هو الظروف التي تقابلها ، صحيح أن ظروف السفر في زماننا قد اختلفت عن السفر من قديم الزمان .

إن المشقة في الانتقال قديماً كانت عالية ، ولكن لنقارن سفر الأمس مع سفر اليوم من ناحية الإقامة . وستجد أن سفر الآن بإقامة الآن فيه مشقة ، ومن العجب أن الذين يناقشون هذه الرخصة يناقشونها ليمنعوا الرخصة ، ونقول لهم : اعلموا أن تشريع الله للرخص ينقلها إلى حكم شرعي مطلوب؛ وفي ذلك يروي لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظلّل عليه فقال : » ما هذا « فقالوا » : صائم فقال : « ليس من البر الصوم في السفر » « .

وعندما تقرأ النص القرآني تجده يقول : { وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } أي أن مجرد وجود في السفر يقتضي الفطر والقضاء في أيام أخر ، ومعنى ذلك أن الله لا يقبل منك الصيام ، صحيح أنه سبحانه لم يقل لك : » افطر « ولكن مجرد أن تكون مريضاً مرضاً مؤقتا أو مسافراً فعليك الصوم في عدة أيام أخر وأنت لن تشرع لنفسك .

ولنا في رسول الله أسوة حسنة فقد نهى عن صوم يوم عيد الفطر ، لأن عيد الفطر سُمي كذلك ، لأنه يحقق بهجة المشاركة بنهاية الصوم واجتياز الاختبار ، فلا يصح فيه الصوم ، والصوم في أول أيام العيد إثم ، لكن الصوم في ثاني أيام العيد جائز ، لحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام يومين : يوم الفطر ويوم الأضحى » .

وقد يقول قائل : ولكن الصيام في رمضان يختلف عن الصوم في أيام أخر؛ لأن رمضان هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن . وأقول : إن الصوم هو الذي يتشرف بمجيئه في شهر القرآن ، ثم إن الذي أنزل القرآن وفرض الصوم في رمضان هو سبحانه الذي وهب الترخيص بالفطر للمريض أو المسافر ونقله إلى أيام أخر في غير رمضان ، وسبحانه لا يعجز عن أن يهب الأيام الأخر نفسها التجليات الصفائية التي يهبها للعبد الصائم في رمضان .

إن الحق سبحانه حين شرع الصوم في رمضان إنما أراد أن يشيع الزمن الضيق زمن رمضان في الزمن المتسع وهو مدار العام . ونحن نصوم رمضان في الصيف ونصومه في الشتاء وفي الخريف والربيع ، إذن فرمضان يمر على كل العام .

ويقول الحق : { وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ } والطوق هو القدرة فيطيقونه أي يدخل في قدرتهم وفي قولهم ، والفدية هي إطعام مسكين .

ويتساءل الإنسان : كيف يطيق الإنسان الصوم ثم يؤذن له بالفطر مقابل فدية هي إطعام مسكين؟ وأقول : إن هذه الآية دلت على أن فريضة الصوم قد جاءت بتدرج ، كما تدرج الحق في قضية الميراث ، فجعل الأمر بالوصية ، وبعد ذلك نقلها إلى الثابت بالتوريث؛ كذلك أراد الله أن يُخرج أمة محمد صلى الله عليه وسلم من دائرة أنهم لا يصومون إلى أن يصوموا صياماً يُخيّرهُم فيه لأنهم كانوا لا يصومون ثم جاء الأمر بعد ذلك بصيام لا خيار فيه ، فكأن الصوم قد فرض أولا باختيار ، وبعد أن اعتاد المسلمون وألفوا الصوم جاء القول الحق : { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } وفي هذه الآية لم يذكر الحق الفدية أو غيرها . إذن كانت فريضة الصوم القرار الارتقائي ، فصار الصوم فريضة محددة المدة وهي شهر رمضان { شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهدى والفرقان فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } وبذلك انتهت مسألة الفدية بالنسبة لِمَنْ يطيق الصوم ، أما الذي لا يطيق أصلاً بأن يكون مريضاً أو شيخاً ، فإن قال الأطباء المسلمون : إن هذا مرض « لا يُرجى شفاؤه » نقول له : أنت لن تصوم أياما أخر وعليك أن تفدي .

لقد جاء تشريع الصوم تدريجياً ككثير من التشريعات التي تتعلق بنقل المكلفين من إلف العادات ، كالخمر مثلاً والميسر والميراث ، وهذه أمور أراد الله أن يتدرج فيها . ويقول قائل : مادام فرض الصيام كان اختيارياً فلماذا قال الحق بعد الحديث عن الفدية { فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ } ؟ وأقول : عندما كان الصوم اختيارياً كان لابد أيضا من فتح باب الخير والاجتهاد فيه ، فمَنْ صام وأطعم مسكيناً فهذا أمر مقبول منه ، ومن صام وأطعم مسكينين ، فذاك أمر أكثر قبولا . ومَنْ يدخل مع الله من غير حساب يؤتيه الله من غير حساب ، ومن يدخل على الله بحساب ، يعطيه الحق بحساب ، وقول الحق : { وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ } هو خطوة في الطريق لتأكيد فرضية

الصيام ، وقد تأكد ذلك الفرض بقوله الحق : { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } ولم يأت في هذه الآية بقوله : { وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ } لأن المسألة قد انتقلت من الاختيار إلى الفرض .
إذن فالصيام هو منهج لتربية الإنسان ، وكان موجوداً قبل أن يبعث الحق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم دخل الصوم على المسلمين اختيارياً في البداية ، ثم فريضة من بعد ذلك . وقد شرع الله الصوم في الإسلام بداية بأيام معدودة ثم شرح لنا الأيام المعدودة بشهر رمضان .
والذي يطمئن إليه خاطري أن الله بدأ مشروعية الصوم بالأيام المعدودة ، ثلاثة أيام من كل شهر وهو اليوم العاشر والعشرون ، والثلاثون من أيام الشهر ، وكانت تلك هي الأيام المعدودة التي شرع الله فيها أن نصوم؛ وكان الإنسان مخيراً في تلك الأيام المعدودة : إن كان مطيقا للصوم أن يصوم أو أن يفتدي ، أما حين شرع الله الصوم في رمضان فقد أصبح الصوم فريضة تعبدية وركناً من أركان الإسلام ، وبعد ذلك جاءنا الاستثناء للمريض والمسافر .
إذن لنا أن نلحظ أن الصوم في الإسلام كان على مرحلتين : المرحلة الأولى : أن الله سبحانه وتعالى شرع صيام أيام معدودة ، وقد شرحنا أحكامها ، والمرحلة الثانية هي تشريع الصوم في زمن محدود . . شهر رمضان ، والعلماء الذين ذهبوا إلى جواز رفض إفطار المريض وإفطار المسافر لأنهم لم يرغبوا أن يردوا حكمة الله في التشريع ، أقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حين يرخص لابد أن تكون له حكمة أعلى من مستوى تفكيرنا ، وأن الذي يؤكد هذا أن الحق سبحانه وتعالى قال : { وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } .
الحكم هنا هو الصوم عدة أيام أخر ، ولم يقل فمن أفطر فعليه عدة من أيام أخر ، أي أن صوم المريض والمسافر قد انتقل إلى وقت الإقامة بعد السفر ، والشفاء من المرض ، فالذين قالوا من العلماء : هي رخصة ، إن شاء الإنسان فعلها وإن شاء تركها ، لابد أن يقدر في النص القرآني { وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ } ، فأفطر ، { فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } .

ونقول : ما لا يحتاج إلى تأويل في النص أولى في الفهم مما يحتاج إلى تأويل ، وليكن أدبنا في التعبير ليس أدب ذوق ، بل أدب طاعة؛ لأن الطاعة فوق الأدب .
إذن فالذين يقولون هذا لا يلحظون أن الله يريد أن يخفف عنا ، ثم ما الذي يمنعنا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى أراد للمريض وللمسافر رخصة واضحة ، فجعل صيام أي منهما في عدة من الأيام الأخر . فإن صام في رمضان وهو مريض أو على سفر فليس له صيام ، أي أن صيامه لا يعتد به ولا يقبل منه ، وهذا ما أرتاح إليه ، ولكن علينا أن ندخل في اعتبارنا أن المراد من المرض والسفر هنا ، هو ما يخرج مجموع ملكات الإنسان عن سويّتها .
وما معنى كلمة « شهر » التي جاءت في قوله : { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } ؟ . إن

كلمة « شهر » مأخوذة من الإعلام والإظهار ، وما زلنا نستخدمها في الصفقات فنقول مثلا : لقد سجلنا البيع في « الشهر العقاري » أي نحن نعلم الشهر العقاري بوجود صفقة ، حتى لا يأتي بعد ذلك وجود صفقة على صفقة ، فكلمة « شهر » معناها الإعلام والإظهار ، وسُميت الفترة الزمنية « شهراً » لماذا؟ لأن لها علامة تُظهرها ، ونحن نعرف أننا لا نستطيع أن نعرف الشهر عن طريق الشمس؛ فالشمس هي سمة لمعرفة تحديد اليوم ، فاليوم من مشرق الشمس إلى مشرق آخر وله ليل ونهار .

ولكن الشمس ليست فيها علامة مميزة سطحية ظاهرة واضحة تحدد لنا بدء الشهر ، إنما القمر هو الذي يحدد تلك السمة والعلامة بالهلال الذي يأتي في أول الشهر ، ويظهر هكذا كالعرجون القديم ، إذن فالهلال جاء لتمييز الشهر ، والشمس لتمييز النهار ، ونحن نحتاج لهما معا في تحديد الزمن .

إن الحق سبحانه وتعالى يربط الأعمال العبادية بآيات كونية ظاهرة التي هي الهلال ، وبعد ذلك نأخذ من الشمس اليوم فقط؛ لأن الهلال لا يعطيك اليوم ، فكأن ظهور الهلال على شكل خاص بعدما يأتي المحاق وينتهي ، فميلاد الهلال بداية إعلام وإعلان وإظهار أن الشهر قد بدأ ، ولذلك تبدأ العبادات منذ الليلة الأولى في رمضان؛ لأن العلامة الهلال مرتبطة بالليل ، فنحن نستطلع الهلال في المغرب ، فإن رأيناه نقل شهر رمضان بدأ . ولم تختلف هذه المسألة لأن النهار لا يسبق الليل ، إلا في عبادة واحدة وهي الوقوف بعرفة ، فالليل الذي يجئ بعدها هو الملحق بيوم عرفة .

وكلمة { رَمَضَانَ } مأخوذة من مادة (الراء والميم والضاد) ، وكلها تدل على الحرارة وتدل على القيظ « ورمض الإنسان » أي حر جوفه من شدة العطش ، و « الرمضاء » أي الرمل الحار ، وعندما يقال : « رمضت الماشية » أي أن الحر أصاب خفها فلم تعد تقوى أن تضع رجلها على الأرض ، إذن فرمضان مأخوذ من الحر ومن القيظ ، وكأن الناس حينما أرادوا أن يضعوا أسماء للشهور جاءت التسمية لرمضان في وقت كان حاراً ، فسموه رمضان كما أنهم ساعة سموا مثلا « ربيعاً الأول وربيعاً الآخر » أن الزمن متفقاً مع وجود الربيع ، وعندما سموا جمادى الأولى وجمادى الآخرة « كان الماء يجمد في هذه الأيام .

فكأنهم لاحظوا الأوصاف في الشهور ساعة التسمية ، ثم دار الزمن العربي الخاص المحدد بالشهور القمرية في الزمن العام للشمس . فجاء رمضان في صيف ، وجاء في خريف ، لكن ساعة التسمية كان الوقت حاراً .

وهب أن إنسانا جاءه ولد جميل الشكل ، فسماه « جميلاً » . وبعد ذلك مرض والعياذ بالله بمرض الجدري فشوه وجهه ، فيكون الاسم قد لوحظ ساعة التسمية ، وإن طرأ عليه فيما بعد

ذلك ما يناقض هذه التسمية ، وكأن الحق سبحانه وتعالى حينما هيأ للعقول البشرية الواضعة للألفاظ أن يضعوا لهذا الشهر ذلك الاسم ، دل على المشقة التي تعتري الصائم في شهر رمضان ، وبعد ذلك يعطي له سبحانه منزلة تؤكد لماذا سُمي ، إنه الشهر الذي أُنزل فيه القرآن ، والقرآن إنما جاء منهج هداية للقيم ، والصوم امتناع عن الاقتيات ، فمنزلة الشهر الكريم أنه يربي البدن ويربي النفس ، فناسب أن يوجد التشريع في تربية البدن وتربية القيم مع الزمن الذي جاء فيه القرآن بالقيم ، { شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن } . وإذا سمعت { أُنْزِلَ فِيهِ القرآن } فافهم أن هناك كلمات « أنزل » و « نَزّل » و « نزل » ، فإذا سمعت كلمة « أنزل » تجدها منسوبة إلى الله دائما : { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر } [القدر : 1]

أما في كلمة « نَزَلَ » فهو سبحانه يقول : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193]

وقال الحق : { تَنَزَّلُ الملائكة } [القدر : 4]

إذن فكلمة « أنزل » مقصورة على الله ، إنما كلمة « نَزّلَ » تأتي من الملائكة ، و « نَزَلَ » تأتي من الروح الأمين الذي هو « جبريل » ، فكأن كلمة « أنزل » بهمزة التعدية ، عدت القرآن من وجوده مسطوراً في اللوح المحفوظ إلى أن يبرز إلى الوجود الإنساني ليباشر مهمته .

وكلمة « نَزَلَ » و « نَزَّلَ » نفهمهما أن الحق أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا مناسباً للأحداث ومناسباً للظروف ، فكان الإنزال في رمضان جاء مرة واحدة ، والناس الذين يهاجموننا يقولون كيف تقولون : إن رمضان أنزل فيه القرآن مع أنكم تشيعون القرآن في كل زمن ، فينزل هنا وينزل هناك وقد نزل في مدة الرسالة المحمدية؟

نقول لهم : نحن لم نقل إنه « نزل » ولكننا قلنا « أنزل » ، فأنزل : تعدي من العِلم الأعلى إلى أن يباشر مهمته في الوجود .

وحين يباشر مهمته في الوجود ينزل منه « النَّجْم » يعني القسط القرآني موافقا للحدث الأرضي ليجيء الحكم وقت حاجتك ، فيستقر في الأرض ، إنما لو جاءنا القرآن مكتملاً مرة واحدة فقد يجوز أن يكون عندنا الحكم ولا نعرفه ، لكن حينما لا يجيء الحكم إلا ساعة نحتاجه ، فهو يستقر في نفوسنا .

وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى أنت مثلاً تريد أن تُجهز صيدلية للطوارئ في المنزل ، وأنت تضع فيها كل ما يخص الطوارئ التي تتخيلها ، ومن الجائز أن يكون عندك الدواء لكنك لست في حاجة له ، أما ساعة تحتاج الدواء وتذهب لتصرف تذكرة الطبيب من الصيدلية ، عندئذ لا يحدث لبس ولا اختلاط ، فكذلك حين يريد الله حكماً من الأحكام ليعالج قضية من قضايا الوجود فهو لا ينتظر حتى ينزل فيه حكم من الملأ الأعلى من اللوح المحفوظ ، إنما الحكم موجود في السماء الدنيا ، فيقول للملائكة : تنزلوا به ، وجبريل ينزل في أي وقت شاء له الحق أن ينزل

من أوقات البعثة المحمدية ، أو الوقت الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يوجد فيه الحكم الذي يغطي قضية من القضايا .

إذن فحينما يوجد من يريد أن يشككنا نقول له : لا .

نحن نملك لغة عربية دقيقة ، وعندنا فرق بين « أنزل » و « نَزَّل » و « نزل » ولذلك فكلمة « نزل » تأتي للكتاب ، وتأتي للنازل بالكتاب يقول تعالى : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193]

ويقول سبحانه : { وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ } [الإسراء : 105]

وكان بعض من المشركين قد تساءلوا؛ لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة؟ . وانظر إلى الدقة في الهيئة التي أراد الله بها نزول القرآن فقد قال الحق : { وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } [الفرقان : 32]

وعندما نتأمل قول الحق : { كَذَلِكَ } فهي تعني أنه سبحانه أنزل القرآن على الهيئة التي نزل بها لزوماً لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ولو نزل مرة واحدة لكان تكليفاً واحداً ، وأحداث الدعوة شتى وكل لحظة تحتاج إلى تثبيت فحين يأتي الحدث ينزل نَجْم قرآني فيعطي به الحق تثبيتا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأضرب مثلا بسيطا ولله المثل الأعلى والمنزه عن كل تشبيه أن ابناً لك يريد حُلة جديدة أحضرها له مرة واحدة ، فتصادفه فرحة واحدة ، أم تحضر له في يوم رابطة العنق واليوم الذي يليه تحضر له القميص الجديد ، ثم تحضر له « البدلة »؟ ، إذن فكل شيء يأتي له وقع وفرحة .

والحق ينزل القرآن منجماً لماذا؟ { لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } ومعنى { لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ } أي أنك ستتعرض لمنغصات شتى ، وهذه المنغصات الشتى كل منها يحتاج إلى تَرْبِيتٍ عليك وتهدئة لك ، فيأتي القسط القرآني ليفعل ذلك وينير أمامك الطريق . { كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } أي لم نأت به مرة واحدة بل جعلناه مرتباً على حسب ما يقتضيه من أحداث . حتى يتم العمل بكل قسط ، ويهضمه المؤمن ثم نأتي بقسط آخر . ولنلحظ دقة الحق في قوله عن القرآن : { وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } [الفرقان : 33]

إن الكفار لهم اعتراضات ، ويحتاجون إلى أمثلة ، فلو أنه نزل جملة واحدة لأهدرَتْ هذه القضية ، وكذلك حين يسأل المؤمنون يقول القرآن : يسئلونك عن كذا وعن كذا ، ولو شاء الله أن يُنزل القرآن دفعة واحدة ، فكيف كان يغطي هذه المسألة؟ فما داموا سوف يسألون فلينتظر حتى يسألوا ثم تأتي الإجابة بعد ذلك .

إذن فهذا هو معنى « أنزل » أي أنه أنزل من اللوح المحفوظ ، ليباشر مهمته في الوجود ، وبعد ذلك نزل به جبريل ، أو تتنزل به الملائكة على حسب الأحداث التي جاء القرآن ليغطيها .

ويقول الحق : { أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ } . ونعرف أن كلمة { هُدًى } معناها : الشيء الموصل للغاية بأقصر طريق ، فحين تضع إشارات في الطريق الملتبسة ، فمعنى ذلك أننا نريد للسالك أن يصل إلى الطريق بأيسر جهد ، و « هدى » تدل على علامات لنهتدي بها يضعها الخالق سبحانه ، لأنه لو تركها للخلق ليضعوها لاختلفت الأهواء ، وعلى فرض أننا سنسلم بأنهم لا هوى لهم ويلتمسون الحق ، وعقولهم ناضجة ، سنسلم بكل ذلك ، ونتركهم كي يضعوا المعالم ، ونتساءل : وماذا عن الذي يضع تلك العلامات ، وبماذا يهتدي؟ .

إذن فلابد أن يوجد له هدى من قبل أن يكون له عقل يفكر به ، كما أن الذي يضع هذا الهدى لابد ألا ينتفع به ، وعلى ذلك فالله سبحانه أغنى الأغنياء عن الخلق ولن ينتفع بأي شيء من العباد ، أما البشر فلو وضعوا « هدى » فالواضع سينتفع به ، ورأينا ذلك رأى العين؛ فالذي يريد أن يأخذ مال الأغنياء ويغتني يخترع المذهب الشيوعي ، والذي يريد أن يمتص عرق الغير يضع مذهب الرأسمالية ، ومذاهب نابعة من الهوى ، ولا يمكن أن يُبرأ أحد من فلاسفة المذاهب نفسه من الهوى : الرأسمالي يقنن فيميل لهوى نفسه ، والشيوعي يميل لنفسه ، ونحن نريد مَن يُشرع لنا دون أن ينتفع بما شرع ، ولا يوجد من تتطابق معه هذه المواصفات إلا الحق سبحانه وتعالى فهو الذي يشرع فقط ، وهو الذي يشرع لفائدة الخلق فقط .

والذي يدلك على ذلك أنك تجد تشريعات البشر تأتي لتنقض تشريعات أخرى ، لأن البشر على فرض أنهم عالمون فقد يغيب عنهم أشياء كثيرة ، برغم أن الذي يضع التشريع يحاول أن يضع أمامه كل التصورات المستقبلية ، ولذلك نجد التعديلات تجرى دائما على التشريعات البشرية؛ لأن المشرع غاب عنه وقت التشريع حكم لم يكن في باله ، وأحداث الحياة جاءت فلفتته إليه ، فيقول : التشريع فيه نقص ولم يعد ملائماً ، ونعدله .

إذن فنحن نريد في من يضع الهدى والمنهج الذي يسير عليه الناس بجانب عدم الانتفاع بالمنهج لابد أيضا أن يكون عالما بكل الجزئيات التي قد يأتي بها المستقبل ، وهذا لا يتأتى إلا في إله عليم حكيم ، ولذلك قال تعالى : { وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } [الأنعام : 153] ستتبعون السبل ، هذا له هوى ، وهذا له هوى ، فتوجد القوانين الوضعية التي تبددنا كلنا في الأرض ، لأننا نتبع أهواءنا التي تتغير ولا نتبع منهج من ليس له نفع في هذه المسألة ، ولذلك أقول : افطنوا جيداً إلى أن الهدى الحق الذي لا أعترض عليه هو هدى الله ، { هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهدى والفرقان } . والقرآن في جملته « هدى » والفرقان هو أن يضع فارقاً في أمور يلتبس فيها الحق بالباطل ، فيأتي التنزيل الحكيم ليفرق بين الحق والباطل .

ويقول الحق : { فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } ، وحين تجد تعقيباً على قضية فافهم أن من شهد منكم الشهر فليصمه ولابد أن تقدر من

شهد الشهر فليصمه إن كان غير مريض ، وإن كان غير مسافر ، لابد من هذا مادام الحق قد جاء بالحكم .

و « شهد » هذه تنقسم قسمين : { فَمَن شَهِدَ } أي من حضر الشهر وأدركه وهو غير مريض وغير مسافر أي مقيم ، { وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر } . ونريد أن نفهم النص بعقلية من يستقبل الكلام من إله حكيم ، إن قول الله : { يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر } .

تعقيب على ماذا؟ تعقيب على أنه أعفى المريض وأعفى المسافر من الصيام ، فكأن الله يريد بكم اليسر ، فكأنك لو خالفت ذلك لأردت الله معسراً لا ميسراً والله لا يمكن أن يكون كذلك ، بل أنت الذي تكون معسراً على نفسك ، فإن كان الصوم له قداسة عندك ، ولا تريد أن تكون أسوة فلا تفطر أمام الناس ، والتزم بقول الله : { فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } لأنك لو جنحت إلى ذلك لجعلت الحكم في نطاق التعسير ، فنقول لك : لا ، إن الله يريد بك اليسر ، فهل أنت مع العبادة أم أنت مع المعبود؟ أنت مع المعبود بطبيعة الإيمان .

ومثال آخر نجده في حياتنا : هناك من يأتي ليؤذن ثم بعد الأذان يجهر بقول : « الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله » يقول : إن هذا حب لرسول الله ، لكن هل أنت تحب الرسول إلا بما شرع؟ إنه قد قال :

« إذا سمعت النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن ثم صلوا علي » فقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن ولمن يسمع أن يصلي عليه في السر ، لا أن يأتي بصوت الأذان الأصيل وبلهجة الأذان الأصيلة ونصلي على النبي ، لأن الناس قد يختلط عليها ، وقد يفهم بعضهم أن ذلك من أصول الأذان . إنني أقول لمن يفعل ذلك : يا أخي ، ألا توجد صلاة مقبولة على النبي إلا المجهور بها؟ لا إن لك أن تصلي على النبي ، لكن في سرك . وكذلك إن جاء من يفطر في رمضان لأنه مريض أو على سفر ، نقول له : استتر ، حتى لا تكون أسوة سيئة؛ لأن الناس لا تعرف أنك مريض أو على سفر ، استتر كي لا يقول الناس : إن مسلماً أفطر . ويقول الحق : { وَلِتُكْمِلُواْ العدة } فمعناها كي لا تفوتكم أيام من الصيام .

انظروا إلى دقة الأداء القرآني في قوله : { وَلِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } . إن العبادة التي نفهم أن فيها مشقة هي الصيام وبعد ذلك تكبرون الله؛ لأن الحق سبحانه عالم أن عبده حين ينصاع لحكم أراده الله وفيه مشقه عليه مثل الصوم ويتحمله ، وعندما يشعر بأنه قد انتهى منه إنه سبحانه عالم بأن العبد سيجد في نفسه إشراقاً يستحق أن يشكر الله الذي كلفه بالصوم ووفقه إلى أدائه؛ لأن معنى { وَلِتُكَبِّرُواْ الله } يعني أن تقول : « الله أكبر » وأن تشكره على العبادة التي كنت تعتقد أنها تضنيك ، لكنك وجدت فيها تجليات وإشراقات ، فتقول : الله

أكبر من كل ذلك ، الله أكبر؛ لأنه حين يمنعني يعطيني ، وسبحانه يعطي حتى في المنع؛ فأنت تأخذ مقومات حياة ويعطيك في رمضان ما هو أكثر من مقومات الحياة والإشراقات التي تتجلى لك ، وتذوق حلاوة التكليف وإن كان قد فوت عليك الاستمتاع بنعمة فإنه أعطاك نعمة أكثر منها .

وبعد ذلك فالنسق القرآني ليس نسقاً من صنع البشر ، فنحن نجد أن نسق البشر يقسم الكتاب أبواباً وفصولاً ومواد كلها مع بعضها ، ويُفصل كل باب بفصوله ومواده ، وبعد ذلك ينتقل لباب آخر ، لكن الله لا يريد الدين أبواباً ، وإنما يريد الدين وحدة متكاتفة في بناء ذلك الإنسان ، فيأتي بعد قوله : { وَلِتُكَبِّرُواْ الله } ب { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ومعنى ذلك أنكم سترون ما يجعلكم تنطقون ب « الله أكبر »؛ لأن الله أسدى إليكم جميلاً ، وساعة يوجد الصفاء بين « العابد » وهو الإنسان و « المعبود » وهو الرب ، ويثق العابد بأن المعبود لم يكلفه إلا بما يعود عليه بالخير ، هنا يحسن العبد ظنه بربه ، فيلجأ إليه في كل شيء ، ويسأله عن كل شيء ، ولذلك جاء هنا قول الحق : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ . . . }

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)

ومادمت قد ذقت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية في الصيام فأنت ستتجه إلى شكره سبحانه ، وهذا يناسب أن يرد عليك الحق فيقول : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } ونلحظ أن « إذا » جاءت ، ولم تأت « إن » فالحق يؤكد لك أنك بعدما ترى هذه الحلاوة ستشكر الله؛ لأنه سبحانه يقول في الحديث القدسي : « ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » .

فما دام سبحانه سيجب الدعوة ، وأنت قد تكون من العامة لا إمامة لك ، وكذلك لست مظلوماً ، إذن تبقى دعوة الصائم . وعندما تقرأ في كتاب الله كلمة « سأل » ستجد أن مادة السؤال بالنسبة للقرآن وردت وفي جوابها « قل » . { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ } [البقرة : 219]

وقوله : { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو } [البقرة : 219]

وقوله : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ } [البقرة : 215]

وكل { يَسْأَلُونَكَ } يأتي في جوابها { قُلْ } إلا آية واحدة جاءت فيها « فقل » بالفاء ، وهي قول الحق : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً } [طه : 105]

انظر إلى الدقة الأدائية : الأولى « قل » ، وهذه « فقل » ، فكأن { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر

والميسر } يؤكد أن السؤال قد وقع بالفعل ، ولكن قوله : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال } ، فالسؤال هذا ستتعرض له ، فكأن الله أجاب عن أسئلة وقعت بالفعل فقال : « قل » ، والسؤال الذي سيأتي من بعد ذلك جاء وجاءت إجابته ب « فقل » أي أعطاه جواباً مسبقاً ، إذن ففيه فرق بين جواب عن سؤال حدث ، وبين جواب عن سؤال سوف يحدث ، ليدلك على أن أحداً لن يفاجئ الله بسؤال ، { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً } .

لكن نحن الآن أمام آية جاء فيها سؤال وكانت الإجابة مباشرة : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي } .

فلم يقل : فقل : إني قريب؛ لأن قوله : « قل » هو عملية تطيل القرب ، ويريد الله أن يجعل القرب في الجواب عن السؤال بدون وساطة { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } . لقد جعل الله الجواب منه لعباده مباشرة ، وإن كان الذي سيبلغ الجواب هو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذه لها قصة : لقد سألوا رسول الله : أقريب ربك فنناجيه أم بعيد فنناديه؟

لأن عادة البعيد أن يُنادى ، أما القريب فيناجى ، ولكي يبين لهم القرب ، حذف كلمة « قل » ، فجاء قول الحق : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } وما فائدة ذلك القرب؟ إن الحق يقول : { أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ } ولكن ما الشروط اللازمة لذلك؟

لقد قال الحق : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي } ونعرف أن فيه فرقا بين « عبيد » و « عباد » ، صحيح أن مفرد كل منهما « عبد » ، لكن هناك « عبيد » و « عباد » ، وكل من في الأرض عبيد الله ، ولكن ليس كل من في الأرض عباداً لله ، لماذا؟

لأن العبيد هم الذين يُقهرون في الوجود كغيرهم بأشياء ، وهناك من يختارون التمرد على الحق ، لقد أخذوا اختيارهم تمرداً ، لكن العباد هم الذين اختاروا الانقياد لله في كل الأمور .

إنهم منقادون مع الجميع في أن واحدا لا يتحكم متى يولد ، ولا متى يموت ، ولا كيف يوجد ، لكن العباد يمتازون بأن الأمر الذي جعل الله لهم فيه اختياراً قالوا : صحيح يا رب أنت جعلت لنا الاختيار ، وقد اخترنا منهجك ، ولم نترك هوانا ليحكم فينا ، أنت قلت سبحانك : « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ونحن قبلنا التكليف منك يا رب .

ولا يقول لك ربك : « افعل » إلا إذا كنت صالحاً للفعل ولعدم الفعل . ولا يقول لك : « لا تفعل » إلا إذا كنت صالحاً لهذه ولهذه . إذن فكلمة « افعل » و « لا تفعل » تدخل في الأمور الاختيارية ، والحق قد قال : « افعل » و « لا تفعل » ثم ترك أشياء لا يقول لك فيها « افعل » و « لا تفعل » ، فتكون حراً في أن تفعلها أو لا تفعلها ، اسمها « منطقة الاختيار المباح » ، فهناك اختيار قُيِّدَ بالتكليف بافعل ولا تفعل ، واختيار بقى لك أن تفعله أو لا تفعله ولا يترتب عليه ضرر؛ فالذي أخذ الاختيار وقال : يا رب أنت وهبتني الاختيار ، ولكنني تركت لك يا واهب الاختيار أن توجه هذا الاختيار كما تحب ، أنا سأتنازل عن اختياري ، وما تقول لي : «

افعل » سأفعله ، والذي تقول لي : « لا تفعله » لن أفعله .
إذن فالعباد هم الذين أخذوا منطقة الاختيار ، وسلموها لمن خلق فيهم الاختيار ، وقالوا لله : وإن كنت مختاراً إلا أنني أمنتك على نفسي . إن العباد هم الذين ردوا أمر الاختيار إلى من وهب الاختيار ويصفهم الحق بقوله : { وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً * وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً } [الفرقان : 63-64]
هؤلاء هم عباد الرحمن ، ولذلك يقول الحق للشيطان في شأنهم : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } [الحجر : 42]
إذن فللشيطان سلطان على مطلق عبيد؛ لأنه يدخل عليهم من باب الاختيار ولم تأت كلمة { عِبَادِي } لغير هؤلاء إلا حين تقوم الساعة ، ويحاسب الحق الذين أضلوا العباد فيقول : { أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي } [الفرقان : 17]
ساعة تقوم الساعة لا يوجد الاختيار ويصير الكل عباداً؛ حتى الكفرة لم يعد لهم اختيار .

وحين يقول الحق : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ } فالعباد الذين التزموا لله بالمنهج الإيماني لن يسألوا الله إلا بشيء لا يتنافى مع الإيمان وتكاليفه .
والحق يقول : { فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي } ؛ لأن الدعاء يطلب جواباً ، ومادمت تطلب إجابة الدعاء فتأدب مع ربك؛ فهو سبحانه قد دعاك إلى منهجه فاستجب له إن كنت تحب أن يستجيب الله لك { فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي } ، وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى في كلمة { الداع } ولا يتركها مطلقة ، فيقول : { إِذَا دَعَانِ } فكأن كلمة « دعا » تأتي ويدعو بها الإنسان ، وربما اتجه بالدعوة إلى غير القادر على الإجابة ، ومثال ذلك قول الحق : { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } [الأعراف : 194]
وقوله الحق : { إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ . . } [فاطر : 14]
فكأن الداعي قد يأخذ صفة يدعو بها غير مؤهل للإجابة ، والحق هنا قال : { أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ } أما إذا ذهب فدعا غير قادر على الوفاء فالله ليس مسئولا عن إجابة دعوته .
إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن الإنسان يدعو بالخير لنفسه ، وأنت لا تستطيع أن تحدد هذا الخير؛ لأنك قد تنظر إلى شيء على أنه الخير وهو شر ، ومادمت تدعو فأنت تظن أن ذلك هو الخير ، إذن فملحظية الأصل في الدعاء هي أنك تحب الخير ، ولكنك قد تخطيء الطريق إلى فهم الخير أو الوسيلة إلى الخير ، أنت تحب الخير لا جدال ، لذلك تكون إجابة ربك إلى دعائك هي أن يمنع إجابة دعوتك إن كانت لا تصادف الخير بالنسبة لك ، ولذلك يجب ألا تفهم أنك حين لا تجاب دعوتك كما رجوت وطلبت أن الله لم يستجب لك فتقول : لماذا لم يستجب الله لي؟ . لا لقد استجاب لك ، ولكنه نحَّى عنك حمق الدعوة أو ما تجهل بأنه شر لك

. فالذي تدعوه هو حكيم؛ فيقول : « أنا سأعطيك الخير ، والخير الذي أعلمه أنا فوق الخير الذي تعلمه أنت ، ولذلك فمن الخير لك ألا تجاب إلى هذه الدعوة » .

وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى : قد يطلب منك ابنك الصغير أن تشتري له مسدساً ، وهو يظن أن مسألة المسدس خير ، لكنك تؤخر طلبه وتقول له : فيما بعد سأشتري لك المسدس إن شاء الله ، وتماطل ولا تأتيه بالمسدس ، فهل عدم مجيئك بالمسدس له على وفق ما رأى هو منع الخير عنه؟

إن منعك للمسدس عنه فائدة وصيانة وخير للابن .

إذن ، فالخير يكون دائماً على مقدار الحكمة في تناول الأمور ، وأنت تمنع المسدس عن ابنك ، لأنك قدرت أنه طفل ويلهو مع رفاقه وقد يتعرض لأشياء تخرجه عن طوره وقد يتسبب في أن يؤذيه أحد ، وقد يؤذي هو أحداً بمثل هذا المسدس .

وكذلك يكون حظك من الدعاء لا يُستجاب لأن ذلك قد يرهقك أنت . . والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً } [الإسراء : 11]

ولذلك يقول سبحانه : { سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء : 37]

والعلماء يقولون : إن الدعاء إن قصدت به الذلة والعبودية يكون جميلاً ، أما الإجابة فهي إرادة الله ، وأنت إن قدرت حظك من الدعاء في الإجابة عليه فأنت لا تُقدر الأمر . إن حظك من الدعاء هو العبادة والذلة لله؛ لأنك لا تدعو إلا إذا اعتقدت أن أسبابك كبشر لا تقدر على هذه ، ولذلك سألت من يقدر عليها ، وسألت من يملك ، ولذلك يقول الله في الحديث القدسي : « من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » .

ولنتعلم ما علمه رسول الله لعائشة أم المؤمنين . لقد سألت رسول الله إذا صادفت ليلة القدر فقالت : إن أدركتني هذه الليلة بماذا أدعو؟

انظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد علم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع فقال لها : « قولي : اللهم إنك تحب العفو فاعف عني » .

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولا يوجد خير أحسن من العفو ، فلا أقول أعطني ، أعطني؛ لأن هذا قد ينطبق عليه قول الحق : { وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً } [الإسراء : 11]

فمَنْ يقول : لقد دعوت ربي فلم يستجب لي ، نقول له : لا تكن قليل الفطنة فمن الخير لك أنك لا تُجاب إلى ما طلبت فالله يعطيك الخير في الوقت الذي يريده .

وبعد ذلك يترك الحق لبعض قضايا الوجود في المجتمع أن تجيبك إلى شيء ثم يتبين لك منه الشر ، لتعلم أن قبض إجابته عنك كان هو عين الخير ، ولذلك فإن الدعاء له شروط ، فالرسول صلى

الله عليه وسلم يدعونا إلى الطيب من الرزق .
فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة قوله : « ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء : يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغُذِي بالحرام فأني يستجاب له » .
إن الرسول يكشف أمامنا كيف يفسد جهاز الإنسان الذي يدعو ، لذلك فعدم إجابة الدعوة إما لأن جهاز الدعوة جهاز فاسد ، وإما لأنك دعوت بشيء تظن أن فيه الخير لك لكن الله يعلم أنه ليس كذلك ، ولهذا يأخذ بيدك إلى مجال حكمته ، ويمنع عنك الأمر الذي يحمل لك الشر .
وشيء آخر ، قد يحجب عنك الإجابة ، لأنه إن أعطاك ما تحب فقد أعطاك في خير الدنيا الفانية ، وهو يحبك فيُبقي لك الإجابة إلى خير الباقية ، وهذه ارتقاءات لا ينالها إلا الخاصة ، وهناك ارتقاءات أخرى تتمثل في أنه ما دام الدعاء فيه ذلة وخضوع فقد يطبق الله عليك ما جاء في الحديث القدسي :

« ينزل الله تعالى في السماء الدنيا فيقول : مَنْ يدعوني فأستجيب له أو يسألني فأعطيه؟ ثم يقول : مَنْ يقرض غير عديم ولا ظلوم » .
ولأن الإنسان مرتبط بمسائل يحبها ، فما دامت لم تأت فهو يقول دائماً يا رب . وهذا الدعاء يحب الله أن يسمعه من مثل هذا العبد فيقول : « إن من عبادي من أحب دعاءهم فأنا أبتليهم ليقولوا : يا رب » . إن الإنسان المؤمن لا يجعل حظه من الدعاء أن يجاب ، إنما حظه من الدعاء ما قاله الحق : { قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ } [الفرقان : 77]
إن معنى الربوبية والمربوبية أن تقول دائما : « يا رب » . واضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى الأب قد يعطي ابنه مصروف اليد كل شهر ، والابن يأخذ مصروف اليد الشهري ويغيب طوال الشهر ولا يحرص على رؤية والده . لكن الأب حين يعطي مصروف اليد كل يوم ، فالابن ينتظر والده ، وعندما يتأخر الوالد قليلاً فإن الابن يقف لينتظر والده على الباب؛ لقد ربط الأب ابنه بالحاجة ليأنس برؤياه .
والحق سبحانه يضع شرطا للاستجابة للدعاء ، وهو أن يستجيب العبد لله سبحانه وتعالى فيما دعاه إليه . عندئذ سيكون العباد أهلاً للدعاء ، ولذلك قال الحق في الحديث القدسي : « مَنْ شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » .
ومثال ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ، قال له جبريل : ألك حاجة؟ . لم ينف أن له حاجة ، فلا يوجد استكبار على البلوى ، ولكنه قال لجبريل : أما إليك فلا ، صحيح أن له حاجة إنما ليست لجبريل ، لأنه يعلم جيداً أن نجاته من النار المطبوعة على أن تحرق وقد ألقي فيها ، هي عملية ليست لخلق أن يتحكم فيها ولكنها قدرة لا يملكها إلا من خلق النار .
فقال لجبريل : أما إليك فلا ، وعلمه بحالي يغني عن سؤالي . لذلك جاء الأمر من الحق : { قُلْنَا

يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69]
ولنتعلم من الإمام علي كرم الله وجهه حين دخل عليه إنسان يعوده وهو مريض فوجده يتأوه ، فقال له : أتتأوه وأنت أبو الحسن . قال : أنا لا أشجع على الله .
إذن فقوله : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي } تعني ضرورة الاستجابة للمنهج ، { وَلْيُؤْمِنُواْ بِي } أي أن يؤمنوا به سبحانه إلها حكيما . وليس كل من يسأل يستجاب له بسؤاله نفسه؛ لأن الألوهية تقتضي الحكمة التي تعطي كل صاحب دعوة خيراً يناسب الداعي لا بمقاييسه هو ولكن بمقاييس من يجيب الدعوة .
ويذيل الحق الآية بقول : { لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } فما معنى { يَرْشُدُونَ } ؟ إنه يعني الوصول إلى طريق الخير وإلي طريق الصواب . وهذه الآية جاءت بعد آية { شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ } كي تبين لنا أن الصفائية في الصيام تجعل الصائم أهلاً للدعاء ، وقد لا يكون حظك من هذا الدعاء الإجابة ، وإنما يكون حظك فيه العبادة ، ولكي يبين لنا الحق بعض التكليفات الإلهية للبشر فهو يأتي بهذه الآية التي يبين بها ما يحل لنا في رمضان .
يقول الحق : { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرفث إلى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ . . . }

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)

بعد أن أورد لنا الحق آداب الدعاء ومزجها وأدخلها في الصوم ، يشرح لنا سبحانه آداب التعامل بين الزوجين في أثناء الصيام ، ويأتي هذا التداخل والامتزاج بين الموضوعات المختلفة في القرآن لنفهم منه أن الدين وحدة متكاتفة تُخاطب كل الملكات الإنسانية ، ولا يريد سبحانه أن تظهر أو تطغى ملكة على ملكة أبدا .
يقول الحق : { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرفث إلى نِسَآئِكُمْ } وساعة تسمع { أُحِلَّ لَكُمْ } فكأن ما يأتي بالتحليل كان محرماً من قبل . والذي أحله الله في هذا القول كان المحرم عينه في الصيام ، لأن الصيام إمساك بالنهار عن شهوة البطن وشهوة الفرج ، فكأنه قبل أن تنزل هذه الآية كان الرفث إلى النساء في ليل الصيام حراماً ، فقد كان الصيام في بدايته إمساكاً عن الطعام من قبل الفجر إلى لحظة الغروب ، ولا اقتراب بين الزوجين في الليل أو النهار . فكان الرفث في ليلة الصيام محرماً . وكان يحرم عليهم الطعام والشراب بعد صلاة العشاء وبعد النوم حتى يفطروا .

وجاء رجل وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهبت فلم أجد أهلي قد أعدوا لي طعاما ، فنمت ، فاستيقظت يا رسول الله فعلمت أني لا أقدر أن آكل ولذلك فأنا أعاني من التعب ، فأحل الله مسألتين : المسألة الأولى هي : الرفث إلى النساء في الليل ، والمسألة الثانية قوله الحق : { وَكُلُواْ واشربوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيط الأبيض مِنَ الخيط الأسود مِنَ الفجر } أي كلوا واشربوا إلى الفجر حتى ولو حصل منكم نوم ، وهذه رخصة جديدة لكل المسلمين مثلها مثل الرخصة الأولى التي جاءت للمسافر أو المريض ، كانت الرخصة الأولى بخصوص مشقة الصوم على المسافر أو المريض ، أما الرخصة الجديدة فهي عامة لكل مسلم وهي تعميق لمفهوم الحكم . وقد ترك الحق هذا الترخيص مؤجلا بعض الشيء لكي يدرك كل مسلم مدى التخفيف ، لأنه قد سبق له أن تعرض إلى زلة المخالفة ، ورفعها الله عنه ، وانظر للآية القرآنية وهي تقول : { هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ } . كلمة { تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ } هذه تعلمنا أن الإنسان لم يقو على الصوم كل الوقت عن شهوة الفرج ، فعندما تركك تختان نفسك ، ثم أنزل لك الترخيص ، هنا تشعر بفضل الله عليك .

إذن فبعض الرخص التي يرخص الله لعباده في التكاليف : رخصة تأتي مع التشريع ، ورخصة تخفيفية تأتي بعد أن يجيء التشريع ، لينبه الحق أنه لو لم يفعل ذلك لتعرضتم للخيانة والحرج { عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ } وانظر الشجاعة في أن عمر رضي الله عنه ، يذهب إلى النبي ويقول له : أنا يا رسول الله ذهبت كما يذهب الشاب ، والذي جاع أيضا يقول للرسول عليه الصلاة والسلام : إنه جاع ، وجاء التشريع ليناسب كل المواقف ، فنمسك نهاراً عن شهوتي البطن والفرج ، وليلاً أحل الله لنا شهوتي البطن والفرج ، وهذا التخفيف إنما جاء بعد وقوع الاختيان ليدلنا على رحمة الله في أنه قدر ظرف الإنسان ، { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرفث إلى نِسَآئِكُمْ } ، و { الرفث } هو الاستمتاع بالمرأة ، سواء كان مقدمات أو جماعاً .

. { هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ } .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا عملية التحام الرجل والمرأة بكلمة الله ، و « اللباس » هو الذي يوضع على الجسم للستر ، فكأن المرأة لباس للرجل والرجل لباس للمرأة واللباس أول مدلولاته ستر العورة . فكأن الرجل لباس للمرأة أي ستر عورتها ، والمرأة تستر عورته ، فكأنها عملية تبادلية ، فهذا يحدث في الواقع فهما يلتفان في ثوب واحد ، ولذلك يقول : { بَاشِرُوهُنَّ } أي هات البشرة على البشرة .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن المرأة لباس ساتر للرجل ، والرجل لباس ساتر للمرأة ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يظل هذا اللباس ستراً بحيث لا يفضح شيئاً من الزوجين عند الآخرين . ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام يحذرنا أن يحدث بين الرجل وأهله شيء بالليل

وبعد ذلك تقول به المرأة نهاراً ، أو يقول به الرجل ، فهذا الشيء محكوم بقضية الستر المتبادل .
{ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ } . ومادام هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، فيكون من رحمة التشريع بالإنسان وقد ضَمَّ الرجل والمرأة لباس واحد وبعد ذلك نطلب منهما أن يمتنعا عن التواصل .
إذن فقول : { تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ } كان مسألة حتمية طبيعية ، ولذلك قال الحق بعدها : { فَتَابَ عَلَيْكُمْ } ومعنى « تاب عليكم » هو إخبار من الله بأنه تاب ، وحين يخبر الله بأنه تاب ، أي شرع لهم التوبة ، والتوبة كما نعرف تأتي على ثلاث مراحل : يشرع الله التوبة أولا ، ثم تتوب أنت ثانيا ، ثم يقبل الله التوبة ثالثاً ، { وَعَفَا عَنْكُمْ } لأنه مادام قد جعل هذه العملية لحكمة إبراز سمو التشريع في التخفيف ، فيكون القصد أن تقع هنا وأن يكون العفو منه سبحانه .
ويقول الحق : { فالآن بَاشِرُوهُنَّ وابتغوا مَا كَتَبَ الله لَكُمْ } فلم يشأ أن يترك المباشرة على عنانها فقال : أنت في المباشرة لابد أن تتذكر ما كتبه الله ، وما كتبه الله هو الإعفاف بهذا اللقاء والإنجاب ، فالمرأة تقصد إعفاف الرجل حتى لا تمتد عينه إلى امرأة أخرى ، وهو يقصد أيضا بهذه العملية أن يعفها حتى لا تنظر إلى غيره ، والله يريد الإعفاف في تلك المسألة لينشأ الطفل في هذا اللقاء على أرض صلبة من الطهر والنقاء .
وحتى لا يتشكك الرجل في بضع منه هم أبناؤه ، والحق سبحانه يريد طهارة الإنسان ، فكل نسل يجب أن يكون محسوباً على من استمتع ، وبعد الاستمتاع ، عليه أن يتحمل التبعة ، فلا يصح لمسلم أن يستمتع ويتحمل سواه تبعة ذلك ، فالمسلم يأخذ كل أمر بحقه .

{ فالآن بَاشِرُوهُنَّ وابتغوا مَا كَتَبَ الله لَكُمْ } أي ما كتب الله من أن الزواج للإعفاف والإنجاب . وفي ذلك طهارة لكل أفراد المجتمع . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « وفي بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » .
ويتابع الحق : { وَكُلُواْ واشربوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيط الأبيض مِنَ الخيط الأسود } أي إلى أن يتضح لكم الفجر الصادق . وكان هناك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أذانان للفجر ، كان بلال يؤذن بليل ، أي ومازال الليل موجوداً ، وكان ابن أم مكتوم يؤذن في اللحظة الأولى من الفجر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن سمعتم أذان ابن أم مكتوم فأمسكوا » . لكن أحد الصحابة وهو عدي بن حاتم قال : أنا جعلت بجواري خيطا أبيض وخيطاً أسود ، وأظل آكل حتى أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . فقال له : إنك لعريض القفا (أي قليل الفطنة) فالمراد هنا بياض النهار وسواد الليل .
ويتابع الحق : { ثُمَّ أَتِمُّواْ الصيام إِلَى اليل وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المساجد } . لقد كانوا

يفهمون أن المباشرة في الليل حسب ما شرع الله لا تفسد الصوم . ولكن كان لابد من وضع آداب للسلوك داخل المسجد أو لآداب سنة الاعتكاف التي سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان لهذا أوضح الحق أن حلال المباشرة بين الرجل وزوجته هو لغير المعتكف وفي غير ليل رمضان . أما المعتكف في المسجد فذلك الأمر لا يحل له ، ومعنى الاعتكاف هو أن تحصر حركتك في زمن ما على وجودك في مكان ما ، ولذلك يقولون : « فلان معتكف هذه الأيام » أي حبس حركته في زمن ما في مكان ما ، وليس معنى ذلك أن الاعتكاف مقصور على العشر الأواخر من رمضان فقط ، ولكن للمسلم أن يعتكف في بيت الله في أي وقت .

واختلف العلماء في الاعتكاف ، بعضهم اشترط أن يكون المرء صائماً حين يعتكف ، واشترطوا أيضا أن يكون الاعتكاف لمدة معينة ، وأن يكون بالمسجد ، وقالوا : إن أردت الاعتكاف ، فاحصر حركتك في مكان هو بيت الله .

وكثير من العلماء يقولون : إنك إذا دخلت المسجد تأخذ ثواب الاعتكاف مادمت قد نويت سنة الاعتكاف؛ بشرط ألا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا؛ لأنك جئت من حركتك المطلقة في الأرض إلى بيت الله في تلك اللحظة ، فاجعل لحظاتك لله . ولذلك « حينما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ينشد ضالته في المسجد أي شيئا قد ضاع منه فقال له : » لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا « .

لماذا؟ لأن المسجد مكان للعبادة ، ولذلك أقول لمن يحدثني في المسجد بأي شيء يتعلق بحركة الحياة : « أبشر بأنها لن تنفع »؛ لأنك دخلت المسجد للعبادة فقط ، إن لحظة دخولك المسجد هي لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه ، وتعيش في حضن عنايته ، فلماذا تأتي بالدنيا معك؟ وليكن لنا في أحد الصحابة قدوة حسنة؛ كان يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا . وزاد صحابي آخر فقال له : وزد يا أخي أننا نترك أقدارنا مع نعالنا .

انظر إلى الدقة ، إن الصحابي المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد ، ولكن يخلع أيضا قدره في الدنيا . فيمكن أن تأخذك الدنيا ساعات اليوم الكثيرة ، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل ، فضع قدرك مع نعلك خارج المسجد ، وادخل بلا قدر إلا قدر إيمانك بالله . وأجلس في المكان الذي تجده خالياً . فلا تتخط الرقاب لتصل إلى مكان معين في المسجد .

فأنت تدخل بعبودية لله وقد يأتي مجلسك بجانب من يخدمك ، والصغير يقعد بجانب الكبير ، ولا تلحظ لك قدراً إلا قدرك عند الله .

إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث ينتهي به المجلس . أي عندما يجد مكاناً له ، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنساناً مكاناً لإنسان آخر بالسجادة ، وقد يدخل إنسان ليتخطى

الرقاب ، ويجلس في الصف الأول وهو لا يعلم أن الله قد صف الصفوف قبل أن يأتي هو إلى المسجد . ومادمنا سنترك أقدارنا فلا تقل أين سأجلس وبجوار مَنْ؟ بل اجلس حيث ينتهي بك المجلس ولا تتخط الرقاب . وانو الاعتكاف ولا تتكلم في أي أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخل في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يبارك الله لك في الضالة التي تنشدها وتطلبها .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ، فهل معنى ذلك أن الاعتكاف لا يصح إلا في المساجد؟ لا؛ إن الاعتكاف يصح في أي مكان ، ولكن الاعتكاف بالمسجد هو الاعتكاف الكامل؛ لأنك تأخذ فيه بالزمان والمكان معاً .
{ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المساجد تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا } ومعنى « الحد » هو الفاصل المانع من اختلاط شيء بشيء ، وحدود الله هي محارمه . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « . . ومَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا إن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه » .
إذن فالمحارم هي التي يضع الله لها حداً فلا نتعداه .

ولنا أن نلحظ أنه ساعة ينهى الله عن شيء فهو يقول : { فَلاَ تَقْرَبُوهَا } وساعة يأمر بأمر يقول سبحانه : { فَلاَ تَعْتَدُوهَا } . وفي ذلك رحمة من الله بك أيّها المكلف .
فلا تجعل امرأتك تأتيك وأنت في معتكفك ، فقد تكون جميلة ، صحيح أنك لا تنوى أن تفعل أي شيء ، لكن عليك ألا تقرب أسباب النواهي ، ومثال ذلك تحريم الخمر لقد أمر الحق باجتنابها أي ألا تقرب حتى مكان الخمر؛ لأن الاقتراب قد يُزين لك أمر احتسائها ، إذن فلكي تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألا تقرب النواهي . وفي الأوامر عليك ألا تتعداها .
ويذيل الحق الآية بقوله : { كذلك يُبَيِّنُ الله آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } . والآيات هي العجائب ، وكل آية هي شيء عجيب لافت ، لذلك نقول : هذه آية في الحسن ، وتلك آية في الجمال ، وقد تُطلق الآية أيضاً على السمة؛ لأن السمة أو العلامة هي التي تلفتنا إلى الشيء ، فيكون ما جاء بالآية داخلا في معنى قوله الحق : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا كذلك يُبَيِّنُ الله آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } .
ولقد أوضحت هذه الآية والآيات السابقة عليها ، تشريعات الصيام والاستثناء من التشريع . رفعا للحظر ودفعا للمشقة بعد أن تقع ، وكل ذلك ليستوفي التشريع كل مطلوبات الله من المُشَرَّع له . حين يأخذ كل إنسان ذلك البيان الوافي من ربه ويسيطر به على حركة حياته في ضوء منهج الله يكون قد اتقى . والتقوى كما نعلم ليست للنار فقط ، لكنها اتقاء لكل مشاكل الحياة؛ فالذي يجعل الحياة مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التي نسنها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقي المشاكل . ولذلك يقول الحق : { وَمَنْ

أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً } [طه : 124]
أي أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل ، لأنه يخالف منهج الله . وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا ، لذلك كان لابد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أن يسيطر . وحين يتمسك الناس بمنهج الله ، لن تأتي لهم المشاكل بإذن الله .
وانظر إلى دقة الأداء القرآني في ترتيب الأحكام بعضها على بعض ، فالإنسان المخلوق لله في الأرض المسخرة له بكل ما فيها ، له حياة يجب أن يحافظ عليها . وتبقى الحياة ببقاء الرزق في الاقتيات من مأكل ومشرب ، وكذلك يبقى النوع الإنساني بالتزاوج . . وتكلم الله في رزق الاقتيات ، فجعله للناس جميعا عندما قال : { ياأيها الناس كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض حَلاَلاً طَيِّباً } [البقرة : 168]
وتكلم سبحانه مخاطباً المؤمنين في شأن هذا الرزق ، فقال : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } [البقرة : 172]
وبعد ذلك شاء الله أن يديم على المؤمنين به قضية التكليف فحرَّم عليهم الطعام والشراب والنكاح في أيام رمضان ، وهي حلال في غير رمضان ، وأحلها الله في ليل رمضان .

وإذا كان قد أرشد أن كل حركة في الحياة هدفها بقاء الحياة ، وإذا كان بناء الحياة يتوقف على الطعام؛ وهو أمر ضروري لكل إنسان ، وإذا كانت الحياة تمتد وتتوالى باستبقاء النوع ، فيبلغ الرجل وينضج ويصير أهلاً للإخصاب ، وتبلغ المرأة وتنضج وتصير أهلاً للحمل ، فإذا كانت كل المسائل السابقة لازمة للجميع ، فلابد من تشريع ينظم كل ذلك .
إن التشريع يسمح لك أن تأكل مما تملك ، أو تأكل مما لا مالك له ، كنبات الأرض غير المملوكة لأحد ، إلا أنك قبل أن تأكل لابد أن تنظر في الطعام لتعرف هل هو مما أحل الله أم لا؟
والتشريع لا يسمح لك أن تأكل من نبات الأرض المملوك لغيرك ، ويحرم عليك أن تصطاد حيوانات مملوكة لغيرك ، فالتشريع يحترم الجهد الذي تحرك به مالك الأرض ليزرع النبات أو ليُربِيَ الحيوان ، فلا تقل : إن ذلك النبات في الأرض وأنا آكل منه ، أو أن ذلك حيوان موجود أمامي وأنا اصطدته .
إن الحق يضع التشريع لينظم الحركة في المال المملوك للغير بعد أن نظم الحركة في المال غير المملوك والطعام غير المملوك ، فإذا سبقك إلى المال غير المملوك أو الطعام غير المملوك إنسان ، أو تحرك إنسان بحركة في الوجود فاستنبط مالاً صارت هناك قضية أخرى لا تتعلق بذات المأكول ، ولكن بملكية المأكول ، فقد بين الله سبحانه : أن كل عمليات اقتياتك في الحياة عملية لا يمكن أن تستقل بها أنت ، فلابد من اختلاط حركة الآخرين معك ، فأنت لا تأكل إلا مما يكون في أيديهم ، وهم لا يأكلون إلا مما يكون في يدك .

فالفلاح مثلاً يبذر البذر ، ولكنّه يحتاج إلى الصانع الذي يصنع له الفأس ، ويصنع له المحراث ، ويصنع له الساقية ، والذي يصنع ذلك يحتاج إلى من يعلمه ، ويحضر له المواد الخام ، إذن فهو سلسلت الأشياء التي توصلك إلى الطعام لوجدت حركات الكون كلها تخدم هذه المسألة .

وهكذا نجد أن الآكل من المال المتداول أمر شائع بين البشر ، ويريد الله أن يضبطه بنظام فقال سبحانه : { وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل . . . }

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188)

ومادامت أموالي فلماذا لا آكلها؟ إن الأمر هنا للجميع ، والأموال مضافة للجميع ، فالمال ساعة يكون ملكا لي ، فهو في الوقت نفسه يكون مالاً ينتفع به الغير .

إذن فهو أمر شائع عند الجميع ، لكن ما الذي يحكم حركة تداوله؟ إن الذي يحكم حركة تداوله هو الحق الثابت الذي لا يتغير ، ولا يحكمه الباطل . وما معنى الباطل ، والحق؟ إن الباطل هو الزائل ، وهو الذي لا يدوم ، وهو الذاهب . والحق هو الثابت الذي لا يتغير فلا تأكل بالباطل ، أي لا تأكل مما يملكه غيرك إلا بحق أثبته الله بحكم : فلا تسرق ، ولا تغتصب ، ولا تخطف ، ولا ترتش ، ولا تكن خائناً في الأمانة التي أنت موكل بها ، فكل ذلك إن حدث تكن قد أكلت المال بالباطل .

وحين تأكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصياً أن تعفي غيرك مما أبحته لنفسك ، وسيأكل غيرك بالباطل أيضاً . ومادمت تأكل بالباطل وغيرك يأكل بالباطل ، هنا يصير الناس جميعاً نهباً للناس جميعا . لكن حين يُحكَم الإنسان بقضية الحق فأنت لا تأخذ إلا بالحق ، ويجب على الغير ألا يعطيك إلا بالحق ، وبذلك تخضع حركة الحياة كلها لقانون ينظم الحق الثابت الذي لا يتغير ، لماذا؟ لأن الباطل قد يكون له علو ، لكن ليس له استقرار ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : { أَنَزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال } [الرعد : 17]

وساعة ترى مطراً ينزل في مسيلٍ ووادٍ ، فأنت تجد هذا المطر قد كنس كل القش والقاذورات وجرفها فطفت فوق الماء ولها رغوة ، وكذلك فأنت عندما تدخل الحديد في النار تجده يسيل ويخرج منه الخبث ، ويطفو الخبث فوق السطح ، وهكذا نجد أن طفو الشيء وعلوه على السطح لا يعني أنه حق ، إنه سبحانه يعطينا من الأمور المُحسة ما نستطيع أن نميز من خلاله الأمور المعنوية ، وهكذا ترى أن الباطل قد يطفو ويعلو إلا أنه لا يدوم ، بل ينتهي ، والمثل العامي يقول : « يفور ويغور » .

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة ، حركة كريمة فلا يدخل في بطنك إلا ما عرقت من أجله ، ويأخذ كل إنسان حقه . وقبل أن يفكر الإنسان في أن يأكل عليه أن يتحرك ليأكل ، لا أن ينتظر ثمرة حركة الآخرين ، لماذا؟ لأن هذا الكسل يشيع الفوضى في الحياة . وحين نرى إنساناً لا يعمل ويعيش في راحة ويأكل من عمل غيره فإن هذا الإنسان يصبح مثالاً يحتذي به الآخرون فيقنع الناس جميعاً بالسكون عن الحركة ويعيشون عالة على الآخرين .

ويترتب على ذلك توقف حركة الحياة ، وهذا باطل زائل ، وبه تنتهي ثمار حركة المتحرك ، وهنا يجوع الكل .

إن الحق يريد للإنسان أن يتحرك ليشبع حاجته من طعام وشراب ومأوى ، وبذلك تستمر دورة الحياة . إنه سبحانه يريد أن يضمن لنا شرف الحركة في الحياة بمعنى أن تكون لك حركة في كل شيء تنتفع به؛ لأن حركتك لن يقتصر نفعها عليك ، ولكنها سلسلة متدافعة من الحركات المختلفة ، وحين تشيع أنت شرف الحركة فالكل سيتحرك نحو هذا الشرف ، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك ، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تشيع الفوضى في الكون .

وعلى هذا فالحركة الحلال لا يكفي فيها أن تتحرك فقط ، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بألا تكون في الباطل ، لأن الذي يسرق إنما يتحرك في سرقته ، ولكن حركته في غير شرف وهي حركة حرام . إذن كل مسروق في الوجود نتيجة حركة باطلة ، وكذلك الغصب ، والتدليس ، والغش ، وعدم الأمانة في العمل ، والخيانة في الوديعة ، وإنكار الأمانة ، كل ذلك باطل ، وكل حركة في غير ما شرع الله باطل ، حتى المعونة على حركة في غير ما شرع الله ، كل ذلك باطل .

ويقول لنا الحق سبحانه : { وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل } أي إياكم أن تأكلوها بالباطل ثم تدلوا بها إلى الحكام ليبرروا لكم أن هذا الباطل هو حق لكم . فهناك أناس كثيرون يرون في فعل الحاكم مبرراً لأن يفعلوا مثله ، وهذا أمر خاطئ؛ لأن كل إنسان مسئول عن حركته .

لا تقل إن الحاكم قد شرع أعمالاً وتُلقى عليه تبعة أفعالك؛ ومثال ذلك تلك الأشياء التي نقول عليها إنّها فنون جميلة من رقص وغناء وخلاعة ، هل إباحة الحكومات لها وعدم منعها لها هل ذلك يجعلها حلالاً؟ لا؛ لأن هناك فرقاً بين الديانة المدنية والديانة الربانية . ولذلك تجد أن الفساد إنما ينشأ في الحياة من مثل هذا السلوك .

إن الذين يشتغلون بعمل لا يقره الله فهم يأكلون أموالهم بالباطل ، ويُدخلون في بطون أولادهم الأبرياء مالاً باطلاً ، وعلى الذين يأكلون من مثل هذه الأشياء أن ينتبهوا جيداً إلى أن الذي يعولهم ، إنما أدخل عليهم أشياء من هذا الحرام والباطل ، وعليهم أن يذكروا ربهم وأن يقولوا : لا لن نأكل من هذا المصدر؛ لأنه مصدر حرام وباطل ، ونحن قد خلقنا الله وهو سبحانه متكفل برزقنا .

وأنا اسمع كثيراً ممن يقولون : إن هذه الأعمال الباطلة أصبحت مسائل حياة ، ترتبت الحياة عليها ولم نعد نستطيع الاستغناء عنها . وأقول لهم : لا ، إن عليكم أن ترتبوا حياتكم من جديد على عمل حلال ، وإذا أصر واحد على أن يعمل عملاً غير حلال ليعول من هو تحته ، فعلى المُعال أن يقف منه موقفا يرده ، ويصر على ألا يأكل من باطل .

وتصوروا ماذا يحدث عندما يرفض ابن أن يأكل من عمل أمه التي ترقص مثلا أو تغني ، أو عمل والده إذا علم أنه يعمل بالباطل؟ المسألة ستكون قاسية على الأب أو الأم نفسيهما .
إن الذين يقولون : إن هذا رزقنا ولا رزق لنا سواه ، أقول لهم : إن الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب ، ولا يظن إنسان أن عمله هو الذي سيرزقه ، إنما يرزقه الله بسبب هذا العمل : فإن انتقل من عمل باطل إلى عمل آخر حلال فلن يضن الله عليه بعمل حق ورزق حلال ليقتات منه .
وقد عالج الحق سبحانه وتعالى هذه القضية حينما أراد أن يحرم بيت الله في مكة على المشركين ، لقد كان هناك أناس يعيشون على ما يأتي به المشركون في موسم الحج ، وكان أهل مكة يبيعون في هذا الموسم الاقتصادي كل شيء للمشركين الذين يأتون للبيت ، وحين يُحَرِّم الله على المشرك أن يذهب إلى البيت الحرام فماذا يكون موقف هؤلاء؟ إن أول ما يخطر على البال هو الظن القائل : « من أين يعيشون »؟ ولنتأمل القضية التي يريد الله أن ترسخ في نفس كل مؤمن . قال الحق : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا } [التوبة : 28]
ثم يأتي للقضية التي تشغل بال الناس فيقول : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ } [التوبة : 28]
وهكذا نرى أن هذه القضية لم تخف على الله فلا يقولن أحدٌ إن العمل الباطل الحرام هو مصدر رزقي ، ولن أستطيع العيش لو تركته سواء كان تلحيناً أو عزفاً أو تأليفاً للأغاني الخليعة ، أو الرقص ، أو نحت التماثيل . نقول له : لا ، لا تجعل هذا مصدراً لرزقك والله يقول لك : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ } . وأنت عندما تتقي الله ، فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً . { وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ } ، وعليك أن تترك كل عمل فيه معصية لله وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره .
إذن فقول الله : { وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل } تنبيه للناس ألا يُدخلوا في بطونهم وبطون من يعولون إلا مالاً من حق ، ومالاً بحركة شريفة؛ نظيفة ، وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق : { وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ } [الطلاق : 2-3]
ولنا أن نعرف أن مَنْ أكل بباطل جاع بحق ، أي أن الله يبتليه بمرض يجعله لا يأكل من الحلال الطيب ، فتجد إنساناً يمتلك أموالاً ويستطيع أن يأكل من كل ما في الكون من مطعم ومشرب ،

ولكن الأطباء يحرمون عليه الأكل من أطعمة متعددة لأن أكلها وبال وخطر على صحته ، وتكون النعمة أمامه وملك يديه ، ولكنه لا يستطيع أن يأكل منها بحق .

وفي الوقت نفسه يتمتع بالنعمة أولاده وخدمه وحاشيته وكل مَنْ يعولهم ، مثل هذا الإنسان نقول له : لابد أنك أخذت شيئاً بالباطل فحرمك الله من الحق .

ومن هنا نقول : « مَنْ أكل بباطل جاع بحق » . وكذلك نقول : « مَنْ استغل وسيلة في باطل أراه الله قبحها بحق » ، فالذي ظلم الناس بقوته وبعضلاته المفتولة لابد أن يأتي عليه يوم يصبح ضعيفاً .

والمرأة التي تهز وسطها برشاقة لابد أن يأتي عليها يوم يتيبس وسطها فلا تصبح قادرة على الحركة ، والتي تخايل الناس بجمال عيونها في اليمين والشمال لابد أن يأتيها يوم وتعمى فلا ترى أحدا ، وينفر الناس من دمامتها .

إن كل مَنْ أكل بباطل سيجوع بحق ، وكل مَنْ استغل وسيلة بباطل أراه الله قبحها بحق ، واكتب قائمة أمامك لِمَنْ تعرفهم ، واستعرض حياة كل مَنْ استغل شيئاً مما خلقه الله في إشاعة انحراف ما أو جعله وسيلة لباطل لابد أن يُريه الله باطلاً فيه .

وأنا أريد الناس أن يعملوا قائمة لكل المنحرفين عن منهج الله ، ويتأملوا مسيرة حياتهم ، وكل منا يعرف جيرانه وزملاءه من أين يأكلون؟ ومن أين يكتسبون؟ ليتأمل حياتهم ويعرف أعمال الحلال والحرام ويجعل حياتهم عبرة له ولأولاده ، كيف كانوا؟ وإلي أي شيء أصبحوا؟ ثم ينظر خواتيم هؤلاء كيف وصلت .

ومن حبنا لهؤلاء الناس نقول لهم : تداركوا أمر أنفسكم فلن تخدعوا الله في أنكم تجمعون المال الحرام ، وبعد ذلك تخرجون منه الصدقات ، إن الله لن يقبل منكم عملكم هذا؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .

ونحن نسمع عن كثير من المنحرفين في الحياة يذهبون للحج ، ويقيمون مساجد ويتصدقون ، وكل ذلك بأموال مصدرها حرام ، ولهؤلاء نقول : إن الله غني عن عبادتكم ، وعن صدقاتكم الحرام ، وننصحهم بأن الله لا ينتظر منكم بناء بيوت له من حرام أو التصدق على عباده من مال مكتسب بغير حلال ، لكنه سبحانه يريد منكم استقامة على المنهج .

وحين نتأمل الآية نجد فيها عجباً ، يقول الله عز وجل : { وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الحكام } لقد ذكر الحق الحكام في الآية؛ لأن الحاكم هو الذي يقنن ويعطي مشروعية للمال ولو كان باطلاً ، وقوله سبحانه : { تُدْلُواْ } مأخوذة من « أدلى » ، ونحن ندلي الدلو لرفع الماء من البئر و « دلاه » : أي أخرج الدلو ، أما « أدلى » : فمعناها « أنزل الدلو » . ولذلك في قصة الشيطان الذي يغوي الإنسان قال الحق : { فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا

الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا } [الأعراف : 22]
{ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الحكام } أي ترشوا الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالباطل ، ومن العجيب أن هذا النص بعينه هو نص الرشوة .

والرشوة مأخوذة من الرِّشاء ، والرِّشاء هو الحبل الذي يعلق فيه الدَّلو ، فأدلى ودَلاَ في الرشوة . ولماذا يدلون بها إلى الحكام؟ إنهم يفعلون ذلك حتى يعطيهم الحكام التشريع التقنيني لأكل أموال الناس بالباطل ، وذلك عندما نكون محكومين بقوانين البشر ، لكن حينما نكون محكومين بقوانين الله فالحاكم لا يبيح مثل هذا الفعل .
ولذلك وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ فقال : « إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحب أنه صادق فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » . إن الذين يقول ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المعصوم ، إنه يحذر من أن يحاول أحد أن يبالغ في قوة الحجة ليأخذ بها حقاً ليس له .
إذن فحين يُقنن الفساد فذلك نتيجة أن الحاكم يقر ذلك ، ويأخذ الإنسان الحاكم كأمر نهائي ، مثال ذلك : بعض من الحكام لم يحرموا الربا ، ويتعامل به الناس بدعوى الحكومات تحلله ، فلا حرج عليهم . ومثل هذا الفهم غير صحيح؛ لأن الحكومات لا يصح أن تحلل ما حرمه الله ، وإن حللت ذلك فعلى المؤمن أن يحتاط وأن يعرف أنه والحكام محكومون بقانون إلهي ، وإن لم تقنن الحكومات الحلال من أجل سلطتها الزمنية فعلى المؤمن ألا يخرج عن تعاليم دينه .
وإذا نظرنا إلى أي فساد في الكون ، في أي مظهر من مظاهر الفساد فسنجد أن سببه هو أكل المال بالباطل ، ولذلك لم يترك الحق سبحانه وتعالى تلك المسائل غائبة ، وإنما جعلها من الأشياء المشاهدة . وأنت إن أردت أن تعرف خلق أي عصر ، واستقامته الدينية وأمانته في تصريف الحركة فانظر إلى المعمار في أي عصر من العصور ، انظر إلى المباني ومن خلالها تستطيع أن تُقَيم أخلاق العصر . إنك إن نظرت إلى عملية البناء الآن تجد فيها استغلال المال ، وعدم أمانة المنفذ ، وخيانة العامل ، وكل هذه الجوانب تراها في المعمار . لننظر مثلا إلى مجمع التحرير ولنسترجع تاريخ بنائه ، ولنقرنه بمبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالي وما بني في عهدهما .
ولننظر إلى المباني والإنشاءات التي نسمع عنها وتنهار فوق سكانها ولنقارنها بمبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالي ، سنجد أن المباني القديمة قامت على الذمة والأمانة ، أما المباني التي تنهار على سكانها في زماننا أو تعاني من تلف وصلات الصرف الصحي فيها ، تلك المباني قامت على غش الممول الشره الطامع ، والمهندس المدلس الذي صمم أو أشرف على البناء أو الذي تسلم المبنى وأقر صلاحيته ، ومروراً بالعامل الخائن ، وتكون النتيجة ضحايا أبرياء لا ذنب لهم ، ينهار

عليهم المبنى ويخرجون جثثا من تحت الأنقاض ، إن كل ذلك سببه أكل المال بالباطل . ولقد نظر الشاعر أحمد شوقي في هذه المسألة ، وجعل الأخلاق والدين من المبادئ فقال :

وليس بعامر بنيان قوم ... إذا أخلاقهم كانت خرابا

وأنا أقترح على الدولة أن تعد سجلا محفوظا لكل عمارة يتم بناؤها ، ويُحفظ في هذا السجل اسم مموِّلها ، والمهندس الذي أشرف على بنائها ، وكذلك أسماء عمال البناء ، وعمال التشطيب ، والأعمال الصحية والكهربائية وكافة العمال الذين شاركوا في بنائها . ويُحفظ كل ذلك في ملف خاص بالعمارة ، وعندما يحدث أي شيء يأتون بهؤلاء ، كل في تخصصه ويحاسبونهم على ما قصروا فيه من عمل ، وإلا فإن أرواح الناس ستذهب سدي؛ فكل إنسان منا له فرصة في هذه الحياة وعليه ألا يطغى على نصيب غيره .

وهب أننا نأخذ سلعة « بطابور » حتى لا يتقدم أحد على دور الآخر ، وقد جاء الأول في « الطابور » من الساعة السابعة صباحاً وأخذ دوره ، وجاء آخر متأخرا بعد أن نام واستراح ثم قضى جميع مصالحه وذهب للجمعية ووجد الصف طويلا ، فنظر حوله إلى شخص يتخطى هذا « الطابور »؛ وأعطاه مبلغا من المال سهل له قضاء حاجته ، مثل هذا الإنسان تعدى على حقوق كل الواقفين في « الطابور » .

وقد يقول : أنا أخذت مثلما يأخذون ، نقول له : لا؛ لقد أخذت زمن غيرك ولا يصح أن تأتي آخر الناس وتأخذ حق الشخص الذي وقف في « الطابور » من السابعة صباحا . إن حقك مرتبط بزمنك ، فلا تعتد على وقت الآخرين الذين هم أضعف منك قدرة أو مالاً . إن الحق يقول : { وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الحكام لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ الناس بالإثم وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } . والفريق هو الجماعة المعزولة من جماعة أكثر عددا ، فإذا ما انفصلت جماعة صغيرة عن أناس بهذه الجماعة تُسمى فريقاً .

والإثم الأصيل فيه ولو لم يكن هناك دين أن تفعل ما تُعاب عليه وتُذم ، وكذلك تُعاب عليه وتُذم من ناحية الدين ، وفوق ذلك تعاقب في الآخرة . وما هو مقياس الحق والباطل؟ إن المقياس الذي ينجيك من الباطل هو أن تقبل لنفسك ما تقبله للطرف الآخر في أية صفقة أو معاملة؛ لأنك لا ترضى لنفسك إلا ما تعلم أن فيه نفعاً لك .

ثم ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية يعالج فيها أمراً واجه الدعوة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية إنما جاءت لتخلع المؤمنين بالله من واقع في الحياة كان كله أو أغلبه باطلاً ، ولكنهم اعتادوه وألفوه أو استفاد أناس من ذلك الباطل ، ذلك أن الباطل لا يستمر إلا إذا كان هناك مَنْ يستفيدون منه . وجاء الإسلام ليخلص الناس من هذه الأشياء الباطلة . فالحق لم يشأ أن يعلمنا أن كل أحوال الناس غارقة في الشرور ، بل كانت هناك أمور أقرها الإسلام كما هي ،

فالإسلام لم يغير لمجرد التغيير ، ولكنه واجه الأمور الضارة بالحياة التي لا يستفيد منها إلا أهل الباطل .

مثال ذلك كان العرف السائد في الدية أنها مائة من الإبل يدفعها أهل القاتل ، وقد أبقاها الإسلام كما هي . وحينما استقبل المسلمون الإيمان بالله ، فهم قد استقبلوا أحكامه وأرادوا أن يبنوا حياتهم على نظام إسلامي جديد طاهر ، حتى الشيء الذي كانوا يعملونه في الجاهلية كانوا يسألون عن حكمه؛ لأنهم لا يريدون أن يصنعوه على عادة ما كان يصنع ، بل على نية القربى إلى الله بالامتثال ، إذن فهم عشقوا التكليف ، وعلموا أن الله لم يكلفهم إلا بالنافع ، وعندما نقرأ { يَسْأَلُونَكَ } في القرآن فاعلم أنها من هذا النوع ، مثل ذلك قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو } [البقرة : 219]

وقوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى } [البقرة : 222]

وقوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى } [البقرة : 220]

وقوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأقربين } [البقرة : 215]

وقوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين . . } [الكهف : 83]

وقوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال للَّهِ والرسول } [الأنفال : 1]

إذن فكل سؤال معناه أنهم أرادوا أن يبنوا حياتهم على نظام إسلامي ، حتى الشيء الذي لم يغيره الإسلام أرادوا أن يعرفوه ويصنعوه على أنه حكم الإسلام لا على حكم العادة .

والسؤال الذي نحن بصدده يعالج قضية كونية . وعندما يسأل المسلمون عن قضية كونية فذلك دليل على أنهم التفتوا إلى كون الله التفاتاً دينياً آخر ، لقد وجدوا الشمس تشرق كل يوم ولا تتغير ، أما القمر الذي يطلع في الليل فهو الذي يتغير ، إنه يبدأ في أول الشهر صغيراً ثم يكبر حتى يصبح بدراً ، وبعد ذلك يبدأ في التناقص حتى يعود إلى ما كان عليه ، لقد لفت نظرهم ما يحدث للقمر ولا يحدث من الشمس ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أن بعضاً من اليهود أرادوا إحراج المسلمين فقالوا لهم : « اسألوا رسولكم عن الهلال كيف يبدأ صغيراً ثم يكبر حتى يصير بدراً ثم يعود لدورته مرة أخرى حتى يغرب ليلتين لا نراه فيهما » ، وهذا السؤال سجله القرآن في قوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج وَلَيْسَ البر بِأَن تَأْتُواْ البيوت مِن ظُهُورِهَا . . . }

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)

الأهلة جمع هلال ، وسمى هلالاً لأن الإنسان ساعة يراه يهل ، أي يرفع صوته بالتهليل ، ويجيب الحق سبحانه وتعالى الجواب الذي يحمل كل التفاصيل عن القمر ، وهو الكوكب الذي خضع لنشاطات العقل حتى يكتشفه ، والعرب القدامى لم يكونوا يعلمون شيئاً عن ذلك القمر ، ولكنهم كانوا يؤرخون به ، وعلمهم به لم يزد على حدود انتفاعهم به . ولم يصلوا إلى الترف العقلي الذي يتأملون به آيات الله في الكون ، فكل آيات الكون يُنتفع بها ثم ينشط العقل بعد ذلك ، فنعرف السبب ، وقد لا ينشط العقل فتظل الفائدة هي الفائدة .

وأراد الحق سبحانه أن يلفتنا لمبدأ هام ، وهو أن يعلمنا كيف نستفيد من الآيات الكونية مثل القمر ، لا يكفي ظهوره واختفاؤه ، وتغير حجمه ، لأن هذه لن يتسع لها العقل ، بل نستفيد منه كميقات ، ونستخدمه لقياس الزمن . فإذا كنا ونحن نعيش في القرن العشرين ، لم يعرف العلماء سبباً لظواهر القمر ، فكيف كان حال الذين سألوا عنها منذ أربعة عشر قرناً؟

قال العلماء المعاصرون في تفسيراتهم مثلاً : إن الشمس مثل حجم الأرض مليونا وربع مليون مرة ، والقمر أصغر من الأرض ، وعندما تأتي الأرض بين الشمس والقمر برغم حجم الشمس الهائل فإن الأرض تحجب جزءاً من القمر ، هذا الجزء المحجوب بقدر تدوير القوس المحجوب من الأرض ويصبح هذا الجزء من القمر مظلماً .

إن القمر وجوده ثابت لكن الأرض عندما توجد بينه وبين الشمس فهي التي تحجب عنه ضوء الشمس ، ويكبر حجم نوره كلما تزحزحت الأرض بعيداً عنه . وعندما تنزاح الأرض بعيداً عنه كلية يظهر في السماء بدراً كاملاً ، ثم تعود الأرض بعد ذلك لتحجب عنه جزءاً من الشمس ، ويزداد ذلك يوماً بعد يوم ، فينقص ضوء الشمس المنعكس عليه تبعاً لذلك ، فيقل تدريجياً حتى تأتي الأرض بينه وبين الشمس فلا يظهر منه شيء .

ونقول نحن : إننا عندما لا نرى القمر لا في الليل ولا في النهار برغم أنه موجود في مكانه ، نقول : إنه مستور في ظل الأرض ، لذلك لا نراه . وهذه الظاهرة لا تحدث للشمس لأن جرم الشمس كبير جداً . وعندما يحدث فإن الأثر يكون قليلا ، ويسمى بالكسوف .

وعندما التفت العرب للكون قالوا : ما بال الهلال يصبح هكذا ثم يكبر حتى يصير بدراً ، فقال الحق عز وجل : { قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج } إنهم هم يسألون عن الأهلة ودورتها ، فقطع الله عليهم خيط تفكيرهم وأعطاهم الخلاصة والنتيجة ، فقال : { قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج } . إن هذا الأمر هو الذي يستطيع العقل في ذلك الزمان أن يعرفه ، أما ما وراء ذلك فانتظروا حتى يكشف الزمن عنه ، وجهلكم به لا يقلل من نفعكم .

لقد كانت كل إجابة لأي سؤال في ذلك الزمان تحتوي على ما يتسع العقل لإدراكه ساعة التشريع ، أما بقية الإجابة فالحق يتركها للزمن .

ولا يعطينا إلا ما يفيد التشريع ، مثال ذلك : كانوا قديما يقولون : الأرض كرة وأثبت لنا العلم أنها كذلك ، ورأيناها بالأقمار الصناعية وانتهت القضية .

وعندما سأل العرب عن الأهلة أخبرنا الحق بأنها مواقيت ، والمواقيت جمع ميقات ، والميقات من الوقت ، والوقت هو الزمن ، ونعرف أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمن وإلى مكان .

إذن فالزمان والمكان مرتبطان بالحدث فلا يوجد زمان ولا مكان إلا إذا وجد حدث .

والذي يقول : كيف كان الزمن قبل أن يخلق الله الخلق؟ . نقول له : الزمن وُجد للحادث وهو المخلوقات والله قديم ، وما دام الله قديما وليس حادثا فلا زمان ولا مكان ، لا تقل متى ولا أين؛ لأن متى وأين مخلوقة . وكيف نعرف الوقت؟ نحن نعرف الوقت بأنه مقدار من الزمن ، لمقدار من الحركة ولمقدار من الفعل .

وأين المكان في هذا التعريف؟ إن الزمان يتحكم أحياناً في المكان ، فيقول الزمان هو الأصل ، والمكان طارئ عليه ، ومرة أخرى يكون المكان هو الأصل ، والزمان هو الطارئ عليه ، ومرة ثالثة يتلازم الاثنان الزمان والمكان .

ونحن في مصر إذا أردنا الحج فإننا نبدأ الإحرام عند رابغ ، ونُسمي رابغ ميقات أهل مصر أي هي المكان الذي لا يتجاوزه من مر عليه إلا وهو محرم .

إذن فالميقات قد أطلق على مكان هو رابغ ، ومن فور وصول الإنسان المصري إلى رابغ بغية الحج يحرم ، سواء كان الوقت صباحاً أو ظهراً أو عصراً أو مغرباً .

ولكن عندما نبدأ في الصوم فإن الزمن يصبح هو الأصل في صومك في أي مكان تذهب إليه ، إن الزمان هو الذي يحدد مواعيد الصوم : في طنطا أو لندن أو في طوكيو ، وهكذا نعرف كيف يكون الزمن ميقاتاً .

إذن فمرة يكون الزمن هو المتحكم في الميقات والمكان طارئ عليه ، ومرة يكون المكان هو الذي يتحكم في الميقات ، والزمن طارئ عليه ، ومرة يتحكم الزمان والمكان معاً في الفعل مثل يوم عرفة .

وهكذا نعرف معنى { مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ } ، فنحن بالهلال نعرف بدء شهر رمضان ، ونعرف به عيد الفطر ، وكذلك موسم الحج وعدة المرأة ، والأشهر الحرم ، إن كل هذه الأمور إنما نعرفها بالمواقيت . وشاء الحق أن يجعل الهلال هو أسلوب تعريفنا تلك الأمور وجعل الشمس لتدلنا على اليوم فقط ، وإن كان لها عمل آخر في البروج التي يتعلق بها حالة الطقس والجو ، والزراعة ، ولذلك قال : { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً } [يونس : 5]

وانظر إلى الدقة في الأداء وكيف يشرح الحق للإنسان ماهية النور ، وماهية الضوء . إن الشمس مضيئة بذاتها ، أما القمر فهو منير؛ لأن ضوءه من غيره؛ فهو مثل قطعة الحجر اللامعة التي تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطينا نوراً .

إن القمر منير بضوء غيره ، ولذلك يقول الحق في آية أخرى : { وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً } [الفرقان : 61]

والسراج في هذه الآية هو الشمس التي فيها حرارة ، وجعلها الحق ذات بروج ، أما القمر فله منازل وهو منير بضوء غيره؛ وفي ذلك يقول الحق : { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب } [يونس : 5]

إذن ، فعدد السنين وحسابها يأتي من القمر ، وفي زماننا إذا أرادوا أن يضبطوا المعايير الزمنية فهم يقيمونها بحساب القمر؛ فقد وجدوا أن الحساب بالقمر أضبط من الحساب بالشمس؛ فالحساب بالشمس يختل يوماً كل عدد من السنين .

ولنفهم الفرق بين منازل القمر وبروج الشمس . إن البروج هي أسماء من اللغة السريانية ، وهو : برج الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والعذراء ، والأسد ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت ، وعددها اثنا عشر برجا هذه هي أبراج الشمس ، ويتعلق بها مواعيد الزرع والطقس والجو ، ويجب أن نفهم أن لله في البروج أسراراً ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعلها قسماً حين يقول : { والسمآء ذَاتِ البروج } .

ولذلك تجد أن التوقيت في الشمس لا يختلف؛ فالشهور التي تأتي في البرد ، والتي تأتي في الحر هي هي ، وكذلك التي تأتي في الخريف ، والربيع ، وبين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يوما ، والسنة القمرية هي التي تستخدم في التحديد التاريخي للشهور العربية ونعرف بداية كل شهر بالهلال : { إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً } [التوبة : 36]

ولذلك كانت تكاليف العبادة محسوبة بالقمر حتى تسيح المنازل القمرية في البروج الشمسية ، فيأتي التكليف في كل جو وطقس من أجواء السنة ، فلا تصوم رمضان في صيف دائم ، ولا في شتاء دائم ، ولكن يُقَلِّبُ الله مواعيد العبادات على سائر أيام السنة ، والذين يعيشون في المناطق الباردة مثلاً لو كان الحج ثابتا في موسم الصيف لما استطاعوا أن يؤدوا الفريضة ، ولكن يدور موسم الحج في سائر الشهور فعندما يأتي الحج في الشتاء ييسر لهم مهمة أداء الفريضة في مناخ قريب من مناخ بلادهم .

وهكذا نجد أن حكمة الله اقتضت أن تدور مواقيت العبادات على سائر أيام السنة حتى يستطيع كل الناس حسب ظروفهم المناخية أن يؤدوا العبادات بلا مشقة . إذن فالمنازل شائعة في البروج ، وهذا سبب قول بعض العلماء : إن ليلة القدر تمر دائرة في كل ليالي السنة ، وذلك حسب سياحة المنازل في البروج .

إذن فهناك بروج للشمس ، ومنازل للقمر ، ومواقع للنجوم ، ومواقع النجوم التي يقسم بها الله سبحانه في قوله : { فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } [الواقعة : 75-76]

ولعل وقتنا يأتي يكشف الله فيها للبشرية أثر مواقع النجوم على حياة الخلق وذلك عندما تتهيأ النفوس لذلك وتقدر العقول على استيعابه .

إذن كل شيء في الكون له نظام : للشمس بروج ، وللقمر منازل ، وللنجوم مواقع . وكل أسرار الكون ونواميسه ونظامه في هذه المخلوقات ، وقد أعطانا الله من أسرار الأهلة أنها مواقيت للناس والحج . وعندما تكلم سبحانه عن الحج أراد أن يعطينا حكماً متعلقاً به؛ فقد كانت هناك قبائل من العرب تعرف بالحمس ، هؤلاء الحمس كانوا متشددين في دينهم ومتحمسين له ، ومنهم كانت قريش ، وكنانة ، وخثعم ، وجشم ، وبنو صعصاع بن عامر . وكان إذا حج الفرد من هؤلاء لا يدخل بيته من الباب لأنه أشعث أغبر من أداء مناسك الحج . ويحاول أن يدخل بيته على غير عادته ، لذلك كان يدخل من ظهر البيت ، وكان ذلك تشدداً منهم ، لم يرد الله أن يُشرَعه . حتى لا يطلع على شيء يكرهه في زوجه أو أهله . وأراد سبحانه عندما ذكر مناسك الحج في القرآن أن ينقي المناسك من هذه العادة المألوفة عند العرب فقال : { وَلَيْسَ البر بِأَن تَأْتُواْ البيوت مِن ظُهُورِهَا ولكن البر مَنِ اتقى وَأْتُواْ البيوت مِنْ أَبْوَابِهَا واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أي لا تجعلوا المسائل شكلية ، فنحن نريد أصل البر وهو الشيء الحسن النافع .
والملاحظ أن كلمة « البر » في هذه الآية جاءت مرفوعة ، لأن موقعها من الإعراب هو « اسم ليس » وهي تختلف عن كلمة « البر » التي جاءت من قبل في قوله تعالى : { لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرق والمغرب } التي جاءت منصوبة؛ لأن موقعها من الإعراب هو « خبر مقدم لليس » . حاول المستشرقون أن يأخذوا هذا الاختلاف في الرفع والنصب على القرآن الكريم . ونقول لهم : أنتم قليلو الفطنة والمعرفة باللغة العربية ، فماذا نفعل لكم؟ . يصح أن نجعل الخبر مبتدأ فنقول : « زيد مجتهد » ، هذا إذا كنا نعلم زيداً ونجهل صفته ، فجعلنا زيداً مبتدأ ، ومجتهداً خبراً . لكن إذا كنا نعرف إنسانا مجتهداً ولا نعرف من هو؛ فإننا نقول : « المجتهد زيد » .

إذن فمرة يكون الاسم معروفاً لك فتلحق به الوصف ، ومرة تجهل الاسم وتعرف الوصف فتلحق الاسم بالوصف . وهذا سر اختلاف الرفع والنصب في كلمة « البر » في كل من الآيتين . ونقول للمستشرقين : إن لكل كلمة في القرآن ترتيباً ومعنى ، فلا تتناولوا القرآن بالجهل ، ثم تثيروا الإشكالات التي لا تقلل من قيمة الكتاب ولكنها تكشف جهلكم .
ثم ما هو « البر »؟ قلنا : إن البر هو الشيء الحسن النافع . ولو ترك الله لنا تحديد « البر » لاختلفت قدرة كل منا على فهم الحسن والنافع باختلاف عقولنا؛ فأنت ترى هذا « حسناً »؛ وذاك يرى شيئا آخر ، وثالث يرى عكس ما تراه ، لذلك يخلع الله يدنا من بيان معنى البر ، ويحدد لنا سبحانه مواصفات الحسن النافع ، فما من واحد ينحرف ويميل إلى شيء إلا وهو

يعتقد أنه هو الحسن النافع ، ولذلك يقول الحق : { ولكن البر مَنِ اتقى وَأْتُواْ البيوت مِنْ أَبْوَابِهَا } .